محمد أمين زين الدين

إلى الطليعة المؤمنة



مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان



مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

محمد امين زين الدين



منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠

الطبعة الثالثة

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله بجميع محامده كلها على جميع نعمه كلها ، وصلواته المباركة الدائمة على سيد الدعاة وأفضل المخلوقات محمد وآله المطهرين .

رب اوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت علي وعلى والدي وان أعمل صالحاً ترضاه ، وأصلح لي في ذريتي ، إني تبت اليك ، وإني من المسلمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الى الازهار المتطلعة الى النور . العابقةبالشذا ؛

الى الاذهان المتفتحة بالوعي ، المعتصمة بالرشد ، الشاعرة بالمسؤولية، الجديرة بحمل الاعباء .

الى الطليعة المؤمنة من شباب الجيل .

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته وجميل رعايته وروافد توفيقه .

هذه آثار متفرقة ، شاء الأدب أن يقارب ما بينها في لون ، وشاء الاسلام أن يجمع ما بينها في غاية ، وشاء واجب التربية أن يشدها في اطار وأن يضمها فى منهج ، وتآزرت هذه العوامل ، فكان منها هذا المجهود الذي أضعه بأيديكم اليوم .

آثار متفرقة ، حررت أجوبة خاصة لبعض الأعزاء من شباب الجيل ، ثم حذفت منها المخصصات والمعينات لتقدم بحوثاً عامة الى الشباب المؤمنين برسالتهم المستمسكين بدينهم ، لعلها تؤدي أمانة وتفي بحق وتسهم في بناء،

فهي منكم واليكم ايهـا الميامين ، ومن الله لي ولكم هداية السبيل

وبلوغ الغاية .

والأحاديث محاولة عملية في التربية قبل ان تكون اجوبة وحلولا لبعض المشكلات .

محاولة عملية في التربية على ضوء مناهج الاسلام ، وفي اشعاع نظرته ، والى بعض آماده .

والتربية في الاسلام عميقة الجذور بعيدة الأطراف ، بحيث تشمل في سلطانها جميع آفاق النفس ومشاعرها وعواطفها وأحاسيسها وغرائزها .

عميقة الجذور بعيدة الأطراف عمق الاسلام وبعد أطرافه .

وللتربية في الاسلام منهج حافل شامل ، لا يترك ناحية من نواحي النفس الانسانية لا يوليها عنايته ، ولا يتناولها رشده ، ولا يعمها توجيهه ، وهذه احدى مميزات الاسلام لا يشاركه ولا يدانيه فيها سواه .

ان الاسلام يريد من كل أحد يدين به ويؤمن بدعوته أن يكون مسلم الفكر ، مسلم النفس ، مسلم القلب ، مسلم الضمير ، مسلم الحب والبغض ، مسلم الخوف والأمل ، مسلم العواطف والمشاعر .

يريد منه أن يستقبل الايمان يقظاً واعياً بكل مشاعره وبكل أحاسيسه حتى يشع الايمان على جميع الآفاق من عقله وروحه ونفسه ، وحتى تقبس كل ناحية منه - على انفرادها - نصيبها من الايمان ، وتستجيب له في سلوكها ، وتخضع لموجبه في اتجاهاتها وفي ميادين عملها .

وينتقص حظ الفرد من الايمان الكامل اذا شذ بعض نواحيه النفسية عن مجرى الايمان فلم تنل من اشعاعه ولم تصب من رشده ، أو انحرفت

فلم تستوف من عطاء الايمان نصيبها الذي تبلغ به الغاية وتدرك المقصود، وكثير من مؤمني الفكر يعيشون في مشاعر كافرة ، أو هي أقرب الأشياء الى الكفر ، وكثير من الناس لهم عقول نيرة بالعقيدة عامرة بالايمان والبرهان ، ولكنهم يعيشون في ظلمات نفسية مطبقة دونها ظلمة الجحود ، والايمان كالنور لا ينفذ من وراء حجاب ، وموضع العجب أن اكثر هؤلاء لا يجدون تعارضاً بين هذا النشاز النفسي وبين الايمان .

ان الاسلام يريد من كل فرد من أتباعه أن يتلقى الايمان بجميع مشاعره وأحاسيسه حتى يعم الايمان جميع جهاته ويضيء جميع آفاقه ، والاسلام يعد العدة لهذه الغاية ، ويضع لها المناهج ويتخذ الوسائل .

وعلى هذه الركيزة من الايمان الشامل المشرق البناء يقيم الاسلام شخصية الفرد المسلم ، ويصوغ الخلق المسلم ، ويؤسس بناء المجتمع المسلم .

على هذه الركيزة يقيم الاسلام شخصية الفرد المسلم ويعين مقوماتها ويحدد أبعادها وسماتها .

وعلى هذه الركيزة يبدأ ويتم صياغة الخلق المسلم ، يشتق منها موازين الخلق الكريم ، ويضع عليها أسسه ، ويربط بها حدوده وغايته .

وعلى هذه الركيزة يؤسس بناء المجتمع المسلم وينشيء صلاته ويشد علاقاته ، ولتفصيل هذا الاجمال بحوث وكتب أخرى .

واكثر الناس حاجة الى هذا الرصيد من الايمان هم الدعاة الذين يبنون العقائد ويشعون الايمان في قلوب الآخرين ، فان بناء العقيدة التي تضيء النفس وتعمر الحياة لا يكون بحشد البراهين المجردة عليها ، وان

أوجبت اليقين أو الاقتناع بها ، وما اكثر النتائج الفكرية التي يثبتها البرهان حتى لا يشك العقل في ثبوتها ولا يرتاب ، ثم هي لا تبلغ بذلك مبلغ العقائد ولاتدانيها .

ان بناء العقيدة لا يكون بحشد البراهين المجردة عليها ، وان أوجبت اليقين أو الاقتناع بثبوتها ، ولا بد للفكر وللنفس من عملية أخرى وراء الاقتناع بها تكون الفكرة عقيدة .

لابد من ركون نفسي ثابت لا يتزلزل ، واستمساك فكري واثق لايضعف ، هذا هو العمل الذي يقوم به العقل والنفس بعد الاقتناع بالفكرة ، فتكون عقيدة ، وضروري ان ايمان الداعي واخلاصه في الدعوة وصدقه في النصيحة وصدقه في العاطفة لها الأثر الأعظم في توجيه عقل المدعو ونفسه لذلك .

واكثر الدعاة حاجة الى هذا الرصيد الكامل من الايمان هم المربون . هم الذين يصوغون الضمائر وينشئون الأخلاق ، ويوجهون العواطف والمشاعر .

ان هذه المهمة دقيقة عميقة، فلا بد فيها من مناغاة العواطف ، ولا بد فيها من مناجاة الضمائر والمشاعر ، ولا بد وأن تكون المناجاة في ظلال الايمان وتحت رعايته ، ليسري الايمان والتهذيب من طريق الحب ، ويسري من طريق القدوة ، ويسري من طريق الاشعاع .

وأنجح المربين في مهمته وامكنهم من بلوغ غايته من استطاع أن يتحدث الى العاطفة بلسان العاطفة كما يتحدث الى الفكر بلسان الفكر والى الوجدان بلسان الوجدان ، من استطاع أن يتغلغل الى هذه الأعماق فيوجه بالعمل كما يوجه بالقول .

وعدته في الوصول الى هذا المدى هو الايمان الشامل الذي يطبق أرجاء النفس ويضيء أطرافها .

هو الفكر المؤمن والنفس المؤمنة، والضمير المؤمن ، والعاطفة المؤمنة ، والمشاعر المؤمنة ، والخلق المؤمن .

وبهذه العدة أحرز العظماء من قادة الاسلام ورعاته اشواطهم في مهمتهم التربوية ، نعم ، وبهذه العدة بلغوا آمادهم في مهمتهم القيادية :

هذه هي طريقة الاسلام في التربية ، انه يتصل بالفكر من طريق الفكر ، ويتصل بالقلب من طريق القلب ، ويتصل بالوجدان من طريق الوجدان ، ويتصل بالعاطفة من طريق العاطفة وبالمشاعر من طريق المشاعر ، ثم يلقن مبادئه وتعاليمه بالحديث ، ويلقنها بالعمل ، ويلقنها بالايحاء ، ويلقنها بالواقع المجسد المحسوس ، وان الكلمة في ظل هذا الايمان المشع يكون لها اكثر من مدلول ، وان الايماءة يكون لها اكثر من أثر :

والشرط الأول والمهم في نجاح هذه الطريقة وتركيز أثرها أن يقدر الشاب أو الناشيء هذا الجهد من مربيه ، فيبادله حباً بحب ، ويكافئه قلباً بقلب وشعوراً بشعور ، أن ينتهز هذه الفرصة المواتية فيصل به عاطفته ومشاعره ليسري الاثر ويمتد الاشعاع .

وقد تحدثت الى أحد الشباب النجباء فقلت له في جواب كتابه :

(ورسائلي اليكم ايها الاعزاء محاولات في التربية العملية الاسلامية ، فلايستغني قارئها عن تكرارها اكثر من مرة ، ولا يستغني عن أن ينفعل بأحاسيس كاتبها ويصطبغ بمشاعره، ويتكيف مع أساليبه ، ويكون رهن إشارته مادام قارئاً له .

(وكلما تعددت الفرص وامتدت به في تملي هذه الدروس واستبطانها كان أقرب الى النجاح . . .) .

وأضيف هنا ان استقرار الايمان ومد نفوذه وعطاءه العطاء الكامل يفتقر الى طول تعهد ومران ، والى مزيد يقظة ومحاذرة من خداع الوهم وخداع العاطفة والتواءات الغريزة .

هذه طريقة الاسلام في التربية العملية ، أشير اليها هنا بقدر مايوضح للقراء خطتي التي اتبعتها في هذه الرسائل ، اما تفصيل المنهج وتبيين حدوده وخطوطه فموعده يوم يسعدني التوفيق ان شاء الله فاضع الحلقة الخاصة بالتربية من كتاب الاسلام .

ومعذرة مضاعفة الى الاعزاء الذين حررت اليهم الرسائل ، أن تستدعي الرسالة التربوية العامة أن أحذف منها الأسماء والمخصصات والمعينات ، معذرة مضاعفة اليهم ، فهذا هو حكم الواجب الذي لا بد أن يؤدى .

وأوقن أنهم سيكونون أشد غبطة بها حين يرونها بهذه الصبغة ، فتتاح الفرصة فيها - مجتمعة - لهم ولاخوانهم على السواء .

وتحياتي وطيب أماني لكم جميعاً في مطلع الحديث وفي ختامه .

النجف الأشرف ٢٦ جماد الثاني سنة ١٣٨٧ محمد أمين زين الدين

بسم الله وله الحمد

ولدي الحبيب ضياء الدين زين الدين :

أضع على ناظرتيك بعض طبعات الأبوة ، وأبثك اشواق العـاطفة البرة ، ومن الله أسأل أن يقر عين أبيك بشفـائك ، ويجدد له هبتك ، ويبوئك المقام الذي يرجوه لك في صفوف الداعين الى الله المجاهدين في سبيله :

بني : هذه أضمامة من أحاديث العاطفة المؤمنة ومن بلاغ الفكر المؤمن ، كنت أنت السبب في لمها ، يوم بدأت ترد علي رسائل اخوانك ، يطلبون فيها أجوبة لبعض المسائل وحلولا لبعض المشاكل ، فكنت تطلب مني أن أحتفظ بصورة من كل جواب ، لتدون في مجموعة ثم تنشر في كتاب .

من احاديث العاطفة المؤمنة ، ومن بلاغ الفكر المؤمن ، ومن اقباس الحق الذي شعت به العاطفة ، وضاء به الفكر ، واستنار به السبيل ، ومن هدى القرآن العظيم ينبوع الحق ومصدر اشعاعه ، ومبعث قوته وانطلاقه . (وبالحق انزلناه وبالحق نزل) . (١٠٥ : بني اسرائيل) .

من أحاديث العاطفه المؤمنة ، وستعجب من قولي هذا ، وستتساءل عن صلة العاطفة بالايمان ، وعن صلتها بالدعوة الى الله ، ففي سبيل الدعوة الى الله حررت هذه الرسائل !! .

والواقع ان العاطفة من أشد المؤثرات على الحق اذا هي تدخلت أو انفردت في الحكم به ، والايمان الصحيح أحوج الاشياء الى الابتعاد عن العاطفة قدر المستطاع عند النظر في أدلته وحججه،والاسلام اكثر الأديان تـــأكيدا على لزوم التجرد عن اي مؤثر على التفكير السليم عند النظر في أدلته ومثبتاته .

نعم ، والحكم في هذه المرحلة حق خـــالص للفكر المجرد والموازنة الدقيقة ، ولا مساغ فيه لعاطفة ، ولا لأي شعور نفسي آخر ، سوى الشعور بالحق ووجوب الانقياد له .

وبعد ان يتم هذا الدور الفكري الخالص ، وبعد أن ينظر الفكر المجرد في ما يقدمه الاسلام من أدلة ومثبتات ويقتنع اقتناعاً كاملا بأن النتائج التي دلت عليها تلك الأدلة حق لا ريب فيه .

أقول : وبعد أن يتم هذا الدور الذي لاحكم فيه الا للفكر المجرد ، ولا أثر الا للبرهان المنير ، يأتي دور الايمان : دور الايمان بهذه النتائج : وهو عملية يشترك فيها العقل والنفس .

والاسلام - في هذا الـــدور - يحرص أشد الحرص على أن يستقبل الانسان دفعة الايمان بجميع نواحي شعوره ، وبجميع جهات نفسه ، يحرص على ذلك اشد الحرص ، ويؤكد عليه ابلغ التاكيد ، ليعم الايمان جميع آفاق النفس ، وتعمق ركائزه فيها ، وتمتد أنواره وآثاره ، وسيأتي لهذا تكرار وتوضيح .

وتؤمن العـاطفة وتؤمن المشاعر ، كما يؤمن الفكر والقلب ، ومعنى

ايمان للعاطفة أن تخضع لقيادة الايمان ورقابته ، فلاتنبسط لأحد من الناس ولا تنقبض عنه الاوفق مقاييس الايمان وفي ضمن حدوده .

أن يكون الحب الانساني قبساً من حب الله العظيم ، فلا ينطلق به المؤمن الاحيث يرضى الله وحيث تحدد شريعته .

وكذلك ايمان سائر العواطف والمشاعر والأحاسيس ، أن تصطبغ بصبغة الايمان وتقف عند حدوده .

ونواحي النفس هذه التي قلت عنها : ان الاسلام يحرص أشد الحرص على أن يستقبل الانسان بها دفعة الايمان : هي النواحي التي تخضع للاختيار ، أو يخضع له بعض آثارها ، اما النواحي التي لا تخضع هي ولا آثارها للارادة فلا يتسنى ذلك فيها .

بلى قد يعم اشعاع الايمان حتى هذه النواحي غير الاختيارية ويشملها هداه ، حين يطول مران النفس على الايمان وتعمق آثاره وتقوى فعاليته فيها، حتى تنفذ إلى منطقة اللاشعور .

ان العاطفة ـ كما قلت ـ من أشد الأخطار على الحق ، اذا هي تدخلت أو انفردت في الحكم به ، وما في ذلك من شك ، ولكنها ـ بعد أن تنساق مع الايمان الصحيح وتصطبغ بصبغته ، وتقف عند حدوده ، وتتزود بمناهجه ـ تعود من العناصر المهمة في الشخصية الاسلامية المتكاملة ، ومن اكثر العوامل جدوى في ميادين التربية العملية على ضوء مناهج الاسلام ، وما في هذا من شك كذلك .

من أحاديث العاطفة المؤمنة ومن بلاغ الفكر المؤمن ، وليس أدنى

الى القلب ، ولا أنفذ في أعماقه ، ولا أقدر على توجيهه من بلاغ الفكر ، تمده اقباس الايمان وأنوار القرآن ، وتنديه نجوى الحب في الله والولاء في دينه .

هذا ما رجوت حين ما كتبت هذه الرسائل ، وهذا ما رجوت حين ما جمعتها في هذا الديوان ، وهذا ما أرجوه حين تنشر ان شاء الله ، والله هو المسؤول المأمول لتحقيق الرجاء .

ولدي ضياء : أما الثقة الغالية التي أولانى اياهـا اخوالك الأعزاء فأرجو أن يوفقني الله سبحانه لدفع ثمنها كاملا غير منقوص ، يؤدي الأمانة ويفي بالامنية لي ولهم على السواء ، ولله الذي كلفني وايـاهم بالتواصي بالحق والصبر عليه ، والتآزر على حمل أعبائه .

ووصيتي الأولى التي أقدمها في مطلع الحديث لك ولكل قارىء معك من الطليعة المؤمنة : أن تعيش أسلوب الرسالـة التي تقرأها ، وتصغي الى همساتها وهتافاتها ، وأن تستشعر في أعماق نفسك وأعماق قلبك انك انت المقصود بها .

أجل ، أنت المقصود بها ايها القارى العزيز ، ومادونت هذه الآثار المفرقة ، وما استبدلت عن طابعها الخاص بهذا الطابع العام الالتؤدي رسالتها اليك .

أنت المقصود بالحديث ، والايمان الذي وصلني بك وشدك الي هو الذي جعل مستقبلك أحد مسؤولياتي التي يجب علي أن أفكر فيهـا وان أعمل لها ، والله سبحانه هو الذي حملني لك هذه الأمانة ، فهل تعدني انت بقبولها ؟ .

ان المسؤولية مشتركة ومقسمة ايها الحبيب .

أن تعيش اسلوب الرسالة وتصغي الى همساتها وهتافاتها ، ولست أعني أن تنفرد الى أسلوبها الادبي تختبر طواياه ومزاياه ، ولكن الى اسلوبها في التوجيه، أما الاسلوب الادبي فأفضل مزاياه ان يؤدي دور الرائد الامين .

وسيجد القارئ تكراراً لبعض المعاني ولبعض التوجيهات في غضون هذه الرسائل ، وسبب ذلك أن الرسائل - كما تعلم - كتبت متفرقة لآحاد متفرقين ، وقد تتفق الحال أو تتشابه فى اكثر من واحد ممن كنت أراسلهم ، وذلك يستدعي وحدة المعنى ووحدة التوجيه ، ولما جمعت الرسائل أصبح ذلك تكراراً ، على أنه في الاكثر لمعان مهمة تستوجب التكرار والتأكيد .

وقد فاتني أن أحتفظ بتأريخ اكثر هذه الرسائل ، ومن أجل ذلك اوردته مهملا بغير تاريخ ، وفاتني كثير من الرسائل التي تنتظم في هذا السلك ، فلم احتفظ منه بصورة ، وبعض هذه مهم أسفت لفوته ، ووفرة الاعمال وتوزع البال هما المسؤولان عن ذلك .

والدي ضياء الدين : وختاماً أزجي شكري الى اخوانك الاحياء الذين أتاحوا لي بمراسلاتهم هذه الفرصة وفتحوا أمامي هذا الباب ، فهيأوا لي أن أسوق اليهم والى الطليعة المؤمنة من ورائهم بعض نصائح الابوة .

ولك ولهم وافر تحياتي ، وطيب أمنياتي ، ومن الله أسأل ان يربني نتاج الغرس ثمراً شهياً وعملا رضياً ، وأجدد دعوتي الى الله سبحانه بشفائك العاجل ، وصحتك الكاملة ، وسلمت .

لابيك

٢٥ جماد الثاني سنة ١٣٨٧ .

محمد أمين زين الدين

الاسلام دين الثبات والصدق . ولكن المنتسبين اليه هم المتزلزلون . الاسلام لا ينتفع من اتباعه شيئاً . والنـــاس هم الذين ينتفعون به . ضعفاء العقيـــدة والنفوس .

١

البحرين

تحية كريمة وثناء جميلاً وشوقاً كبيراً .

حيي الله روحك المسلمة ، ومشاعرك المؤمنة ، ووفقك لبلوغ امانيك وبارك في غر مساعيك .

تلقيت رسالتك ورأيت ما أودعته اياهـا من الم مبرح ، وقرأت ما كتبته فيها من شكوى مريرة ، ولا عجب ، فالمسلم الصحيح يأسى حقاً اذا رأى انهيار الاخلاق والدين في ابناء امته الزكية ، كانمـــا هم ينحدرون من صبب .

والاسلام اشجع من أن يتزلزل في موقف ، أو تضطرب له قـدم ، أو يتأخر عن غاية ، وهو دين الثبات ودين الصدق منـــذ اول يوم من ايامه الى ان تنطوى آخر ساعة من ساعات الحياة .

الثبات على الحق ، والصدق في الدعوة ، والصدق في العقيدة ، والصدق في القول ، والصدق في العمل ، والصدق في المعاملة ، والصدق في النية ، والصدق في الخلق ، والصدق في كل مجال يمدح فيه الصدق ، والثبات الجازم الحاسم في كل اولئك : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون) (١٥ : الحجرات) .

نعم ، الاسلام أقوى من أن يتزلزل أو تضطرب له قدم ، ولكن المنتسبين اليه الذين لم ينطبعوا بجوهره ولم يتشربوا روحه ولم يتعرفوا حقيقته . وبالاحرى الذين لم يعرفوا منه غير ألفاظ تردد وطقوس تجدد ، هؤلاء هم الذين لا يعرفون الثبات ولا يعرفون الصدق ، ولو انهم فقهوا من دينهم شيئاً لما تزلزلت لواحد منهم في موقف قدم ، ولما رغب أن يخلع عقله كما يخلع نعله ، ولما اضطربت بهم الاهواء كالورقة الجافة في ملاعب الرياح .

ان الشجرة العظيمة الثابتة اصولها ، السامقة فروعها ، لن تزلزلها الاعاصير مهما كانت عادية عاتية ، ولن تستطيع ان تقتلعها من جذورها ، وهي تمد كل غصن من غصونها وكل ورقة من اوراقها وكل زهرة وكل ثمرة فيها بالغذاء الكافي الذي يضمن لها الحياة ويبلغها الغاية ، وبالقوة الشديدة التي تصمد امام الحوادث وتكافح الطوارىء ، ولكن الورقة المسكينة التي تنخرها الجراثيم ، هي وحدها التي تصفر ويهي موضع اتصالها في الغصن ، وتسقط ضعيفة حقيرة غير مأسوف عليها ، ثم تتلاقفها الرياح حتى تمزقها شر ممزق ، وتسقط في التراب تداس بالأنعل ، والبقية الصالحة

منها تكون علفاً للحيوانات .

هذا مثل قريب للاسلام ولمن ينفصل عنه من أبنائــه ، واقرأ معي اذا شئت قوله سبحانه : (الم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي اكلها كــل حين باذن ربها ، ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون) : (٢٤ ، ٢٥ : ابراهيم) ،

ان الاسلام لن ينتفع من احد شيئاً ابداً ، وان توهم ذلك القاصرون في التفكير الجاهلون بالغايات والمرامي ، ولكن الناس هم الذين ينتفعون بدينهم حق الانتفاع ويحيون باتباعه حق الحياة ، اذا هم فهموا حقائقه حق الفهم وطبقوها على واقعهم حق التطبيق ، دون نقص ودون التواء : (يمنون عليك ان اسلموا ، قــل : لا تمنوا علي اسلامكم ، بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين) . (١٧ : الحجرات) .

الاسلام دين الحياة ، والقرآن كتاب الحياة ، ومحمد بن عبدالله رسول الحياة ، يقول هذا ويعترف به منصفون من علماء الغرب . . . . . من علماء الطبيعة من العلماء الذين يفخر هؤلاء (المثقفون) الذين يقولون لك : ان القرآن اسطورة تأريخية لا تتمشى في عصر الذرة وعصر الصواريخ ! ! يفخر هؤلاء المهرجون أن يكونوا من تلاميذ تلاميذهم في الدرجة العاشرة او العشرين .

مساكين هؤلاء يا عزيزي ، انهم يستحقون الرثاء ولا يستحقون النقد ، لانهم لم يعرفوا القرآن حين قالوا فيه هذا القول ، ولم يعرفوا الذرة ولا الصواريخ ولا النور ، حين مدحوها هذا المدح ، ولو انهم عرفوا شيئاً

من هذا وذاك لما قالوا هذا الذي قالوه .

ولا اطيل ولا ادلل ، لانني لا اكتب كتاباً ولكنني احرر رسالة ، وليس لي من الوقت ما يسمح لي بأن اتحدث عن هذه المنحدرات والمباءات.

مساكين هؤلاء انهم يستحقون الرثاء ولا يستوجبون النقد ، ولو انهم عرضوا شكوكهم - ان كانت حقاً لديهم شكوك - على من يستطيع معالجتها وتبديدها لكانوا ادنى الى الصواب ، واعذر لدى العقل ، بل واعذر عند الله كذلك ، ولو انهم حلقوا في معارفهم بمعاني القرآن ومعارفهم في علوم الكون وشؤون الحياة لكانوا حكام انفسهم ولم تخلق لديهم شكوك ولا اوهام .

ولكن موطن الضعف أن ينظر جاهل فيشك ، وبالأحرى أن يشك جاهل من غير نظر ، ثم يجعل شكه بذاته هو الحكم !! .

واخيراً تقبل تحياتي الكثيرة لك ولمن يعز عليك من اخوانك ، واسأل الله لي ولكم تسديد الخطى في الدين والدنيا .

قالوا : الاسلام لم يأت بأخلاق زكية . جواب سريع عن هذه الفرية . هل قرأوا هذه الآيات ؟. ليسوا من غراس الاسلام . لنسر مجدين .

٢

البحرين

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ، وعلى من يعز عليكم من الاخوان والاحباء ، وسؤالي عنكم وشوقي اليكم ، وابتهل الى الله سبحانه ان يحقق لك ما تامل ويكفيك ما تحذر ، وان يوفقك لما يحب ، وللقيام بما يجب ، واحييك تحية المسلم الحق الذي يستخلص اخلاقه من عقيدته ويبني أعماله على اخلاقه .

وصلتني رسالتك الثانية قبل ايام وانشغالي بوضع . . . . ابطأبي عن الجواب ، ولقد أبطأبي عن كثير من الواجبات ومن الله ارجو التوفيق لإنجازه انه هو الموفق المعين ، ومن اخواني استمد الدعاء لبلوغ الآمال ، فدعاء الاخوان المؤمنين عدة المرء في جميع مهماته .

عزيزي : تحدثت في رسالتك عن المسلمين الذين انزلقوا عن تعاليم الاسلام ، وولوا وجوههم شطر ابنية أخرى غير كعبته ، واتجهوا بقلوبهم

وعقولهم واسماعهم وابصارهم غير وجهتـــه ، وقالوا : ان الاسلام لم يأت باخلاق زكية ! . . .

وقالوا انه لا يصلح ان يقّوم اعوجاج المجتمع ! ..

الاسلام الذي بعث رسوله ليتمم مكارم الاخلاق ، لم يات باخلاق زكية ؟ ! . .

الاسلام الذي قوم الجفاة القلوب الغلاظ الاكباد فاقام منهم امـــة تتفانى في سبيل الحق وتتفادى في ميادين الاخوة الاسلامية ، لا يقوم اعوجاج المجتمع ؟ ! . .

لقد قلت لك في رسالتي السابقة : ان هؤلاء لم يعرفوا القرآن حين نقدوه هذا النقد ، وهذا الذي تقوله عنهم شاهد صدق على ذلك .

فهل قرأوا هذا المقطع وحده من سورة الاسراء ؟ :

(وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه ، وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما فلا تقل لهما اف ، ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا . ربكم اعلم بما في نفوسكم ان تكونوا صالحين فانه كان للاوابين غفورا ء

(وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا . ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا . واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسورا .

(ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوماً محسورا . ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، انـه كان بعباده

خبيراً بصيراً . ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق ، نحن نرزقهم واياكم ، ان قتلهم كان خطأ كبيرا . ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة وساء سبيلا . ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ، ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطانا ، فلا يسرف في القتل انه كان منصورا . ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن حتى يبلغ اشده ، واوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا. واوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير واحسن تاويلا . وأوفوا (ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا . ولا تمش في الارض مرحاً ، انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا . كل اولئك كان سيئه عند ربك مكروها) .

وهل قرأوا هذه الآيات من سورة الفرقان ؟ .

(وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . . . والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما . والذين لا يدعون مع الله الهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق اثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، . . . والذين لا يشهدون الزور ، واذا مروا باللغو مروا كراما . والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعميانا) .

هل قرأوا هذه المقاطع وحدها من آيات الكتاب ؟ وهل تدبروا معانيها اذا كانوا ممن يهمهم أمر القرآن ، اذا كانوا ممن يهمهم امر القرآن ولو لينقدوه ؟ ! .

ولماذا اقول سورة الاسراء ، او سورة الفرقان ، ولماذا اخصص هذه الآيات الكريمة او تلك ، فدروس الاخلاق منتشرة مبثوثة في طول القرآن وعرضه .

هكذا ، نعم هكذا أسوق الشواهد سوقاً دون شرح ودون تعليق ، فان وضوح معاني الآيات الكريمة التي ذكرتها يغنيني عن التفسير .

عزيزي : قف على كل مقطع وعلى كل جملة من هذه الآيات الكريمة وامثالها وقلّب بصرك في آفاقها المترامية ، ثم اعجب - ان شئت العجب - من اقوال الذين يهرفون بما لا يعرفون .

اما قولتهم التي نقلتها عنهم : (تعرف الشجرة بثمرتها) فهي قولة صحيحة ولا نقاش في صوابها ، ولكن لنتساءل جادين :

هل المسلمون في واقعهم الراهن غرس من غراس الاسلام ، لتكون اخلاقهم واعمالهم الموجودة من ثمار الاسلام . ويستدل على فساد الشجرة بفساد الثمرة ؟ .

انها نتيجة لن يقولها منصف ابداً .

لن يقولها منصف عرف واقـــع المسلمين اليوم وبعده عن تعاليم الاسلام ، بل ومناقضته لهذه التعاليم .

قل لهم ان الاسلام كل لا يتبعض ولا يتجزأ ، ولا يبيح للأهواء أن تتدخل في أمره فتقبل منـــه وترفض حسب ما تشتهي : (افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى اشـــد العذاب وما الله بغافل عما

تعملون) (٨٥ : البقرة) .

ان مسلماً لا يولي وجهه شطر قبلة الاسلام ليس غرساً من غراس الاسلام .

وان مسلماً يتسامح في فرائض الله وواجباته ليس غرساً من غراس الاسلام .

وان مسلماً يتغاضى عن قوانين الله فلا يطبقها على مأتياته ومتروكاته ليس غرساً من غراس الاسلام .

وان مسلماً يكذب ويخادع ويغش ويخون ويرتكب ما يخالف الاخلاق التي امر بها الاسلام في كتابه وسنته ليس غرساً من غراس الاسلام .

نعم ليس هؤلاء جميعاً ولا نظراؤهم من غراس الاسلام ولا كرامة .

دعوا الاسلام ينقي التربة ويضع البذرة ويتعهدها بالسقاية ويرعاها في النمو ويكافح دونها الجراثيم والطفيليات ، ثم انظروا كيف يكون الثمر إن كنتم تريدون ان تعرفوا ثمار الاسلام .

وبعد ، فما لنا ايها العزيز وللحديث عن هؤلاء وأهوائهم ؟ .

لنسر جادين مجدين الى الغاية التي نبتغيها نحن والتي خلقنا الله من أجلها ومن اجل تحقيقها .

لنضطلع بالاعباء العظمى التي رآنا الله أهلاً لها حين قال لنا : (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر اولئك هم المفلحون) (١٠٤ : آل عمران) .

لندع الى سبيل ربنا بالحكمة والموعظة الحسنة ونجادل الغاوين بالتي

هي احسن .

لنفهم هؤلآء السادرين الحائرين قولة الله صريحه ، ولنعرفهم بينــة الله صحيحة ، فلن يضرنا ولن يضر كلمة الله خذلان خاذل ولا هزل هازل ، (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز) (٤٠ : الحج) .

انهم اخواننا ياعزيزي وذوونا فلنبادرهم بالعلاج ، فطب محمد كفيل ببرء النفوس وشفاء الصدور .

وسلمت وسلم لك اعزاؤك الذين تشدهم اليك صلة الايمان واخوة القرآن وتحياتي واشواقي اليكم جميعاً .

يقول : ان الاسـلام لا يناقض المبـادىء الوافدة . من ضعفنا انا نصدق ما يوحي القوي الينـا . قال القوي ، وقلنـا : نعم . مبادىء تقوم على انكـار الاله . بعض واجبات المرشد .

٣

البحرين

تحية الاسلام ، وتكريم الايمان .

اخي : حدثتني في رسالتك عن رفقائك الشباب الذين صحبوك الى مطار . . . لتوديع بعض ارحامك ، والذين فارقتهم انت لتؤدي فريضة الوقت ، فريضة الصلاة وفارقوك هم ليقضوا فرصتهم في بعض المقاهي ، ثم اجتمعت بهم لتسألهم : هل أدوا فريضـة الاسلام ؟ وليجيبوك عن سؤالك هذا بابتسامة هازئة ساخرة ! .

حدثتني عن رفقائك هؤلاء فذكرتني حديثاً لي مع زميلٍ صحبني قبل أشهر في غرفة القطار بين البصرة وبغداد .

كان زميلي هذا من الشباب الواعي الصاعد كذلك ، وكان مغتبطـاً بلقائي على ما اتذكر من قوله .

كنت أنتظر أن يقف القطار لأصلي ، فقد حل وقت الصلاة منذ ساعة .

ووقف القطار ، وعلمت أن مدة وقوفـــه تسمح لي بالنزول وباداء الفريضة كما أريد ، وتم لي بحمد الله ذلك ، وأديت الفريضة ، وعدت الى موضعي من المقصورة ، ووجدت رفيقي كما فارقته مكباً على قراءة بعض الصحف اليومية ، ولم أشأ ان افاتحه الحديث في أمر الصلاة ، فقد كنت أعرف قيمة الصلاة عند هـــذا الفريق من الشباب المخدوعين . لم أشأ أن اتطرق معه الى هذا الحديث لو لم يفتحه هو .

قال لي في أثناء سمره : انه لا يجد تناقضاً ابـدأ بين دين الاسلام وبين هذه المبادىء الوافدة من اليمين أو من اليسار ، فالاسلام – على ما يرى – دين روحي يتعهد صلة الانسان بربه ؛ وهو يتمثل بصلاته وصومه وعباداته ، فاذا اداها المسلم فليس عليه من حرج في أن يعتنق اي مبـدأ من مبادىء الاقتصاد أو اي مذهب من مذاهب الاجتماع تطوراً مع الحياة ، وتقدماً مع الحضارة ، قال ذلك باصرار .

فابتسمت له ابتسامة عريضة ، ثم قلت : والذي لا يصلي ولا يصوم الا تعده مسلماً يارفيقي ؟ ! .

فانتبه لسقطته ، وتلعثم من الخجل ، وضحك ضحكة باردة هي الى الارتباك اقرب منها الى أي مغنى آخر ، ثم قلت له : يبدو أنك لا تجد تناقضاً بين قولتك هذه وبين فعلك ، كما لا ترى تناقضـــاً بين الاسلام واعتناق هذه المبادىء الوافدة من هنا وهناك .

فتمم ثم أطرق .

فقلت : ان من مواطن الضعف فينا ياسميري اننا نصدق ما يوحي القوي الينادون موازنة ودون تمحيص ، قال لنا القوي ان الاســلام موضعه المسجدوالمحراب ومجال الاسلام انما هو تربية الروح ، انما هي صلة الانسان بربه فقط ، فقلنا نحن : نعم .

قال هو ذلك ليكف دين الله عن مجالات الحياة ، وليكفي المبادىء التي يريدها هو أشد مناوىء لها في الميادين ، وأقواها عزيمة في الصراع ، واعظمها سهماً في الحكمة ، وارسخها قدماً في العدل ، ولكنه أبخسها نصيباً من الدعاية ، وأضعفها قلوباً بل وايماناً في الأتباع ! ! .

قال القوي قولته تلك ليكتسب هذا الكسب وينال هذا الربح .

وقلنا نحن نعم لاننا مولعون بالتقليد ، بتقليد الأقوياء حتى فيما يضرنا :

لقد تعودنا ياسميري أن ننصهر ونذوب اذا لحنـــا القوي ، ونرتهن باشارته ونخضع لارادته ، فلا كيان لنا معه ولا ارادة ، ولا رأي ولاموازنة. والا فأي دليل يقوم لدينا على فصل الدين عن مجالات الحياة واختصاصه بناحية الروح ؟ ، اتحداك – وانت مثقف على مـا اتوسم – أن تقيم لي شاهداً واحداً على صدق هذه الدعوى ، واتحدى غيرك ممن يتبنى هـــذه الفكرة وفيهم الكتاب والمفكرون ، شريطة أن يكون الدين المبحوث عنه هو دين الاسلام . . . . دين القرآن . . . . دين الاسلام بالخصوص ! ! .

قال لنا القوي وصدقنا قولته لنعزل دين الله في الصوامع والجوامع ولنقصر نشاطه على العبادة والقربة ، ثم لتجيء الأهواء بعد ذلك فتصرفنا عن الصلاة والعبادة فنخرج كما قدّر لنا عدونا اليقظ (مهلّسين) مفلّسين،

لا رصيد لنا من دين ولا ملجـأ من عقيدة ، ولا سند من ايمـــان ولا حصيلة من عمل ، ولا نأبه للتناقض ، ولا نبالي بالخسيسة ! ! ...

ثم ماذا غير ذلك ياسميري ؟ .

ليس في الاسلام – كما قات – مناهج خاصة تنظم الحيـاة وتوجه الانسان فيها ، وتاخذ بيده في مجالاتها ، لا في الاقتصاد ولا في الاجتماع ولا في الحكم ولا في السياسة ، ليس فيه مناهج خاصة لتناقض هذه المبادىء الوافدة من اليمين أو من اليسار ! .

افتقول ايضاً : ليس في دين الاسلام عقيدة يقوم عليها بناؤه وتتشعب عنها فروعه ، عقيدة باله خالق للكون ، متفرد في تدبيره ؟ ! .

فكيف لا يعد الاسلام – اذن – مناقضاً للمبادىء التي تقوم على انكار الآله ، والتي تقول بملء افواهها وتهتف ملء حناجرهـــا : (ان العالم هو واحد ، لم يخلقه اله ولا انسان ...) .

فضحك صاحبي ثم قال : ويقولون ايضاً : (ان العالم المادي الذي تدركه حواسنا هو الواقع الوحيد . . . . ان المادة ليست من نتاج العقل بل ان العقل نفسه نتاج المادة الاعلى) .

فقلت : واظنك تعرف جيداً معنى قولهم هذا .

انهم يعنون ان المادة ازلية لم يسبقها عقل لتكون هي من نتاجه ، ومعنى ذلك انها لم يخلقها اله ، لان الاله انما يخلق الأشياء عن قصد وتدبير وحكمة ، فهم يعبرون عنه بانه عقل .

المادة ازلية وكل ما هنا من شيء فهو من نتاج المادة وتطورها تحت

نفوذ القوانين الطبيعية التي تحكمها ، والعقل نفسه من نتاج المادة ايضـــاً والآراء والمعتقدات والفلسفات والمذاهب كلهــا انعكاسات للواقع المادي الموجود ، هذا ما يعنون بقولهم :

وانا لا يهمني الآن ما يقولون هم ، ولكن يهمني ما تقوله أنت ، فقد عرضت لهذا القول في الحلقة الأولى والثانية من كتاب (الاسلام) وفي مواضع اخرى متفرقة ، وعرض لهـــذا كتاب آخرون مسلمون وغير مسلمين ، وعرض لهذا العلم التجريبي ايضاً ، واثبت ان كون المادة أزلية قول لا يبتني على أساس .

انا لا يهمني الآن مايقولون هم ، ولكن الذي يهمني ما تقوله أنت فهل تؤمن بذلك ؟ . وسواء آمنت بصحته ام لم تؤمن فكيف لا تعـــده مناقضاً للاسلام ؟! .

ثم انصرف بنا الحديث الى التوحيد ثم الى الصلاة ، وانقضى السمر وانفض السامر ولم اعرف حال صاحبي بعد مجلسنا ذلك ، واسأل الله له الهداية .

اما الفاضل الوجيه خطيب المنبر الحسيني الذي وجهت اليه رسالتك ودعوته فيها الى القيام بقسطه من التوجيه والنهوض بواجبه من الارشاد ، وذكرت له المزالق والعوائق التي تعترض الشبان المسلمين في هذه الأزمان ، وفي هذه الاصقاع ، وقلت له ان المرشد الديني الصالح يجب ان يعد لكل داء علاجه ولكل شبهة حلها ، وان المنبر الحسيني يجب ان يكون في القمة من هذه المهمة .

اما هذا الفاضل فمن الحق ان تحمله على الخير ما دام مظنـــة للخير

وان تأخر عن جوابك ، وعلى اي حال فقد صنعت انت ما يجب عليك اما هو فانه أعرف بعذره اذا كان لديه عذر ، والله هو ولي الجزاء وهو العليم بذات الصدور .

والمظنة التي يظنها فريق من اصحاب المنابر ورجال الدين ببعض الشباب فيبعدون عنهم ، وينفرونهم من قربهم ، هذه المظنة السيئة هي مصدر البلاء الذي حاق بنا يلعزيزي والذي جنينا ثماره وحملنا آصاره .

وما ضر رجل الدين أو خطيب المنبر ، أن يبسط خلقه وعلمه للناقد من الشباب او غير الشباب حتى يحيله مادحاً وللجاهل حتى يصيره عالماً ، وللغاوي حتى يجعله رشيداً .

وهذا الشاب الناقد أو الغاوي ليس بأحطّ نفساً ولا أسوأ قصداً ولا أقل قيمة من ذلك البدوي الغليظ الجافي الذي كان الرسول (ص) يستقبله بابتسامة العطف واللطف ، ثم يفترش معه الحصى ويكب عليه يفحص أدواءه داءاً داءاً ، ويعالجها واحداً واحداً ولا يفارقه الا وهو أحب الناس اليه واشدهم انقياداً لقوله .

انها دروس رفيعة رفيعة يا عزيزي لو اننا اتبعناها في مجالاتنا من الدعوة الى الله ، لافدنا منها خيراً كثيراً وكفينا شراً كثيراً .

ومنبر الدعوة لم يؤسس حين تأسس لتعليم العالم وارشاد الرشيد ، ولو كانت هذه مهمته لفقد جدواه وبطلت حكمته .

ومن الله اسأل ان يمن علينا وعلى المؤمنين بتسديد الخطوات واقالة العثرات.

الايمان المشع الصناع . هذا هو الذي اراده لنا القرآن .
الايمان القاصر المنطوي بعيد عن روح الاسلام .

٤

الى الحلة . ١٤ رمضان سنة ١٣٨٣ .

الاستاذ القدير . . . . . المحترم .

سلام الله عليك وتحيته المباركة ورحمته الدائمة ، وعون الله ظهيرك في دعوتك وتوفيق الله حليفك في سعيك ، مع شوقي الكثير واعجابي الكبير.

وصلتني رسالتك الكريمة ، وتعرفت بها على روحك المشبعة بالاسلام المشعة بالايمان ، وقرأت فيها طرفاً من جهادك في الله ودعوتك الى سبيله، فأكبرت ، ودعوت ، وتمنيت أن يكثر في أبنائنا الانجاب من أمثالك في كل صقع وفي كل بلد وفي كل ناحية ممن ياخذون بيد النشء الى وجهته الصحيحة ويعرفونه دينه الكامل ونهجه الشامل ، اذن لظهر امر الله ولعلت كلمته ، واذن لخط للأمة مستقبل كريم يزخر بالسعادة وينطف بالهناء .

والايمان المضيء المشع هو الطاقة العظيمة التي اراد القرآن ان يزود بها كل نفس مسلمة ، وأن يفعم بها كل قلب مسلم .

الايمان الذي ينير جميع جوانب النفس ويضيء منهـا حتى عواطفها

ومشاعرها وآمالها ، فلا تلفي في آفاقها المترامية الا نوراً ، ولا تجد الا هدىً ولا تحس الا خيراً وجمالاً ، والذي يعكس النور في قلوب الآخرين ويملأ به نفوسهم ويبني ايمانهم ويخلق شخصياتهم .

الايمان القوي المكين الصناع الذي يدخل مع ابتسامة الحب الى القلوب الغلف ، ومع نصح الاخوة الى الاسماع الصم ، ومع نظرة العطف واللطف الى المشاعر المغلقة والصدور الحرجة ، الايمان الذي يخلق الايمان ويلده ، كالكهرباء يمتد الى الاجسام التي توصل به ويعكس الاضواء على الأخرى التي تقابله .

اقول : وهذا النوع من الايمان هو الطاقة التي أراد القرآن أن يزود بها كل نفس مسلمة وأن يملا بها كل قلب مسلم ، نعم ، ومن أجل ذلك وجدنا الآيات الكريمة التي تصوغ الايمان وتضع أسه وتقيم بناءه وتحكم قواعده ، وجدنا هذه الآيات الكريمة من الكتاب الكريم تعنى اشد العناية بايقاظ الانسان وتوجيه فكره ولفت مشاعره وتنبيه مختلف أحاسيسه وغرائزه وعواطفه وانفعالاته ، فتغري عقله بالنظر وتحرضه على حبّ الاستطلاع ، وتلهب مختلف نوازعه بالعتاب وتثير فيه كامن الخوف من ربه ، وتحرك في قلبه وتر الحب الغريزي لمنعمه وراحمه ، وتأخذه بالرغبة اليه والرهبة منه وبالوعد بثوابه والوعيد بعقابه ، ليتنبه هذا الانسان من كل جهاته ويتلقى ركائز الايمان بمختلف نواحي شعوره ، ويكون مؤمن الفكر ، مؤمن القلب مؤمن الروح مؤمن النفس ، مؤمن العاطفة ، مؤمن النزعات مؤمن الأحاسيس والهوى والآمال والآلام ، ويكون مؤمن الحب والبغض ، مؤمن الرضا والغضب،

مؤمن السر والعلانية مؤمن القول والفعل .

اجل : هذا هو الايمان المضيء المشع الذي أراده لنا الاسلام ، واراده لنا القرآن ، ولست هنا استطيع ان اذكر شواهد ذلك من الكتاب الكريم واشرح ابعاده من النفس وآثاره في الدعوة وفي صلاح المجتمع فاني انما احرر لك رسالة ولست أؤلف كتاباً ، وقد ذكرت بعض ذلك في الحلقة الثانية من كتاب (الاســـلام) ومن الله ارجو التوفيق لاتمامه ثم العون على نشره .

اما الايمان القاصر المنطوي فانه بعيد عن روح الاسلام الهادية المتفائلة التي تريد أن تفتح الدنيا وتنير اقطار المعمورة وتعمر آفاق الناس وقلوبهم وضمائرهم .

اي وعينيك ان هذا اللون الحائل من الايمان ابعد الاشياء عن روح الاسلام .

واسميه قاصراً منطوياً لانه قد يملأ جانباً واحداً من جوانب النفس الكثيرة ولكنه لا ينفذ الى جوانبها الأخرى .

فقد يتلقى الانسان عقيدة الاسلام بفكره المجرد فينظر فيها نظراً ثاقباً ويؤمن بها ايماناً شديداً ، ولكن النواحي الأخرى من نفسه ، ولكن حبه وآماله وعواطفه ومشاعره ، تكون بعزلة كاملة عن ذلك فلا تؤثر في ايمانه شيئاً ولا تتأثر به ، كأن الأمر لا يعنيها بشيء أبداً .

ومعنى ذلك ان هذا الإنسان آمن ايماناً جافاً صلداً ليس فيه طراوة الحب ولا نبضة العاطفة ولا تجدد المشاعر ولا ابتسامة الأمل .

ومعنى ذلك انه آمن ايماناً يائساً متشائماً قاسياً يظن فيما حوله الظنون وينظر اليه بريبة ، يحكم بالضلال على من خالفه لأقل بادرة ، وييأس من صلاحهم لأدنى تهمة ، وهو من أجل هذه الأزمة التي تأخذ عليه آفاق نفسه لا يجهد بابلاغ دعوة ولا يأمل في اقبال فتح ، ولا يرجو اشاعة صلاح أو تقويم عوج .

ان هذا الايمان المنطوي أبعد الأشياء عن روح الاسلام وعن رشد القرآن وعن هدى الرسول ، والدعاة المسلمون هم الذين يستقبلون أعداءهم الاشداء الألداء بابتسامة الحب وعطف الأخوة ، ويتلقونهم بسماح الاسلام وأخلاق الرسالة فيفعلون العجائب ويحققون المعجزات .

وقد توسمت فيك ايها العزيز ملامح الداعية المسلم الذي تنعكس دعوته على سيرته ، ومن الله سبحانه ارجو ان يحقق فيك رجائي ويستجيب لك دعائي .

وتحياتي لك ولزملائك الأطياب الذين يشاركونك حمل الدعوة ويمتون اليك بنسب الايمان ، ويتفيئون معك ظل القرآن ، وللشباب الانجاب الذين يرتوون بأيديكم من نمير العقيدة ويتبغون بدلالاتكم انوار الهدى واشواقي ودعائي لكم جميعاً .

حديث القيامة ليس من مجالات العلم الكوني . الحكم فيه للعقل وللدين الصحيح . العلم يقول بنهاية الكون الى الفناء.

٥

الى النجف : ٢٢ رمضان سنة ١٣٨٣ :

ولدي المهذب . . . .

سلام عليك ملء عاطفتي وكفاء شوقي ، وتحيات زكية طيبة لك ولمن يعز عليك من الشباب النجيب ، الازهار الفواحة بالهدى والوجوه المشرقة بالايمان والنفوس المفعمة بحب الله وحب رسوله والدعوة الى سبيله ، والضمائر المطهرة باخلاق الاسلام ، الدائبة في حمل رسالته ، ودعائي لكم جميعاً ان يجعلكم من حملة الاصلاح وادلاء الفلاح .

أشرت في رسالتك الى الآيات الكثيرة التي ذكرت يوم القيامة وصورت مشاهده ووصفت اهواله ، وسألت عن العلم الحديث : هل قال فيه قولة، وهل تنبأ عنه بنبأ ؟.

ولدي : ان حديث القيامة ونشر الاجساد وعودة الناس الى الحياة بعد الموت وقيامهم للعرض والحساب ، وليلقى كل أحد منهم جزاء ماعمل ان هذا الحديث غيب من الغيوب وليس من مجالات العلم الحديث ليحكم

فيه او يتنبأ عنه ، فقد عرفت وعرف كل مطلع أن مجال العلم الحديث انما هي الأمور المادية التي يدركها الحس وتبلغها الآلة وتنالها التجربة وتقع عليها الملاحظة ، وبدهي أن القيامة وشؤونها واحوالها ليس من ذلك في شيء ، فهي ليست من مجالات العلم المادي ليقول قولته فيها بنفي او باثبات .

نعم ان العلم الحديث لا يثبت في ذلك شيئاً ولا ينفي ، لأنه ليس من ميادينه وليس القول فيها من اختصاصه ، وهذا هو موقفه المعتدل مما وراء المادة كافة ، فان العلم لا ينكر وجود ما لا يدركه الحس ولا تبلغه الآلة ولا تناله التجربة ، بل يترك الحكم فيه للفكر المجرد لانه يملك فيه وسائل الاثبات ، ووسيلة الفكر المجرد لتحصيل اليقين في ذلك هو الدليل القاطع والبرهان المنير .

لا ينكر العلم وجود ما لا يدركه الحس ولا تبلغه الآلة ولا تناله التجربة ، ولا يجحد وجود ما وراء المادة ، ولا يجحد وجود الإله ولا يوم النشور ، لأنه لم يملك اثبات ذلك بوسائله المحدودة ، ويأفك من ينسب ذلك الى العلم ، ويفتري اشد الفرية عليه ، وقد تحدثت عن هذا في كتاب (الاسلام) وفي أبحاث متفرقة اخرى ، وتحدث عنها كتاب آخرون كثيرون ، مسلمون وغير مسلمين .

ولدي : لقد قلت لك ان العلم التجريبي لا يملك وسيلة الإثبات او النفي ليوم النشور ، والعلم منصف لانه علم فلا يحكم فيه بحكم ، ولا يجحده لانه لا ينكر ما يجهل وانما يوكل الحكم فيه للعقل المجرد وللدين الصحيح ، وكل ما توصل العلم الحديث لاثباته بالقوانين القطعية : أن هذا الكون

سائر في طريقه الى الفناء ، ولابد من يوم تصل فيـه الحرارة التي تشعها الشمس الى درجة لا تبقى معها حياة ولا يستقيم كون ، وقد استدل العلم على ذلك بالقانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية . وتفصيل هـــذا يحتاج الى بسط طويل .

اما العقل فقد ملك البراهين القوية على اثبات هذه العقيدة ، وقـــد ذكرت بعضها في الحلقة الأولى من كتاب(الاسلام) ويمكنك الرجوع اليها اذا شئت .

واما الاسلام فقد قال قولته في ذلك صريحة لا غموض فيهـا وهي كذلك قطعية لا جدل فيها ولا مساغ عنها بعد أن أثبتت الفطرة وأثبت العقل انه الدين الحق فلا ريب فيه، وان حقائقه هي الحقائق الناصعة فلا معدل عنها .

هذه مجملات اكتفي بها في جواب رسالتك لأن التفصيل في هـــذا الموضوع لا تسعه رسالة .

ومن الله ارجو لك دوام التوفيق وتمام السعادة وشمول الرحمة وسبوغ النعمة وتحياتي لك وللاعزاء من اصحابك .

كتاب يبيعون العقول والضمائر . يجردون الدين حتى من صفاته الأصيلة . فقرات من صحيفة الحضارة حول العلمانية والجواب عنها .

٦

الى النجف . ١ ذي القعدة سنة ١٣٨٣

ولدي . . . .

اهديك وافر التحية وزكي التسليم وابثك عظيم الوجد وكبير الشوق وارجو لك دوام الصحة ودوام المسرة :

قرأت في رسالتك فقرات نقلتها عن صحيفة (الحضارة) وطلبت مني ان اجيب عنها ، قرأت هذه الفقرات ثم فكرت في المنحدر السحيق الذي يهوي اليه بعض الكتاب الذين يبيعون العقول فلا فكر ، والضمائر فلا وجدان نعم ، ومن يستبدل بدين الله ديناً لم يعز عليه أي شيء سواه :

ان هؤلاء حين يتحدثون عن الدين يجرّدونه من جميع صفاته ، وحتّى من سماته الاصيلة التي يتميز بها ، بل ويضيفون من أماني الهوى وأماني الضمائر الميتة والبصائر المدخولة ما يبرأ منه الدين ويتنزّه عنه كتابه ، وتترفع عنه شريعته ثم يبتنون الاحكام ويستخلصون النتائج من هذا الخليط

المشوه وعلى هذه الاسس المنهارة .

والذي يروم نقد هذه الآراء ، ويريد الجواب عنها ، لا يدري ماذا ينقد وعمّا ذا يجيب ، لكثرة الثغرات والفجوات .

انها مهزلة من المهازل ، ولكنها مهزلة تفتقر الى الجواب ، وبالأحرى هو داء لابد من الوقاية ضد جرثومته حذراً من الانتشار .

والفقرات التي ذكرتها تحتوي شبهات ثلاث اذكرها واحدة واحدة لننظر مبلغها من الصحة ومن القوة .

يقول الكاتب : (ان رسمية دين معين في الدولة تخلق فئة معينة تشعر بسمو على الفئات الأخرى من المواطنين ، وكرد فعل من الفئات الأخرى تشعر هذه الفئات بشعور غريب نحو الفئـة ذات الدين الرسمي ، وعنها يتسرب الأجنبي فاذا أردنا ان نسـد الباب الذي يتسرب منها الاجنبي وجب ان يعلن عن علمانية الدولة فيشعر المواطنون بالمساواة والطمأنينة) .

واول مراوغة يبدأ بها الكاتب بحثه هي هـذا العرض الذي يعرض به المسألة أو المشكلة حسبما يتصور ، فالدولة في رأيه هي التي تجعل الدين رسمياً او غير رسمي ، وهي التي تبت بالحكم عليه ، اما الدين ذاته فلا خيرة له في ذلك ، والاسلام لا يقبل هذه المساومة وهذه الضعة .

ان الاسلام هو الذي يقيم الدولة للمجتمع المسلم ويضع اسسها ويوجه حكومتها وشعبها ، ويربطها بالنظم العادلة ، وهو الذي يقرر للدولة رسميتها ووجوب طاعتها على الناس اذا كانت تستمد انظمتها من حكم الله ومن شريعته .

– وثانيا – اي دين هذا الذي يشعر اتباعـه بالسمو على المواطنين

الآخرين في الحقوق والواجبات والحريات الفردية والجماعية التي يعترف بها الدين ، وامام محاكم العدل ، وسلطات التنفيذ ؟ .

اي دين هذا الذي يشعر اتباعه بالسمو على المواطنين الآخرين في شيء من ذلك ؟، والدين الذي يرتكب ذلك يثبت بطلان نفسه ، ويناقض العدل الذي يكدح هو واتباعه في الدعوة اليه .

اما الاسلام على الخصوص فانه اعظم الاديان براءة واشدها نزاهة عن هذه الهنات التي يلوي بها الكاتب لسانه ، وتاريخه النير المشرق ، ومناهج تشريعه العادلة براهين صدق على هذه الدعوى .

والمواطنون الآخرون حين يعلمون ان الدين الرسمي للدولة يصون لهم حقوقهم كاملة ، ويضمن لهم حرياتهم دون ميل ودون انحراف ، لا يشعرون بغربة أو ببعد عن الفئة ذات الدين الرسمي ويشعر الجميع بالمساواة والطمأنينة كما يدعو اليها الاسلام ويتعاون الجميع من اجل مصلحة الدولة ومصلحة البلاد .

ويقول الكاتب : (ورسمية الدين للدولة يلازمها توزيع النواب على اساس النسبة العددية للطوائف وبذلك تنتفي الكفاءة والاهلية وهو ضرر فادح للبلاد) .

وهذه الشبهة نظيرة اختها السابقة في المراوغة والالتواء ، فانالاسلام ينمي الكفاءات في اتباعه وفي مواطنيه على السواء ، ويمهد للمواهب ان تظهر وان تتفتق ، ويهيء لهاالاجواء الصالحة ، ويمدها بالتربية الموجهة ، ويستثمرها جميعاً لمصلحة المجتمع ومصلحة الدولة دون ميل ولا مواربة ، الا ان ينحرف

ذو الكفاءة فيعمل طاقته في هدم الاسلام وشل حكومته والكيد للمسلمين والفتنة لهم في دينهم ، واذا ثبت ذلك فلا جور ولا ضير في أن يؤدب المعتدي.

اما ناحية التشريع فلها في دين الاسلام حقول معينة ومنهج خاص ومؤهلات مخصوصة ، لابد من مراعاتها والانطلاق ضمن حدودها .

ويقول اخيراً : (ورسمية الدين للدولة تفسح المجال لرجال الدين ان يدسوا أنوفهم في شؤون الدولة بصفتهم الدينية باسم الدين الرسمي) :

وهذه آخر المراوغات ، والاسلام ليس له رجال دين مخصوصون ، ورجال الدين فيه كل فرد آمن بفكرته وأخلص في عقيدته ، وفقه نظامه ، وخضع له في العمل ، واذا توفرت في الرجل هذه الشروط مع الشرائط الخاصة التي يعتبرها النظام فاي مانع يمنعه من الدخول في شؤون الدولة واي موجب لهذا الاستثناء ؟ وما معنى الصفة الدينية بعد ذلك ؟! :

وبعد ، فإن الكاتب يفترض ان يكون الدين شيئاً وان تكون الدولة شيئاً ثم يراد التطفل بدخول الدين صفة للدولة ، او بدخول صفة الرسمية على الدين ، ثم لاشيء غير ذلك ، والكاتب يريد تجريده حتى من هذه الصفة .

هذه بعض النقاط التي اشتملت عليها عبارات الكاتب اتناولها بايجاز وسلامي لك ولمن يعز عليك ورحمة الله وبركاته .

قلم أديب . سبيل دعوة الله . الشباب الواعي عدة الاسلام لمستقبله وحاضره . واجب كل داعية مسلم .

٧

الى النجف ـ حي الأمير

ولدي المهذب . . . كان الله في عونك وسددك في خطاك ، ولقاك ثمار الامل ونتاج العمل :

وصلتني رسالتك واستنشقت منها عبق الايمان وعطر الاسلام ، وقرأت فيها القلم الأديب يومي ايماءته الجميلة الى عظمة الاسلام ، ويصف باختصار واقع المسلمين تحيط بهم الأمداد الكافرة تتقاذفهم تياراتها ، وتتهددهم اخطارها ، وتحدق بهم المبادىء الملونة يستغل دعاتها جهل المسلمين بمبادئهم وفراغ أذهانهم ونفوسهم من عقيدتهم ، بل وجهلهم بكل ما يمت الى ذلك وكل ما يتصل به .

قرأت في رسالتك القلم الأديب يومي الى ذلك باختصار ويصفه

بإيجاز ، ورأيت الفكر الواعي والشعور الحي والقلب المطمئن يلمح الى العلاج ، ويختط لنفسه ولاخوته وذويه منهاجاً سديداً لتلقن مفاهيم الاسلام وتفهم عقيدته وتمثل أنظمته ، ثم التسلح بالفكر الاسلامي الصائب ، وبالبرهـــان القرآني المنير لصد ما يلقى من مفاهيم كاذبة ، ومبادىء ضالة تحارب الاســـلام وتناقض مناهجه وتعارض أهدافه .

وسبيل دعوة الله منذ يومها الأول انما هو تنبيه الفطرة ، وتوجيــه الفكرة ، واللفتة اليقظة الواعية الى اشراقة الحق وابتسامة الهدى ووضـاءة الحجة ، ونور اليقين ، هذا هو سبيل دعوة الله منذ يومها الأول ، وهو كذلك سبيلها الذي لن تحيد عنه ولن تستبدله بغيره الى يومها الأخير : (قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني وسبحان الله وما انـا من المشركين) (١٠٨ : يوسف) .

البيان المشرق ، والحجة القاطعة ، والحكمة السديدة ، هذه هي بعض مفاتيح البصيرة ، وهذه هي عدة الاسلام لبث دعوتـــه ، وتلقينها للعقول وتركيزها في النفوس ، وتفهيمها وتعميمها للناس اجمعين .

البيان المشرق الذي تبدو فيه قسمات الحق ومحاسن الهدى جلية واضحة تتملاها الافكار وتتبينها البصائر ، والحجة القاطعة التي تسد منافـذ الريب وتوصد أبواب الشبهة ، والحكمة الرفيعـة التي لا اضطراب في موازينها ، ولا قصور في أهدافها ، ولا تخلف عن غاياتها .

وهذا هو نهج الله سبحانه الذي جرى عليه في كتابه الكريم وابتعث به نبيه العظيم ، وهو نهج المطهرين من دعاة الاسلام وألسنة الحق ، وقد

بحث هذا طويلا في الحلقة الأولى من كتاب (الاسلام) .

والشباب الواعي المفكر ، المستقيم التفكير هم عدة الاسلام لغده ، بل وليومه ، وهم الطاقات القوية الفعالة التي لا يسوغ اهمالها ولا التغافل عنها ولا التسامح في حفظها وفي توجيهها ، فان التسامح في هذه الطاقات المهمة يعني التسامح في الاسلام ذاته .

اقولها صريحة ، ويقولها معي كل من فقه الاسلام وعرف حقيقته ومراميه.

وتزويد هذا الشباب الواعي بالمفاهيم الاسلامية الصحيحة وتسليحه بالعقيدة الراسخة وبالايمان القوي البنّاء الذي يضيء الحياة ، ويبني السعادة ويكون الشخصية ، هذا هو واجب كل داعية مسلم ، وكل ابناء الاسلام دعاة مسلمون ، وحملة الدين وحفظة الشرع هم الرعيل الذي يجب ان يكون السابق في هذا المضمار .

ولعل من أجدى الطرائق وأيسرها لتكوين هذه العدة وجمع هذا الرصيد هي هذه الطريقة التي التزمتها لنفسك ولأسرتك ايها العزيز .

هي مطالعة الكتب النافعة التي تبحث في حقائق الاسلام ، وتوضح مفاهيمه والتي كتبت بايدٍ فهمت حقائق الاسلام وعرفت مفاهيمه ، ثم الاختلاف الى حملة الدين الثقاة الأمناء أو المراسلة لهم لاستيضاح ما التبس واستكشاف ماابهم .

وليس في معارف الاسلام ولا في حقائقه ما يلتبس وما يبهم ، ولكنه الفكر البشري قد تميل به نزعة ، وقد يقعد به قصور ، وقد تعترضه شبهة ، فمن الخير له ان يلجأ عند شكه الى دليلٍ امين كما يلجأ الانسان عندمرضه

الى طبيب امين :

وختاماً تقبل سلامي لك وللاعزاء الذين يلتقون بك ويشعرون بشعورك والذين يحملون لك وتحمل لهم الحب في ظل الايمان وتحت راية القرآن .

صلة تقوم على الايمان . طاقة مؤمنة . المسلمون في واقعهم الراهن . الداعية المسلم متفائل . عدته لفتح القلوب وصوغ الضمائر . مرت بالمسلمين تجارب . سبيلنا الذي سنبلغ بـه الغاية .

٨

النجف

الشاب المهذب الاديب . . . : وفقه الله :

سلام الله عليك وتحياته الطيبة ونظرته الرحيمة وتوثيقه الدائم ، ولطفه الشامل .

ما اعمق هذه الصلة التي تلفني بك وتضمك الي — على غير رؤيــة وعلى غير لقاء — وتجمعنا بوثاق الحب في الله والايمان به والسعي لمرضاته ، ما أعمقها ، وما أسماها ، وما أنزهها ، انها تتحدى الحدود وتتحدى الأبعاد وتتحدى الزمـان والمكان ، واسأل الله سبحانه أن يجعلنا لها أهلاً ويلقينا ثمارها ايمانا صحيحاًوعملاً مشكوراً ، وخلقاً رضياً .

كنت انتظر رسالتك ايها العزيز ، وكان الحب يقول لي لابــد من

ان يراسل ، ولابد من أن تقرأه مرة ثانيـــة ، ولابد من أن تعرف منه اكثر مما عرفت .

واستلمت رسالتك كما أستلم كف حبيب بعد فراق ، ولا أطيل في الوصف ولا اطيل في الحديث فانا أريد أن احدثك ببعض أحاديث الايمان ، لا باحاديث الحب الذي يتولد في ظلال الايمان .

وقراتك مرة ثانيـــة . كما وعدتني نفسي . كما وعدني الحب المؤمن القائم لك في نفسي .

قراتك لأرى طاقة مؤمنة تتفجر من أجل الايمان . من أجل بعثه في أعماق القلوب وفي أعماق المجتمع ، ليطهر أوضار هذه القلوب ، ويشد أركان هذا المجتمع ، ويعود بناؤه محكماً كمايريد الله شامخاً كما يريد الحق مشعاً كما يريد الهدى ، نعم . وعرفت منك اكثر مما عرفت قبل .

وصفت المسلمين في واقعهم الراهن فأجملت الوصف ولكنك صورتهم في هذا الوصف المجمل فاحسنت التصوير ، وتساءلت محقـاً : أهو مجتمع كما يعرف علم الاجتماع من معنى هذه الكلمة ؟ ، أهم مسلمون كما يعرف الاسلام من مفهوم هذه اللفظة ؟ . ثم اجبت - غير محاب ولا متجانف عن الصواب - : كلا ، كلا ، ليس مجتمعهم مجتمعاً ، وليس اسلامهم اسلاماً .

انك لم تكن في جوابك بعيداً عن الصواب فان الاسلام اذا لم يتغلغل في اعماق المسلم فيكون عقيدة يؤمن بها عقله وتشع بها نفسه وتضيء منها آفاقه ، ثم يكون منهاجاً يخضع له عمله وتدين به ارادته ، ثم دعوة يلهج بها لسانه ويذب عنها قلمه ، وتكرس لنصرها طاقاته وملكاته . ان الاسلام

اذا لم يبلغ من نفس الفرد هذا المبلغ لم يكن اسلاماً حقيقياً وان اشبهه في بعض الملامح ، والمجتمع المسلم اذا لم يقم على الأخوة في الله والتناصر في مرضاته لم يكن مجتمعــاً مسلما كما يريد الاسلام . اما الوحـــدة في المكان واللون والدم وعلاقات الاقتصاد فان الاسلام لا يراها ركيزة للاجتماع ، وهو يربأ بمقام البشرية ان تكون كالحيوانات تجمع ما بينها وحدة القطيـــع أو وحدة المرعى ، أو وحدة اللون .

وتساءلت في آخر رسالتك عن الوسيلة التي يريد اعلام الدين انتهاجها من اجل ابتناء مجتمع اسلامي .

ولدي العزيز : كل ما تقدم حق لامراء فيه ، ولكن الداعية المؤمن متفائل باسم الأمل ، لا يجـد اليأس الى قلبه سبيلا ، وهو بقوة ايمانه المشع وامله الباسم ودعوته المخلصة ونفسه المطمئنة التي تضمر للناس الخـــير ولا تحب لهم الا الخير ، يستطيع ان يصنع كل شيء .

هذه هي العدة التي زوده الله بها لفتح القلوب وصوغ الضمائر وتطهير النفوس .

وقد وصفت هذا الايمان المشع في رسالة الى احد الاعزاء قلت فيها : (والايمان المضيء المشع هو الطاقة العظيمة التي اراد القرآن ان يزود بهـا كل نفس مسلمة ، وان يفعم بها كل قلب مسلم ، الايمان الذي ينير جميـع جوانب النفس ويضيء حتى عواطفها ومشاعرها وآمالها ، فلا تلفى في آفاقها المترامية الانوراً ولا تجد الا هدى ولا تحس الا خيراً وجمالا ، والذي يعكس النور في قلوب الآخرين ويملأ به نفوسهم ويبني ايمانهم ويخلق شخصياتهم) .

(الايمان القوي المكين الصناع الذي يدخل مع ابتسامة الحب الى القلوب الغلف ، ومع نصح الاخوة الى الاسماع الصم ، ومع نظرة العطف واللطف الى المشاعر المقفلة ، والصدور الحرجة ، الايمان الذي يخلق الايمان ويلده كالكهرباء يمتد الى الاجسام التي توصل به ويعكس الاضواء على الاخرى التي تقابله) .

واذا كثر الدعاة الى الله من هذا الطراز الرفيع امكن لهم ان يحققوا كل امل للاسلام وكل فتح لدعوته .

وقد مرت بالمسلمين تجارب افهمتهم – ان كانوا يفقهون – ان الاسلام وحده هو السند الذي يعصمهم من الذبذبة والمأمن الذي يقيهم من المخاوف ، والملجأ الذي يصونهم من العثار ويؤمنهم من الخسار .

مرت بالمسلمين تجارب ، ومن اعجب الامور ان يفتقر الاسلام لاثبات ذاته عند ابنائه الى تجارب ، اليس هذا من المضحك المبكي ؟ ! .

ولكنها – على اي حال – تجارب نافعة .

مرت التجارب فانتبه الوعي العام ، واقبل المسلمون على ذخيرتهم يقلّبونها ويفحصونها ، هل فيها ما يجدي ، وهل فيها ما ينقذ ؟ وكأنهم في شك من نفعها ومن جدواها ! .

ووقف بعضهم موقف السادر الحائر ، وذلك هو فعل بعدهم عن الدين طويلا من السنين بل عديداً من القرون :

انتبه الوعي العام ، والتفت المسلمون الى مواريثهم ، الى اسلامهم ، وفيه حل كل مشكلة ، وعلاج كل معضلة .

وبدر في الطليعة رجال الغد ، بل ورجال اليوم . الشباب الطاهرون الواعون وفي عزائمهم فتوة الشباب وفي قلوبهم قوة العقيدة وفي جباههم اشراقة الايمان ، يريدون ان يتقدموا الركب ويحملوا الدعوة ، ومن احرى من هذه الطاقات العظيمة المتقدة بهذه المهمة ؟ ! .

اجل . من احرى منكم انتم ايها الاحباء اذا انتم فهمتم اسلامكم وفقهتم اسراره ثم حملتم نوركم هذا عالياً مشعاً ينير الدرب للسائرين . فانتم الجيل ومفتاح هداية الاجيال .

اما السبيل الذي سنبلغ به الغاية ان شاء الله فهو نشر الوعي الاسلامي وتعميم الثقافة القرآنية ، وتفهيم الحلول الصحيحة لمشكلات الحياة ، وليس في الحياة ولا في الاجتماع ولا في الكون مشكلة في رأي الاسلام وان كانت مليئة بمشكلات عصية الحل في آراء من ابتعد عن الاسلام ، نعم وهذا هو البرهان الدامغ الذي لن يقاوم ابداً على ان الاسلام هو الدين الوحيد والنظام الوحيد والملجأ الوحيد .

سبيلنا الذي سنبلغ به الغاية ان شاء الله هو صنع الفرد المسلم ليستقيم بعد ذلك بناء المجتمع المسلم فان البناء لا يقام الا من اللبن الصالح .

وصنع الفرد يبدأ من اعماقه ، من اغوار نفسه .

نعم انه غرس والغرس يبدأ من البذرة .

وانه بناء والبناء يبدأ من الأسس .

وانه دين والدين يبدأ من العقيدة .

هكذا . نعم هكذا .

ولا تحسب ان في ذلك اطالة في المنهاج وابطاء عن الغاية .

انه الاسلام اذا اتي اليه من ابوابه الصحيحة فرض نفسه على العقول ومزج حبه بالقلوب وفرض سلطانه على السر والعلانية .

انه الطاقة التي تجمع الطاقات وتوحدها وتوجهها وترتفع بها وتفتح بها الحصون .

نعم ، انه الاسلام ابو المعجزات ايها الحبيب ، ومن الله العون ، وبتوفيقه تدرك الغايات : (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز) .

لقد اطلت في جوابك ، ورسالتك ايها العزيز هي السبب الذي اقتضاني الاطالة وسؤالك المهم في آخرها هو الذي دعاني الى التفصيـــل ، على اني آثرت الاختصار بل الاشارة في كثير من النقاط واليك المعذرة اولا واخيراً .

واحمل اليك جزيل سلامي ووافر شوقي والى من يتصل بك في رحم الأخوة في الله والايمان به والدعوة الى دينه .

أمانة كبيرة نحاسب عليها . انحلال المجتمع. الجهل. الفراغ الفكري من العقيدة . تقصيرنا نحن. لنعمل مجدين . بعض الدعاة . بعض سمات الداعية المسلم . سترتفع راية الاسلام بأيدي الاكفاء .

٩

النجف . ٢٤ صفر سنة ١٣٨٤ .

تحية طيبة وشوقاً كبيراً ودعاء خالصاً ان يحقق الله بك الرجاء ويستجيب فيك الدعاء .

ولدي :

بين يدي رسالتك العزيزة وقد وصلت الي في البحرين قبل سبعين يوماً على وجه التقريب وانا اريد ان اجيبك عنها اليوم في البصرة فهل تعجب مني لهذا الابطاء ؟ وهل انا في حاجة الى الاعتذار منه ؟ .

لعلك علمت عني انني لا أتساهل – ما استطعت – في امر تفرضه علي الدعوة الى الله والدلالة على سبيله ، وان من مهمات هذه الامور لدي اجوبتي على مسائل الشباب الميامين الذين اعقد عليهم الامل ، واتوسم فيهم الخير ، والذين يجعلونني موضعاً لثقتهم فيفيضون الي بشبهاتهم ويبثون الي

شجوبهم في رسائلهم .

لا اتسامح ما استطعت وما يكون لي ان أتسامح وانا اعـلم انها امانة كبيرة يحاسبني الله عليها ويسألني عن الوفاء بها ، اما محاسبة الضمير ومسألته فهما دون ذلك في موازين اهل الدعوة وفي موازين اهل الدين .

ولكن الواجبات اذا كثرت وتزاحمت ادت الى مثل هذا التأخير ، ومن الله العون والمدد ، وبه الحول والقوة ، وبفضله بلوغ الامنية والطلبة واسأله ان يكتبنا في عداد العاملين لدينه الدائبين في نشر دعوته .

بين يدي رسالتك وانا اروم الجواب عنها ، فبماذا ابدأ ؟ .

أأصف الرسالة ؟ .

أأذكر القلم الأديب الذي حررها ، والفكر النابه الذي املاها ؟ .

أأتحدث عن الأجواء التي تنقلت فيها مـع الكاتب والظـلال التي تفيأتها ؟ .

ان الحديث عن ذلك يعني اني اقول لك انك اديب بـارع ، وان ادبك واصالة تفكيرك هي بعض النواحي التي دفعتني ان اعقد عليك الأمل ، وهذا شيء اكتفي فيه ههنا بالاشارة ، فانا موقن بان الملابسات ستريني اكثر مما رأيت كما قلت في رسالتي السابقة ، والله ظهيرك ونصيرك ما دمت مجداً في نصرته .

ورسالتك هذه شرح مبسط لرسالتك السابقة .

فانت تذكر المجتمع الراهن وتصفـه بالمرض وبالخبط ، فهو يتطلب الصحة من منابع الداء ، ويبحث عن السعادة في مصادر الشقاء ! : وهو

يؤمن بان تاخره تقدم ، وهبوطه رقي ! وهو يحلم انه بسيره هذا المعكوس سيبلغ ابعد الغايات واسعد الامنيات ! ! .

وانت تقدم امثلة من الاقوال والاعمال التي تدل على زيغ هذا المجتمع ومجانبته للهدى ، وبعده عن الصواب في التفكير ، امثلة حساسة محسوسة مما تشاهده انت بعينك وتسمعه باذنك ويحس به كل ناظر من الناس سواك.

وانت تبحث في رسالتك عن الجرثومة الأولى لهـذا الداء ، وتقف آخر الأمر على الجهل ، فتقول : (لقد صرت اعتقد ان السبب الرئيسي لانحلال المجتمع هو الجهل فقط . الجهل اولا وآخراً) .

نعم ياعزيزي : ان السبب المهم لذلك هو الجهل ، وان لم يكن هو السبب المؤثر كله ، فقد انضمت الى الجهل اسباب اخرى ، ومجموعها هو الذي اوجب لنا هذا المصير ، وحتم علينا هذه العقبى .

الجهل . الجهل .

الفراغ الفكري من العقيدة التي تصون الانسان عن التذبذب ، ومن المعارف الصحيحة التي تقيه من التأرجح ، والفكر الانساني يفتقر بطبيعته الى التغذية كما يفتقر الجسد الى الطعام ، وجوعته الى الغذاء قد لاتقصر عن جوعة المعدة الى الاكل ، فاذا هو لم يزود بالمواد الصالحة التي تنفع ، اندفع مضطراً الى تناول المواد الفاسدة التي تضر وقد تهلك ، وامتزجت خلايا هذا الغذاء الفاسد في كيانه ودخلت في تركيبه واستبانت آثارها واعراضها في حيويته ونشاطه سموماً فتاكة وجراثيم مبيدة سارية .

ومن سوء الحظ ان الفكر انما يتقبل الفكرة الفاسدة على أنها فكرة

صالحة ؛ فتتزلزل بها ركائز ايمانه وتغطي على منابع فطرته ، وتعكر صفاءها وتغشي على نورها فلا تضيء ولا تهدي .

نعم ، ان السبب هو الجهل ، ومصدر الجهل هو تقصيرنا نحن في تقديم الغذاء النافع لابنائنا والدواء الناجع لادوائهم ، تقصيرنا الذي لابد لنا من الاعتراف به والاستغفار منه ، والعمل للتخلص من نتائجه .

لقد عرفنا السبب وعرفنا المصدر الذي حدثت عنه جرثومة الداء ، وقد آن لنا ان نفيد من التجربة ، وان نعمل لحسم الداء ، واقتلاع جذوره وابادة بذوره .

هذه هي الثمرة الصحيحة المحمودة التي يجب ان نجتنيها من تشخيص الداء وتعداد الاخطاء .

اما ان نشغل اوقاتنا وانفسنا بتعداد الذنوب والاعتراف بالتقصير دون عمل مجد ، فهذا ما لا يجر لنا الا خبالاً ووبالاً . . لايثمر لنا غير اضاعة الوقت وتكرار الخطيئة وتضخم النتائج وارهاق النفوس بالشعور بالإثم ، واضعافها بل واذلالها بالايحاء اليها انها لاتستطيع فكاكاً ولا تملك علاجاً .

فلنعمل اذن مجدين ، فقد مضى وقت الكسل والهزل .

لنبين للناس ما يرشدهم ويصلحهم ولنوضح للناشئة ما يصونها ويثبتها ولنقدم للعقول ما يغذيها ويزكيها .

لنثبت لأبنائنا اثباتا ليس بعده مجال لشك ان دين الله اولى بالقبول وان دعوة الله احرى بالاستماع وان مبدأ الله احق بالاتباع .

ليعمل كل منا في هذا السبيل قدر طاقته ومبلغ جهده وحسب اختصاصه.

ليثبت العالم منا ان العلم الكوني يناصر الاسلام في كل خطوة يخطوها وفي كل نظرة ينظرها ، وليقل الطبيب ان الطب الحديث يفلسف شريعة الاسلام في احكامها وفي حلالها وحرامها ، وليعلن القانوني ان قانون الله اوفى ضماناً بتحقيق العدل واعظم رعاية للحقوق وادق ملاحظة للحدود ، وليبين الاجتماعي ان المجتمع في ظل الاسلام امتن صلة واثبت ركيزة ، واكثر سعة وشمولا ، وليزن الفيلسوف للناس كل نظرة من نظرات الاسلام وكل تشريع من تشريعاته ، وليكشف للعقول عللها واسرارها ومحاسنها ومفاتنها.

ودين الله العظيم يمد كل واحد من هؤلاء الدعاة وغيرهم بالحجة المبينة لما يقول والسند المثبت لما يدعي .

هذا ما يجب علينا ان نفعل ، وهذا ما يجب ان نقدم من علاج . وقد ضمن الله لنا بالهداية والنصرة ان نحن اخلصنا في الجهاد في سبيله والنصرة لدعوته (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) (٦٩ : العنكبوت) (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز) . (٤٠ : الحج) .

اما ان يجهل احد اساليب الدعوة الى الله والفقه لاحكامه فيعتبر السؤال عن سر الصوم وعلة الصلاة وحكمة الحج ، اما ان يجهل هذا البعض اساليب الدعوة فيعتبر هذا السؤال من الفتيان اعتراضاً على الواجب الذي يجب ان يؤدى ولا يناقش ، فهذه بقية من سلسلة التقصير الذي اثقلتنا آصاره ثم ارهقتنا نتائجه ، وسيزول بحمد الله وتمحي آثاره .

وفارق كبير بين شاب يطلب الايمان ، وهو يسأل عن اسرار احكام

الله وعلل تشريعه ليسير على هدى ويؤمن عن بينة ، وشاب معتل الفكرة مختل الضمير لا غاية له سوى اثارة الشكوك ، وتطلب الشبهات ، واياً كان الفارق بين الشابين وبين الفكرتين فعلى الداعية الى الله ان يقوم بوظيفته التي يحتمها عليه دينه ، ان يدعو الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وليس من اساليب الدعوة ولا من سبل الحكمة ان يجهّل السائل ويسفّه قوله ، ولكن سبيل الحكمة ان تسلّط الانوار الكاشفة على مبعث شبهته وان يشار – برفق – الى مواضع جهله لينحسم الداء ، او لتقل عدواه وتخف اعراضه على ادنى التقادير .

عزيزي :

والداعية المسلم لابـــد له من ان يستشعر الحب في الله لمن يدعوه ، والاخلاص في الدعوة لنجاته والثقة الكاملة بالله في نصحه وارشاده .

حتى اولئك الطلاب الأغرار الذين اسمعوك كلمات الاستهزاء لأنك تمتثل امر ربك ، وتسترشد بتعاليم دينك ، انهم بسطاء اغرار ، فلا تحمل لهم الا الحب في الله ولا تضمر لهم الا النصح في دينه ، وسيتصاغرون اذا رأوا منك هذاالارتفاع والتسامي ، وسيخضعون ـ منقادين ـ لنصحك متى لمسوا منك هذه الخلال ، وستلمس انت اثر قولي اذا فكرت فيه .

وحتى استاذ الفيزياء الذي كان يحدثكم في دروسه عن تداخل النغمتين الاساسيتين ، والذي نقد – في حديثه معكم – اصحاب الأذواق الجامـــدة التي لا تتفتح للنغمات المطربـــة ، انه يجهل السر الذي حرم الله من اجله النغمات والاوتار ، ولو أنه عرف ذلك حق المعرفة ولو ان عاطفته لم تتدخل

في حكمه لعلم ان هؤلاء الذين نبزهم ليسوا اصحاب اذواق جامدة ولا تقشعر ابدانهم من نغمات الأوتار ، ولكنهم اصحاب إرادات قوية مؤمنة تصدف عن حرمات الله وتقف عند حدوده ، انهم لا يشمئزون من مرائي الجمال ولكنهم يثبتون لهذا القائل وامثاله ان عقولهم اكبر من شهواتهم ، وعلى اي حال فلا ينبغي ان يحمل له الا الحب والا النصيحة وسينقاد ويخضع يوم يحسّ بالامر الواقع .

وتساءلت في آخر كتابك : متى ترتفع راية الاسلام ؟ ومن سيرفعها واين سترتفع ؟ .

واقول : ستتحقق هذه الأمنية – باذن الله – يوم يجدّ العاملون من ابناء الاسلام في تطبيق مناهج دينهم وحدود كتابهم ، يوم ينتشر الوعي الاسلامي الصحيح بين ابناء الامة وتنمو التربية الاسلامية لناشئتها ، والتفهم الكامل لاسرار الشريعة ، ويخلص الجميع في حمل الدعوة الى الله وتأدية الواجب في الدين . وأقرأ معي ان شئت هذه الآيات الكريمة من سورة الصف : (ياايها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم ؟ . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله باموالكم وانفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم . واخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين) . (١٠ ـ ١٣ : الصف) .

سترتفع راية الحق بايدي تلك الفئة المجاهدة في سبيل الله وفي تلك البلاد التي تسمو بالخضوع لحدود الله ويتآزر اهلها لاعلاء كلمة الله .

اما اذا رغبنا نحن ان نكون من تلك الفئـــة وان تكون بلادنا من تلك البلاد فان علينا ان نحمل تلك الأعباء ونؤدي ذلك الثمن .

واما وقد عرفنا الغاية وترسمنا الطريق وبدأنا المسير فما علينا بعد الا أن نصمم على اتمام الدور واتقان الخطة ، وعون الله وتوفيقه كفيلان لنا ببلوغ المراد :

واعود فاعتذر عن التاخير واعتذر عن الاطالة .

ولك تحيات الاسلام واشواق الأبوة وامانيها الرقيقة وادعيتها المستجابة .

الاستعمار والاستغلال . نظرة الاسلام اليهما . ونظرتهما الى الاسلام . هكذا تنشأ الدولة الاسلامية .

١٠

الى النجف : غره ربيع الاول سنة ١٣٨٤ .

ايها العزيز : . :

ابلغك وافر تحيتي ولك خالص شوقي وجميل ثنائي .

وصلتني رسالتك الكريمة قبل مدة طويلة ، وكنت قد ارسلت جواب الرسالة ، ولكنني اخرت جواب سؤالك فيها لامور فرضت علي التاخير ذكرتها في رسالتي اليك وطلبت من اجلها العذر ، ومن الله استمد لي ولك العون في جميع الأمور ، والتوفيق والسداد في جميع الخطوات ، وان يجعلنا من حملة الاصلاح ، وادلاء الصلاح .

سألت في رسالتك عن نظرة الاسلام في الاستعمار والاستغلال ، ولماذا يخشى الاستعمار من الاسلام ؟ .

والسؤال بصيغته هذه مما يدعو الى التعجب فنظرة الاسلام في الاستعمار والاستغلال معلومة ليس فيها خفاء وليست عليها غشاوة ، وخوف الاستعمار

من الاسلام ومحاربته اياه معروفا الوجه بيّنا العلة .

فالاسلام ينابذ الاستعمار والاستغلال ويكافحهما ما استطاع وما وجد الى مكافحتهما ومنابذتهما سبيلا ، وهو يعد لذلك جميع القوى التي يملكها ويوجه اليه جميع الطاقات التي يسيطر عليها ، وهو يثبت في نفوس اتباعه وجوب الثورة عليهما وزلزلة الارض تحت اقدامهما ، والاستعمار يعلم ذلك من الاسلام حق العلم ، ولذلك فهو يخشى منه حق الخشية ويحاربه بشتى الفنون وشتى الاساليب ، وكل أولئك مكشوف معروف لاشك فيه ولا مراء .

ويبدو انك تسأل عن الوجوه التي اوجبت لدين الاسلام ان ينظر الاستعمار والاستغلال هذه النظرة ، ثم اوجبت للاستعمار ان يحذر من الاسلام هذا الحذر ويخشاه هذه الخشية .

والسر في ذلك - اولا - : ان الاسلام مبدأ مستقل قائم بذاته له فلسفته الخاصة ، ولفلسفته مفاهيمها المعينة التي تفسر بها الكون والحياة والانسان ، ولها نظراتها المعينة كذلك في ما وراء الطبيعة ، ونظراتها المعينة في صلة الانسان بالكون والحياة وبما وراء الطبيعة .

وللاسلام كذلك نظامه المخصوص الذي يشتق من تلك الفلسفة ويبتنى على تلك المفاهيم ويقوم على تلك الاسس ، في الاجتماع وفي الاقتصاد وفي الحكم وفي ما يتبع ذلك ويتصل به .

وهذه هي القاعدة المعلومة المضبوطة التي نتعرف منها ما هو المبدأ والتي نرجع اليها في التفرقة بين مبدأ ومبدأ .

وانطلاقاً مع هذه القاعدة المعلومة ، فالاسلام مبدأ متكامل يباين

المبادىء القائمة التي تخضع لها القوانين الوضعية المعروفة ، والتي ينتهض عليها الاستعمار المعاصر بجميع الوانه واشكاله ، يباين هذه المبادىء جميعاً بروحه وجوهره ومناهجه وغاياته .

ونتيجة لذلك فهو لا يرى معه موضعاً لشيء من هذه المبادىء على اختلافها ولا لشيء من القوانين الوضعية القائمة عليها ، والاخرى التي تختلف عنها ولكنها تتخذ صبغتها وتسير في ركابها ، ولا للاستعمار الذي يحتمي بهذه القوانين ، ويستمد منها سلطانه ويمكن نفوذه .

والاستعمار بدوره يبادل الاسلام هذه النظرة ويعرف منه هذه الظاهرة ويعترف له بهذه الخاصة ، ولذلك فهو يحذره ويخشى سيطرته وصولته ويحاربه انواع الحرب ويستخدم لبلوغ غايته منه ضروب الحيل .

والسر في ذلك – ثانياً – : ان الاسلام دين الهي جامع ، يوجه الحياة ويوجه الانسان ويوجه المجتمع وجهتها الصحيحة ، ويضمن لها بالسعادة الكاملة ويقدم لها المنهج الكامل الذي لا يهمل ناحية ولا يذر مشكلة ولا يحيف في نظرة . وهو من وضع خالق الانسان وعالم اسراره واطواره ، ومقدر حاجاته وضروراته وقواه وطاقاته .

وهو من اجل هذه المزايا التي توفرت فيه دين الانسانية الذي لاغناء لها عنه ، ولا بديل لها سواه ، ونظام الحياة الذي وضعه واهب الحياة ، والذي لن يتغير ولن يتحول ما خلدت الحياة ، دين الله الذي نسخ بكماله وثباته كل دين (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) ، (٨٥ : آل عمران) ، وشريعة الله التي تحدت بحكمتها

وعدلها وشمولها كل قانون يضعه الانسان (افحكم الجاهلية يبغون ومن احسن من الله حكماً لقوم يوقنون) . (٥٠ : المائدة) .

ومن اجل ذلك فلاموضع لهذه الانظمة القاصرة المنقطعة التي يصنعها الانسان المحدود العلم المحدود الادراك ، مع نظام الله الثابت الدائم ، ولا للسلطات المتنفذة او المستعمرة التي تتفيأ ظلال هذه الانظمة وتتعلق بنصوصها وتبرر سيطرتها ونفوذها بها (الم تر الى الذين يزعمون انهم آمنوا بما انزل اليك وما انزل من قبلك يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت وقد امروا ان يكفروا به ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالا بعيدا) (٦٠ : النساء) .

والسر في ذلك – ثالثاً – : ان الاسلام دين الحرية الصحيحة فهو لا يرى لاي فئة او صنف او جنس او لون من الناس حقاً في التنفذ على الآخرين والتحكم في رقابهم ودمائهم واموالهم والسيطرة على مقدراتهم ، لا يجد في ذلك حقاً لأحد من الناس ، ولا يرى في المواثر التي تعارف البشر على تعظيمها واكبارها والخضوع لها . لا يرى في هذه المواثر الكثيرة المختلفة التي يعرفها الناس ما يستوجب السيطرة والاستعباد للناس ، فالناس كلهم سواسية كاسنان المشط في هذا المجال ، والمتنفذ على الناس ظالم يجب ردّه مهما كانت ميزته ومهما كانت حجته ، ومهما كانت قوته .

وقلت لك : الناس كلهم سواسية كاسنان المشط في هذا المجال : لان هذا المجال هو موضوع حديثي معك ، والا فالناس في الاسلام سواسية كاسنان المشط في جميع الحقوق .

والناس في دين الاسلام كلهم عباد خاشعون ، ضارعون لله الذي

خلقهم ورزقهم والذي بامره مماتهم ومحياهم ، وبيده تدبيرهم واليه مصيرهم، كلهم عباد خاضعون لله وحده لا شريك له ، لا يخضعون الا لشريعته ولا يذعنون الا لحكمه ، ولا ينقادون الا لأمره .

والمعنى الصريح لذلك انه لا حكم الا لله في هذه الأرض ولا حكومة الا حكومته ولا قانون الا قانونه كما لا دين الا دينه ولا عبادة الا عبادته، والممثل لحكومة الله في الأرض والقيّم على انفاذ احكامه بين الناس هو الممثل الأعلى لعدل الله المحافظ الاكبر على حدوده ، الذي لا يزيغ به هوى عن مرضاة الله ولا يهوي به ضعف ولا تجمح به عاطفة ولا يخف به حلم ولا يسف به جهل ، والمشاركون له في اقامة الحكم وادارة الامر هم الابرار الاكفاء الذين لا تاخذهم في الله لومة لائم ، القوامون بالقسط المناضلون عنه ، والمسؤول عن تثبيت دعائم الدولة الاسلامية وشدّ أركانها ودعم كيانها والمجاهد لحفظ حدودها واعلاء كلمتها هو المجتمع المسلم الذي تشرب عقيدة الاسلام وتغذى مفاهيمه وعاش مناهجه وفقه تربيته وفهم مبادئه وغاياته .

هكذا تنشأ الدولة في الاسلام ، وعلى هذه الركائز تعتمد وهذا هو رصيدها من النظم ومن الرجال ، اشير اليه اشارة ، وموعدي بالتفصيل حلقة خاصة من كتاب (الاسلام) وارجو من الله العون والتوفيق ، وهكذا يقتلع الاسلام كل ناب ويقلم كل ظفر للظلم ويردم كل باب ويوصد كل نافذة للحكم الجائر ، ويبت كل امل ويقطع كل وشيجة للانسان بالظلم والاستئثار ، ويئد الاستعمار والاستعباد في قبره ، ويحسم مادته من اصله .

والنصوص الكثيرة التي تحرّم الظلم وتحدد موقف الاسلام والمسلمين منه ، والاخرى التي تحرم التحاكم الى الجور والى الطاغوت والى حكم الجاهلية ، والاخرى التي تقطع السبيل لكافر على مسلم ، هذه النصوص الاسلامية الكثيرة انما تقرر تلك الحقائق وتؤكد تلك النتائج .

هذه بعض الوجوه التي تحدد موقف الاسلام من الاستعمار ومن الحكم والقوانين التي تسير في ركابه .

اما الاستغلال فموقف الاسلام منه اصرح واوضح فان المعنى المفهوم للاستغلال هو الاستيلاء على حقوق الآخرين واستثمارها لمصلحة ذلك المستولي دون مبرر عادل ، والتفسير الواضح لذلك هو الظلم المقنع او المكشوف والاسلام ألدّ الاعداء لذلك ما دام منهج الاسلام هو منهج العدل ومادامت غاية الاسلام هي تحقيق العدل : (لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) . (٢٥ : الحديد) . نعم ، وقد ذكرت في عداد الوجوه التي اوجبت على الاسلام ان يحارب الاستعمار انه استيلاء على الآخرين بغير حق واستغلال لحقوقهم ومقدراتهم دون مبرر .

عزيزي : لقد آثرت الاجمال في جواب مسألتك فحشدت المفاهيم حشداً ، وجاءت رسالتي – على طولها – مختصرة ، وماذا تحمل الرسالة من هذا البحث الذي قد لا يفي به وضع كتاب . وارجو ان اتمم بعض نواحي البحث في جوابي عن بعض مسائلك الاخرى .

وتقبل مني تحياتي لك ولمن يعز عليك وارجو ان لا تنساني من الدعاء في مواضع الدعاء .

الاسلام والقوميات . قولة الله الحاسمة . ركيزة الاجتماع في الاسلام. التحيز للقبيلة. تعاليم الاسلام. الدعوة للعروبة . الدعوة للشعوبية . كلاهما بعد عن شريعة الله .

١١

النجف

الشاب المهذب الذكي . . . . حفظه الله ووفقه .

تحية زكية وثناءاً طيباً وسؤالا كثيراً عن صحتك الغالية ، ومن الله سبحانه أسأل ان يوفر عليك نعمه وان يمتعك بعافيتـــه ، وان يديم لك توفيقه ، وأضرع اليه ان لا يحرمني دعاءك وان يجعلني اهلاً لثقتك وان ينظر الينا جميعاً بعينه ويمدنا بعونه انه المنان بالعطاء .

سالتني في رسالتك الأخيرة عن القومية العربية ما هو قول الاسلام فيها ؟ .

وكان الأجدر ان يكون السؤال عن قول الاسلام في مطلق القوميات : في العنصريات التي يستمسك بها الكثير من الناس – سواء أكانوا عرباً ام

غير عرب – ويدعون اليها ، ويلفقون لها الحجج ، ويذكرون لها العلل ، ويرمون بها الى غايات واهداف .

في هذه العنصريات التي تقسم المجتمع البشري اوزاعاً ، وتفرقه شعوبا ودماءاً ، وتجعل لكل دم ولكل شعب منها حدوداً ، وتنحله خصائص وموائز وحقوقاً وحريات .

كان الأجدر أن يكون السؤال عن رأي الاسلام في مطلق القوميات ، فنظرة الاسلام في جميعها نظرة واحدة ، وحكمه عليها كافة حكم واحد ، ودين الله أبرأ الاديان والمبادىء والأنظمة جميعاً وأعظمها نزاهة عن التحيز والمالاة ، واشدها حرباً على التميز والتفريق .

« ياايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن اكرمكم عند الله اتقاكم ، ان الله عليم خبير » (١٣ : الحجرات).

هذه قولة الله الحاسمة في القوميات والعنصريات والحدود التي يضعها الانسان لنفسه ويقسّم بها مجتمعه ، هذه قولة الله ، اترى فيها شيئاً من اللبس او الغموض ؟ .

الناس كلهم أجمعون مخلوقون من ذكر واحد وأنثى واحدة ، واذن فأصلهم الذي ينتسبون اليه أصل واحد ، والمعدن الذي تالفت منه عناصرهم وأنشئت منه اجسادهم معدن واحد ، ودمهم الذي يجري في عروقهم دم واحد ، لا تفاضل بينهم في شيء من ذلك ولا تمايز ، والخالق الذي أنشأ الذكر الاول والانثى الاولى وفطر المعدن وألف العناصر وأنشأ الاجساد والأرواح واجرى الدم ووهب الحياة وسلسل الذرية خالق واحد ، فلا ميز ولا فضل

في ناحية ابداً ، ولا حدود ولا قوميات تباعد بين اصناف النوع البشري أو تفاوت بين آحاده .

والشعوب والقبائل التي عرفها الناس وتصنفوا بالانتساب اليهـا هي الاخرى من صنع الله الخالق العظيم ومن تدبيره ، وقد جعلها لحكمة عظيمة لابد منها ولابد من النظر فيها والعمل لها ، هي أن يتعارف الناس ما بينهم وأن تتميز اصنافهم وآحادهم ، فتستقيم بذلك صلاتهم وحقوقهم ومعاملاتهم العامة والخاصة ، وهذه نواح لابد من وقوعها بين أصناف النوع البشرى وبين آحاده ، ولن تنسجم ولن تستقيم الا اذا تعارف الناس وامتازوا وكان لكل فرد ولكل صنف مميزاته ومعرفاته .

لهذه الغاية صنفوا قبائـل وشعوباً ، لا ليختلقوا منها حدوداً تفرق الوحدة وتبعثر النظم ، اما المضمار المفتوح الذي يتميز فيـه السابقون من الأفراد فهي التقوى ، هي التطبيق الكامل لمنهاج الله الذي شرعه للحياة ، لشريعة الله التي وضعها لاسعاد هذا الانسان ، وفضل كل احد منهم بمقدار نصيبه من هذا الكمال ، وارتفاعه في مراقي الكرم عند الله على قدر سبقه في هذا المضمار .

نعم . لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى ، والناس سواسيـة كاسنان المشط ، وكلكم لآدم وآدم للتراب ، كما يقول الرسول الكريم (ص).

هذه نصوص الاسلام في القوميات والعنصريات ، وهذه احكامه التي لا تقبل التأويل ولا التعديـل ، ويأفك من ينسب غير ذلك الى دين الله ويفتري باطلاً عليه وعلى حكمته الرشيدة وعلى نظرته العامة العادلة .

وتلك هي الركيزة القوية الشاملة التي يرسي الاسلام عليها مذهبه في الاجتماع ويؤسس عليها مجتمعه المسلم ، الركيزة القوية الشاملة التي تستند الى ذاتيات الانسان وخصائصه العامة التي لا تختلف في جيل ولا في بيئة ولا في زمان .

وتلك هي الدعامة المتينة التي تعتمد عليها عالمية هـذا الدين وشمول رسالته للناس اجمعين (تبارك الذي انزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) (١ : الفرقان) (قل ياايها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض لا اله الا هو يحيي ويميت فآمنو بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) (١٨٤ : الاعراف) وكل اولئك واضح وليس مجالاً للريب .

والمسلمون جميعاً يعرفون هذه الظاهرة من الاسلام ويعترفون بهـا ويذكرونها في عداد مفاخره ومآثره ، يذكرون ذلك حين يخلصون لاسلامهم ، ولكن قد تجدّ ببعض المسلمين أحوال فينكر هذه الظاهرة ويتناسى هـذا الفخر لانه يصادم له بعض الغايات .

والتحيز للقبيلة والتعصب للدم نزوع عرفه الانسان منذ القديم ، حين كان مفتقراً الى الانضمام الى قبيلته والاندماج بآحادها ، ليتقي بقوتها شر العوادي ويستعين بأفرادها على تحصيل القوت ، وللجنس العربي من هذا النزوع حظه الأوفى ، وأكثر الحوادث والحروب التي وقعت بين قبـائل العرب في الجاهلية كانت وليدة عن هذا النزوع القوي المكين .

وجاء الاسلام وانزلت تعاليمه وتظاهرت نصوصه لتذيب القوميات

والعنصريات والاقليميات ، وتجمع البشرية كلها في مجتمع واحد لا تفاوت فيه ولا حدود ، واستطاع أن يفعل فعلته في النفوس الكبيرة التي آمنت بعقيدته وفقهت غايته وتمثلت تعاليمه ، ولكنه لم يعمل شيئاً في النفوس الأخرى التي لم تفهم الاسلام حق الفهم ولم يتغلغل فيها الى الاعماق .

خضعت هذه الفئات للاسلام ، واقرت بشريعته ، واستمعت الى آيات الكتاب واحاديث الرسول التي تمحق العنصريات وتنسف الحدود ، وقبلت هذه في ما قبلت من تعاليم ، لانها لم تكن تصطدم بغايات لها آنذاك ، فان الدعوة القائمة باسم الاسلام عربية خالصة ، والقوة المناضلة عنها قوة عربية خالصة والداخلون في الاسلام وفي الدعوة اليه وفي القوة المناضلة عنه من غير العرب خاضعون للاسلام ولحكمه ، والاسلام في ما تعرفه الفئات الآنفة الذكر انما يعني العرب والعروبة .

واذن فلا تزاحم ولا تصادم بين وصايا الاسلام بنبذ العنصريات وازاحة الفوارق ، وبين غاياتهم الحاضرة ، والمساواة بين العناصر انما تعني — في رأيهم — ان يشترك الجميع في الدعوة الى الاسلام (الى العرب والعروبة !) وفي العمل من أجل مد نفوذه .

وامتد الفتح ، وكثر الداخلون في دين الاسلام من غير العرب ، ورسخت أقدام الكثير من هؤلاء في الاسلام وفي فقه أحكامه ومتنوع علومه ، وأبلوا البلاء الحسن في الدعوة اليه والجهاد في سبيله ، وأبدوا من الكفاءات ما يؤهلهم للمناصب الرفيعة في الدولة ، وللمقامات العالية في الدين ، وايقنت الفئات التي تؤمن بالدم — حين ذاك — ان المساواة بين العناصر في دين

الاسلام تعني امراً آخر لم يكن يدور لها بحسبان .

كان هذا في عهد الدولة الأموية ، وكان المتنفذون في هذه الدولة ممن يغرقون في العنصرية القبلية الى حد الايمان ، وفي ظل هذا النفوذ وهـذا الاغراق في التعصب القبلي كثر الدعاة الى العنصرية العربية من كل نوع ، ففسرت الآيات ورويت الأحاديث عن الرسول (ص) للتمكين لهذا النزوع .

وكان من المنتظر أن ينكر المسلمون غير العرب هذا التحوير لتعاليم الاسلام ، وهذا التفسير لآيات القرآن ، وأن يدعوا الى تعاليم الاسـلام ونصوصه على حد ما فهمه السلف الصالح من المسلمين .

فكانت الدعوة الى العروبة ، وكانت الدعوة الى الاسلام ، ثم كانت الدعوة الى الشعوبية ، وتمكن الشجار بين الطرفين ، وتنوعت أساليبه ، وطال أمده ، وكان من الخلفاء العباسيين وقوادهم ووزرائهم من ينزع الى الشعوبية فمكن لها وقوى جانبها .

وخرج من الشعوبيين من يجحد للعرب كل مكرمة وينكر كل فضيلة ، ومن يؤلف الكتب ويضع القصص ويقرض الشعر في مثالب العرب ومطاعنهم ، وفي مثالبهم قبيلة قبيلة .

وكلا القولين بعد عن شرعة الله وشطط عن حكمته ومخالفة صريحة لقوله .

وامتد الزمان وتكشفت الأسباب واستبانت الغايات ، ولم يزل في المسلمين من لا يقوى على التعالي عن هـذا الحضيض ، ولم يزل في المسلمين من يجد ان غايته أهم من غاية الله عند التزاحم وأولى بالمراعاة ، ولم يزل في

كتّاب المسلمين وخطباثهم من يلوي لسانه وقلمه بهذه الدعوة والتبرير لها وابتغاء الادلة لنصرها .

هذه هي الدعوات العنصرية لم تتغير منها المقومات ولا الملامح ولا السمات ، وان تغيرت منها الازياء ، وذلك حكم الله الصريح عليها وحكمته الرشيدة في وجوب نبذها ، فهل يأتي علينا زمان نعترف فيه بأخطائنا ونعرف كرامة الله التي ارادها لنا لما أمرنا بنبذ هذه الفوارق ، ومحق هذه الفواصل ؟ .

واليك معذرتي مما في الكتاب من اجمال ، فهذا القدر لابد منه للالمام بالموضوع ، والبسط الكامل لا تتسع له رسالة تكتب في جواب سؤال ، ولك وافر شوقي وخالص تحياتي ولمن يعز عليك من الاصدقاء وسلمتم .

ارسلت بمناسبة اعتراف حكومة مصر بالمذهب الجعفـــري مذهباً رسمياً ، واعلان وزارة الأوقاف المصريـة عن ذلك ونشرهـــا كتاب المختصر النافع للمحقق الحلي (ره) فى فقـه الامامية ، وادخال تدريس المذهب في مناهج الجامع الأزهر الشريف .

١٢

حضرة صاحب الفضيلة معالي السيد احمد حسن الباقوري وزير الاوقاف المصرية المبجل .

تحية الايمان ، وثناء العلم ، وشوق الاخوة .

اخي ، والله يعلم انها أحب نسبـــة الى قلبي ، وألمسها لعاطفتي ، وأبقاها اثراً في نفسي .

اخي ، والله يعلم انها الذ دعوة في فمي ، واعز جامعة يناضل عنها قلمي .

اخي ، والله يعلم إنها اصدق النعوت في رأيي ، وارفع المنازل في ديني ، وابر الدعوات عند ربي .

انني اقول : ابي ، فأستبين صغري للكبير الذي أنسبـــه ، واقول :

ولدي ، فادل بكبري على الصغير الذي أنجبه ، واقول : أخي ، فأشعر بأرض تسويني بمن أدعو على قدم ، وبسقف يظلني واياه على سواء ، وبسبب جمعني واياه في الوجود ، ولبن شركني معه في الغذاء ، وأحس بصلة تلفني به لف النظير بالنظير ، وضم الظهير للظهير ، واذكر شريعة ماثلته بي في الحقوق ، وعادلتني معه في الواجبات ، وكافأتني به في الحرمة .

بلى ، واذكر يداً كريمة عليا باركت لنا هذا النسب ، ووطدت بيننا هذه الصلة ، وعقدت بيننا ميثاق الولاية ومدته بقانون النصرة . . .

اخي . . . بت الله حوادث ظالمة اقصتني عنك وباعدتك عني ، فما وصل الله هذا السبب ليقطع ، وما نصب هذا الذمام ليخفر ، وما حصن الرسول هذه الوحدة لتتمزق .

لم أر كالاسلام ديناً يتسع لمذاهب الفكر ، ويكبر نتاج العلم ، ولم ار كالقرآن كتاباً ينشّط حركة الرأي ويكره خمود الوعي ، ثم لم ار كالمسلمين أتباعاً يحرجون بما انفسح له دينهم ، ويبرمون بما نشط له كتابهم ! ! .

ان المسلم يرث من سلف له قولاً ، أو يرى باجتهاد منه رأياً ، فيخال ان الاسلام حكر على رأيه ، فلا اسلام وراء الاكمة ولا ايمان خارج المضيق .

واذا لم يكن اسلام ، فلا أخوة ترتجى . . . . بل ولا كرامة تحتشم . . . . ولا رأي يحترم ! .

ما هذا ؟! ما هذا ؟! .

لقد فصلتني عن أخي فواصل ، نعم ، ولكن : أليس بيني وبينه مايجمع ؟!؟

أليس من حقي ان أحصي مالديه من ثراء ، فلعله اختص بشيء من تراث ابي ؟ ! .

أقول : اختص ، ولاأقول : استأثر ، لأنني أراه يدعوني لمشاركته مابيديه.

وأخي ، أليس من حقه ان يطّلع على ما بيدي ؟ ! .

لئن كان هذا الاعراض عن زهد ، فان الزهد هنا مما يضحك ، وان كان من قطيعة فان القطيعة هنا مما تبكي .

واذا لم يكن محيص عن القول في اخي ، واذا لم يكن بد من الخصام ، افليس من واجب العلم ان اطلع على القول الذي أنقد ، فأنقل بأمانة ، ثم أخاصم على علم ؟ ! .

* * *

أخي : آن لنا أن ننظر ببصر يخرق الحجب ، وببصيرة تمزق الغشاوات وبصبر يتحدى المعوقات .

آن لنا أن نستيقن أن حجباً فارقت بيننا في الصورة لاتقوى على ان تباعد ما بيننا في الجوهر ، ولا تشجع أن تخالف ما بيننـا في الروح ، لا تملك شيئاً من ذلك ولن تملكه ابـداً ما دامت ضالتنا الهدى ، وما دام قائدنا الرسول الكريم ، ورائدنا القرآن العظيم .

وقضية السنة والشيعة – كما قلتم – قضية ايمان وعلم معاً ، واذا كانت كذلك فمن أولى بحلها من العالم المؤمن ؟ .

من أولى بحلها من العالم المؤمن اذا كان يستطيع أن يقول ويستطيع ان يعمل ؟ .

وقد بدأتم الشوط ، وكانت خطوتكم موفقه مبرورة ، يباركها الله ويباركها العلماء المؤمنون .

يباركها الله فهي غايته سبحانه لما شرع الدين ونهى عن التفرق فيه .

ويباركها العلماء المؤمنون لأن القضية قضيتهم ، والشوط شوطهم ، والمدى مداهم ، ومن يبخل من العلماء المؤمنين أن يكون نصيراً لله على غايته ورداءاً للعلم والايمان في قضيتها ؟ .

بدأتم الشوط وكانت خطوتكم موفقة مبرورة ، وان الايمان والعلم ليبتهلان الى الله ان يسددكم في الخطى ، وأن يوفقكم لاتمام السعي ، وان يهنئكم النجاح ويلقيكم عقبى الفائزين .

هدى الله ورسوله روح يهب الحياة وطب يشفى النفوس.

١٣

البحرين . ١ ربيع الثاني سنة ١٣٨٤ .

الاديب المهذب . . .

سلام الله عليك وعلى من قبلك من الاحبة ورحمة الله الشاملة ونعمته الموفورة وتحيته المباركة ، وابدي لكم كثير الشوق وطيب الثناء ومنه سبحانه اسأل لكم جميعاً مدداً من هداه وسنداً من توفيقه ومزيداً من لطفه .

ايها العزيز : لقد جددت لي رسالتك ذكرى ايام لم انسها واحباء لم اسلهم و مجالس مؤمنة ارجو من الله أن تتصل بركاتها وان يمتد اشعاعها وان تكثر امثالها .

وقد وصلتني في البصرة قبل سفري الى النجف بيوم فكان لابد لي من التأخر في الاجابة ، وهذا ما أود أن اسلف اليك فيـــه العذر ، فان ترادف الواجبات وزيارات الاصدقاء ، ومرض ولدي ضياء الدين ، هذه بعض المعوقات عن المبادرة . والرسائل التي تسوق الكاتب أن يتحدث فيها عن الاسلام وحقائقه وخصائصه لابد للداعية المسلم من العنايـــة بها لانها

جزء من مهمته ، والاهتمام بشأنها من بعض فروضه .

وبعد فأسأل الله ان يجعلني عند حسن ظنونكم وأن يستجيب لي دعواتكم .

تحدثت في رسالتك عن هدى الله ورسوله وخلفاء رسوله(ع) ، ووصفته كما يروق لك بالماء العذب وبجنى النحل .

بلى ايها العزيز ، والماء العذب ضرورة لا بدل عنها لحياة الانسان ، وجنى النحل دواء يشفي كثيراً من أدوائه ، هما ضرورة وحاجة للانسان قبل أن يكونا شهوة تطلب للمتعة وتتناول للذة . وهدى الله ضرورة لابد منها كذلك لحياة الانسان ، وهو حاجة لا بدل عنها للشفاء من أمراضه ، اقرأت قوله تعالى : (ينزل الملائكة والروح من امره على من يشاء من عباده ان انذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) (٢ : النحل) ، وقوله تعالى :(ياايها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) (٥٧ : يونس) .

هذا هو هدى الله وهدى رسوله وخلفائه كما يصفه الله في كتابه الكريم ، روح حي يهب الحياة الرفيعة العالية الطيبة لهذا الانسان ، ويسعد حياته الطبيعية وينظم شؤونها وحركتها . ويوجه قواها وطاقاتها الى مايسعد ويثمر كما تومي اليه الآية الأولى ، وطب ناجع يشفي القلوب والصدور ، ويطّهر النفوس والضمائر ، ويزكي الأخلاق والاعمال كما تقول الآية الثانية .

نعم ، وهذه هي الحياة السعيدة الرغيدة التي تأذّن الله بها لكل مؤمن ومؤمنة إذا هما خضعا لدين الله وطبقا مناهجه : (من عمل صالحاً من ذكر وانثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا

يعملون) (٩٧ : النحل) ، ومن أجدر من الله سبحانه بأن يبر بما وعد وان يصدّق ما قال ، (ومن احسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين) (٣٣ : فصلت) .

فلنسر مجدين واثقين مطمئنين ما دامت السبيـــل مأمونة والغاية مضمونة ، والله عون الداعي وغوث المدعو ، وهو دليلهما الى القصد وقوّتهما لبلوغ الهدف وغايتهما في المبدأ والنهاية .

وختاماً ازف اليك والى الاخوان الأماثـل والابناء الأعزاء وكل فرد فرد من الشباب النجيب المقبلين على الله المقتفين هداه أوفر التحيات وأتمنى لكم اطيب الامنيات .

لا حرج على الناقد البناء اذا قال حقا . وعليه ان يتسامى عن السقطات .

١٤

البحرين ٢٦ . جمادى الاولى سنة ١٣٨٤ .

الاديب البارع المهذب . . . . . حرسه الله ووفقه .

اتقدم اليك والى جميع الاخوان والأبناء الاعزاء بوافر التحية وبالغ الشوق وجزيل الدعاء ان يمدكم الله بتوفيقه ويظاهر عليكم نعمه ويضاعف لكم بركاته .

قلت في كتابك المؤرخ ١٣ / ٩ / ٦٤ : لديك محاولات في تأليف قصص اجتماعية ، وان تشخيص الداء ثم وصف الدواء يضطرك الى وصف اشخاص الرواية التي تكتب بما فيهم من طيب ورديء ، والى ذكر بعض اعمالهم التي تجر عليهم وعلى من يسير سيرتهم الخبال والوبال ، وسألت عن رأي الأسلام في هذا النوع من التأليف وهذا النوع من الوصف ؟ .

عزيزي : ان الكاتب الناقد سواءاً أكان ميدانه القصة ام غيرها ، اذا كان يروم البناء لا الهدم ويقصد الاصلاح لا الافساد ، لا حرج عليه ولا حجر في ان يقول ، وأن يصف ، وأن يذكر الادواء داء داء ، ويحصي أعراضها عرضاً عرضاً ، ويستعرض آثارها واحداً واحداً ثم يشير الى علاج

كلّ داء منها وازالة كل أثر .

لا حرج عليه في ذلك ما دام لا ينطق عن حقد ولا يستخدم ادبه ومواهبه لضغينة ولا يروم التشهير والاغتياب لأحد من الناس ، وان الأدب والاصلاح الاجتماعي والغاية الاسلامية ياعزيزي أسمى من هذه السقطات وأبعد مرتقى واكبر منزلة ، والكاتب الذي يهوي بأدبه وبموهبته وبغايته الى هذه المباءة من اشد الناس الى الاصلاح ، فلا كفاءة فيه لان يحمل لواء الاصلاح .

نعم ، لا حرج على الكاتب المصلح ان يقول وان يصف ، اذا تحرّى الاصلاح وترفع عن الاحقاد ، ووصف الدواء النافع يتوقف على تعيين الداء.

ومن الخير له بل ومن المتعين عليه ان لا يسمي شخصاً معيناً ، بل – وان استطاع – ان لا يقصد شخصاً معيناً ، وان استوحى قصته من حوادث معينة ، ومن ملابسات معينة ، من الخير له ان يترفع عن ذلك جهد المستطاع ، فقد قلت لك ان الغاية التي يعمل لها أرفع من كل اولئك ، وسيرى – اذا ترفع عن الهناة – ان مجهوده اصبح ابلغ أثراً في الاصلاح، واكثر غنىً في المجتمع ، واعظم جدوى في المهمة .

على ان الاشخاص الذين يتجاهرون بالمحرمات ولا يأنفون منها ، ويبارزون الله بها وبالاصرار عليها ، لا حرمة لاغتيابهم ووصفهم بما هم أهله بعد ان بدأوا هم بانفسهم فهتكوا ستر الله الذي أرخاه عليهم .

لا حرمة في وصفهم بما هم أهله ، وخصوصاً اذا كان هذا الوصف لهدف اسلامي نبيل .

وفقنا الله واياكم لما يحب وجنبنا المزالق وهدانا سبيل الخير .

الحق للقوة . حكم العقل في هذه النظريـــة . قولة الاسلام فيها . الحق الإلهي . وهم مستحيل . فارق كبير بين الحق الالهي والحكم الالهي . ركائز الحكم الالهي ومقوماته .

١٥

الكوت

المهذب الأديب . . . . دمت في مسرة وغبطة .

سلام الله عليك ورحماته وبركاتـــه وعلى الاخوة الاعزة ، والابناء النجباء الذين ينتهلون معك من نمير العقيدة ويمتّون اليك بنسب الاخوة في الله ويدأبون في السعي لاعلاء كلمته وابتغاء مرضاته ، ولـكم جميعـــاً وافر شوقي وجميل تحيتي وخالص دعائي وطيب اماني .

وردتني رسالتك قبل مدة ، ولكن وفرة الأعمـــال وكثرة المزاحمات وشدة الصوارف ، وضعف البدن امام كل اولئك حتمت علي ان اتأخر في جواب ولدي هذه المدة ، وقد كان تسلسل المنهج الذي وضعته لاعمالي يقتضيني ان اتأخر في الجواب مدة اخرى .. ولكني بادرت قدر ماستطيع ، ومن الله المدد لي ولـكم ، والقوة على القيام بالاعباء والســـداد في القول

والعمل ، واليك المعذرة من التأخير ، ثم المعذرة من الايجاز ، فان التفصيل في الاجابة على سؤالاتك يستدعي وضع مؤلف كامل ، ولعل الله – وله المشيئة والحكمة – يوالي عليّ فضاه فاقوم ببحثها مفصلة في الحلقات المقبلة ان شاء الله من كتاب (الاسلام) .

سألت عن رأي الاسلام في نظرية القوة ، وفي نظرية الحق الالهي ، وفي نظرية العقد الاجتماعي .

والذي ظهر لي من كلمة القوة التي سألت عن حكم الاسلام فيها انك تريد منها قوة السلاح وما يتصل بها من وسائل الغلبة ، فانت تسأل عن السيطرة على الناس بالقوة ، عن الوصول الى الحكم بوسائل القوة والإرهاب سواء أرضي المحكومون بذلك ام ابوا ، عن القوي وحقه في السلطان ، وسيكون جوابي قائماً على هذا المعنى الذي وضح لي من السؤال واودّ لو تحدّد لي مرادك من الكلمة اذا كنت ترمي بها الى معنى آخر .

و (الحق للقوة) ظاهرة عرفها الانسان في عهود الغابة وما بعدها من عصور الهمجية ، وهي من املاء القوة ذاتها لا من املاء الفكر ، فقد عرف الانسان القوي السيطرة لانه قوي ، وعرف الانسان الضعيف الخضوع والتبعية لانه ضعيف ، ثم لا شيء ولا تعليل غير ذلك .

والظاهرة اعرق من ذلك واعمق ، فقد عرفها الحيوان قبل الانسان فاملت القوة كذلك على القوي منه ان يسيطر وعلى الضعيف ان يخضع ويتبع .

بلى . هي من املاء القوة وليست هي من املاء الفكر ، ومن اجل ذلك سميتها ظاهرة ولم اسمّها نظرية ولا فكرة ، فانها – في ابتداء امرها –

ليست نظرية بل ولا فكرة ، فان الفكرة : هي القضية التي يوحي بها العقل ، او هي كما يقول اللغويون : ما يتردد في الخاطر من معنى ، والنظرية : هي النتيجة التي يفتقر العقل في التصديق بها الى البرهان .

عرف الانسان هذه الظاهرة في عهوده الاولى ، يوم كان لا يملك الا أن يسير مع النزعات والانفعالات ، وامتدت الحال به كذلك ازمنة وعصوراً فالقوي مسيطر لأنه قوي ، والضعيف خاضع تابع لانه ضعيف .

وارتقى الانسان ، وبدأ يفكر في ما يراه من الظواهر ، ويتطلب لها تفسيرا ويتطلب لها تعليلا ، وفكر في هذه الظاهرة كما فكر في غيرها وطلب التعليل لها كما طلب التعليل لسواها ، وكان التعليل الذي وجده لها من املاء القوة ايضاً ، فقد فكر ان القوي يجب ان يكون هو الحاكم لأنه قوي يُخاف ويُرجى ، والضعيف لا يحكم نفسه ولا يدير شؤونه لأنه ضعيف لا يستطيع الحماية ، ولا يقوم بالكفاية .

وهكذا اصبحت الظاهرة فكرة ثم كانت نظرية .

وامتداداً للفكرة وفي غضون طلب الانسان التعليل لها ، ومن املاء القوة ايضاً ، نشأت نظرية الحق الالهي ، فالاله هو القوي المطلق ، والقوي من الناس يتمتع بصفة من صفات الاله وهي القوة ، واذن فهو احق بالحكم واولى بالسيطرة ، قال القوي ذلك ليضاعف به قوّته ويركز سلطانه، وقاله الضعيف ليبرر به خضوعه وطاعته .

وامتدت الفكرتان : فكرة (الحق للقوي) وفكرة (الحق الالهي) ، وسارتا متفقتين تعملان لغاية واحدة ، ثم سارتا مفترقتين تعملان لغايتين او

غايات شتى ، وامتدتا عبر التاريخ ، واتخذتا صوراً والواناً واسماءاً ، واختلفتا مع الايام ومع الاهواء حدوداً وابعاداً وآثاراً ، والهوى المتقلب الملون يمدهما بما يلزم ، ويكيفهما وفق الحاجة .

واما العقل الحصيف الواعي الحر فان حكمه في كلتا القضيتين بيّن لاخفاء فيه .

فالقوة بمجردها لا تستوجب في نظر العقل سيطرة على رقاب المخلوقين ولا تنفذاً في مقدراتهم ، والقوي العاري عن مؤهلات الحكم لا يستحق بذاته ولاية على امر ولا طاعة من احد ، والحكومة بين الناس والرعاية لشؤونهم والزعامة لصفوفهم يجب ان تقوم على اسس ثابتة من الحكمة ، وعلى نظم صالحة للرعاية ومع مؤهلات وكفاءات متوفرة في الراعي .

القوة ؟ واي حق للقوة ؟ . واية درجة من القوة هي صاحبة الحق ؟ .

فاذا حكمنا بان الحق للقوي ثم وجد من هو اقوى منه .

واذا اثبتنا حق الاقوى ثم جاءنا من هو اشد منه قوة .

واذا رأينا ان الحق للقوي ثم انهارت قوته حتى اعيي عن مقاومة الضعيف .

فهل يتذبذب الحق مع اختلاف درجات القوة صعوداً وهبوطاً ؟ ! وهل يتبدّل الحكم به مع تبدل الطوارىء نفياً واثباتاً ؟ ! .

الحق للقوة ؟ ! واي معنى تدل عليه كلمة الحق هنا ؟ وعلى اي اساس يبتني ؟ ! .

اليست الخاصة الاولى لمثل هذا الحق الذي نحاول اثباته انه يجب

الاذعان له بالارادة ؟ .

ثم اليس الخضوع للقوة من احكام الضرورة لا من احكام الاختيار؟ واحكام الضرورة تسقط بسقوط موجبها .

انها نتيجة ليست منطقية ، ولا ثابتة ، ولا صالحـــة لتدبير شؤون الانسان ولا لصون كرامته ، هكذا يقول الفكر الحصيف الواعي الحر عن الفكرة الاولى : فكرة (الحق للقوي) ، وهكذا يقول عنها الاسلام ايضاً .

فالقوة المجردة عن النّظم العلالة والمناهج القويمه والنظرات الحكيمة لابد وان تصبح مدعاة للظلم والحيف والهـــدر للحقوق والانتهاك للحرمات والمصادرة للحريات ، والاستكبار على الله والتنكر لدعوتـــه ، والتعدي عن حدوده ، وكلما تضاعفت قوتهـــا ازداد خطرها وتراكم بلاؤها ، وهي اذن جرثومة فاتكة تجب ابادتها واراحة المجتمعات منها .

هذا هو حكم الله في كتابه الكريم عليها .

وقد اقتص فيه من احاديث الامم التي اغترّت بقوة العـــدة وكثرة العدد فزاغت عن العدل وتمردت على الحق وكذبت الرسل واستوجبت من اجل ذلك التدمير وسوء المصير . اقرأ اذا شئت قوله تعالى : (فاما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق ، وقالوا: من اشد منا قوة ؟، أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو اشد منهم قوة ؟، وكانوا بآياتنا يجحدون . فارسلنا عليهم ريحاً صرصراً في ايام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة اخزى وهم لا ينصرون) (١٥ ـ ١٦ : فصلت) .

وحذّر الخلف ان يتبعوا سيرة اسلافهم فتاخذهم البطشة التي اخذتهم

وحثهم ان يمشوا في مساكنهم وينظروا في تاريخهم وآثارهم ، ويتفكروا في بداياتهم ونهاياتهم فيفيدوا من ذلك عبرة ويصيبوا رشدا : (او لم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا هم اشد منهم قوة وآثاراً في الارض فاخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق . ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فاخذهم الله ان الله قوي شديد العقاب) (٢١ ، ٢٢ :غافر) .

على ان الحكم الصالح القائم على النظم الصالحة لا محيد له لتثبيت قدمه وحراسة سلطانه ، وصيانة حدوده ، لا محيد له من وجود القوة المرهوبة ولا غناء له عنها .

القوة الموجَّهة التي آمنت بالمبدأ وخضعت له ودانت لمناهجه ، واستمسكت بالعدل القائم عليه ، واسلمت قيادها اليه . القوة المؤمنة بالحق المناضلة من اجله ، والقيادة السديدة التي لا يقعد بها الخور ولا تنحرف بها الأهواء .

لا محيد للحكم الصالح من اعداد هذه القوة والاستكثار منها — مهما يكن صلاح ذلك الحكم ومهما تكن ركائزه — فالمناوأة للحكم الصالح من داخل حدوده ومن خارجها امر لا مساغ لتجاهله ولابد من التفكير فيه والاعداد له ، وهيبة الحكم لا تستقر في صدور هؤلاء المناوئين الظاهرين والمستترين ، مالم يتخذ هذه الأهبة التي تحسم هراءهم وتمنع تطاولهم ، ووجود القوة بذاته يعمل اكثر من عمل تجريد السلاح ، فان الكثير من اعداء الحكم من لا يجرؤ ان يعمل او يقول الا حين يتبين ضعفاً او يجد ثغرة ، فاذا احس بقوة تساند الحكم همدت حركته وخفت صوته .

وللاسلام النصيب الأوفر الأكبر من هؤلاء المناوئين الذين ينابذونه بما هو دين ، او يحاربونه بما هو مبدأ قائم وشرع حاكم ، وقد حتم على الحكومة التي تقوم باسمه ان تعد هذه القوة المرهوبة التي تدافع عن الحق وتذب عن حدوده فقال : (واعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم . .) (٦٠ : الأنفال) .

اما الحق الالهي في موازين العقل وفي مقاييس الفطرة وفي نظرة الاسلام دين العقل والفطرة فانه أشد ضعفاً واوهن ركيزة من حق القوي، والعقل والفطرة والاسلام تحكم جميعاً باستحالته وامتناعه .

الحق الالهي ، وما منشأ هذا الحق ؟ وما حدوده ؟.

فرد بشري مخلوق من ماء مهين ، ومركب من لحم ودم وعصب ، او اسرة معينة من البشر ، لها ركائزهم وطباعهم ودوافعهم ، يحلّ فيها جوهر إلهي ، او يجري في عروقها دم إلهي ، او يتصل نسبها بسلالة إلهية فتستوجب من اجل هذه الصلة بالاله حقاً شرعياً : ان تحكم وتطاع او تملك وتُعبد ؟ .

انه وهم يحكم الفكر السليم باستحالته ، وانه افتراء يعارض صريح التوحيد ويحكم الاسلام بكفر من يعتقد به .

فقد تعالى اله الكون ومبدع موجوداته ومقدر نظمه ومحدد غاياته ومدبر حركاته وموقت آجاله ، الغني الذي لاحدّ لغناه ، العليّ الذي لا منتهى لعلوّه ، تعالى ان تكون له اجزاء وابعاض ، او يتصف بتركيب وتحلل ،

وبزيادة ونقص ، او تولّد او ولادة ، او حلول واتّحاد ، وتنزه ان تناله صفات المخلوقين ، او يشبهه احد منهم ، او يقبس بعضهم شيئاً من صفاته او يرث مغنى من معانيه ، او تكون لأحـد من الناس او من سواهم به صلة غير صلة المعلول الخاضع والعبـد المفتقر : صلة الأثر بموجده والعبد بسيده مهما ارتقى ذلك الكائن في درجات العبودية ، ومهما سبق في مضامير الطاعة .

وكيف يحل في شيء وكيف يتحد معه ، وكيف يكون له جزء أو جوهر وكيف يلد او يولد او يتحلل او يتركب ؟ ، أليس معنى ذلك انه متغير متحوّل وحادث محتاج ؟ كيف يمكن ان يعرض له بعض هذه الأوصاف وهو واجب الوجود ، الغني المطلق والكامل المطلق الذي لاحـــد لغناه ولا لكماله ، الازلي الابدي ، الذي ليست لوجوده بداءة ولا نهاية ، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احداً ؟! وقد اوضحت هذه المعاني بعض الايضاح في كتابي (رسالات السماء) وقد نشرته سلسلة منابع الثقافة الاسلامية فارجع اليه اذا طلبت المزيد .

وهكذا يستبين لك ان قضية الحق الالهي فكرة وثنية لا تتفق مـــع عقيدة التوحيد ابداً ، ولا يمكن ان يهادنها الاسلام دين التوحيد الخالص .

واود هاهنا ان اشير الى فارق كبير جـــداً بين الحق الالهي الذي حدثتك عنه وقلت لك : انه فكرة يحكم العقل باستحالتها ، ويحكم الاسلام بكفر معتقدها وبين الحكم الالهي هذا الذي يرتكز عليه نظام الاسلام وتنطق به آيات القرآن .

فالحق الالهي كما راينا دعوى كاذبة مستحيلة يتعلق بها متنفذ من البشر

يثبت بها قدمه ويمكّن بها لنفوذه ويجعل بها طغيانه على الناس واستعباده اياهم وظلمه حقوقهم واستبداده في شؤونهم حقاً مقدساً شرعياً .

والحكم الالهي الذي يقول به الاسلام شريعة تثبت اصولها بنصوص الكتاب وتأتي شروحها وبياناتها بثابت السنّة وبمقطوع الأدلة ، تكفل للفرد المسلم وللمجتمع المسلم وللحياة المسلمة جواب كل مسألة وحل كل مشكلة ، وفصل كل خصومة وتوجيه كل ناحية ، وفق الحكمة الدقيقة والملاحظات العميقة ووفاء الضرورات الكثيرة والحاجات المختلفة في جميع الازمنة والامكنة والبيئات والاصقاع والأجيال .

شريعة الهية ينطق بها الكتاب العزيز الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ويشرحها ما ثبت من اقوال الرسول الكريم الذي ما ضل وما غوى وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى ، واقوال خلفائه من اهل البيت الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم من الذنب.

شريعة معصومة تقوم دعوتها على التفهم الكامل لرسالتها والاقتناع الكامل بحججها والايمان الواعي الحر بصدقها .

هذا هو الحكم الالهي الذي يجب اتباعه وتطبيقه في دين الاسلام في كل شعبة من شعب الحكم وفي كل حقل من حقول الاجتماع وفي كل شأن من شؤون الحياة ، ولا يعذر فرد مسلم ولا مجتمع مسلم ولا حكومة مسلمة في مخالفته والاستبدال به او التهاون في امره : (افحكم الجاهلية يبغون ومن احسن من الله حكماً لقوم يوقنون) (٥٠ : المائدة) (ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم . . . .) . (٤٤ ، ٤٥ : المائدة) :

اما الولي العام او الخاص الذي يتولى تطبيق هذا الحكم الالهي في امور الدولة الاسلامية وفي شؤون الرعية المسلمة فهو الفرد المسلم الكامل في اسلامه.

الفرد المسلم الذي يأخذ نفسه بتطبيق شريعة الله تطبيقاً كاملاً في كل ما يقول وما يعمل وما يأخذ وما يدع ، بحيث لايميل به هوىً ولا تنحرف به غاية .

هو الامام المعصوم الثابت الامامة والعصمة . . . . ، ثم من بعده الفقيه العادل الثابت الفقه والعدالة .

وميزة هذا الفرد الكامل الاسلام انما هي بتمثل دين الله فيه اصدق التمثيل ،واحترامه ووجوب طاعته على الرعيـة مأخوذان من احترام القانون الالهي الذي يمثله ووجوب طاعة الله الذي يحمل عهده ويتولى تنفيذ ارادته واداء امانته .

هذا هو الفارق بين المفهومين اسوقه هاهنا حذراً من الالتباس .

ولدي : لقد طال الحديث وطال ، وانـا اروم - جهدي - تقليل الخطى ،ولكن ماذا اصنع وانت تطلب التفصيل ؟ لقد طال الحديث وامتد ولم اتناول الى الآن المقطع الثالث من سؤالك الأول ، فهل تسمح لي ان اقف معك عند هذا الحد ، حذراً من ان اكلف رسالتي مالا تستطيع ، وان ابتدىء الحديث عن العقد الاجتماعي في رسالة ثانية ان شاء الله تعالى.

نظرية العقد الاجتماعي . اسس النظرية عند (جـان جاك روسو) . ملخصها . شروطها . النظرية عند (توماس هوبز) . عند (جون لوك) . نقدها وقولة الاسلام فيها .

١٦

الكوت . ١٤ رمضان سنة ١٣٨٤ .

ولدي العزيز الأديب المهذب .... دام توفيقه :

اقدم لك ولجميع الاخوان والأبناء المتبعين هدى الله المستضيئين باشعة قرآنه اوفر التحية وازكى السلام واسأل الله ان يظلكم بواسع رحمته وسابغ بركته ويخصكم بكرائم منحه ومزيد توفيقه . واهنئكم جميعـاً بقدوم شهر رمضان المبارك جعلنا الله واياكم من اهله وبوأنا مقامات الصالحين ببركته .

ولدي . . . : لقد طال عليك الأمد وانت ترتقب رسالتي الثانيـة تحمل جواب سؤالك الثالث ، وماذا اصنع انا فهذا هو حكم وفرة الأعمال وشدة المضايقات ،وقد حدثتك عنها في رسالتي الاولى التي ارسلتهااليك بيد احد اصدقائك (. . . . .) وارجو ان تكون وصلت اليك في حينها وملأت فراغاً كنت قد لمحت اليه في رسالتك .

كان سؤالك الثالث ، او – بالاحرى – كان المقطع الثالث من سؤالك الأول عن العقد الاجتماعي في رأي الاسلام .

والعقد الاجتماعي نظرية عرف بها الفيلسوف الفرنسي (چان چاك روسّو) المتولد سنة ١٧١٢ والمتوفى سنة ١٧٧٨ .

عرف بها هذا الفيلسوف واشتهر وان لم يكن هو الواضع الأول لخطوطها فقد ذهب اليها من قبله الفيلسوفان البريطانيان (جون لوك) المتولد سنة ١٦٣٢. والمتوفى سنة ١٧٠٤ ، و (توماس هوبز) المتولد سنة ١٥٨٩ والمتوفى سنة ١٦٧٩ على فارق بين آرائهم في وجه هذه النظرية وفي نتائجها ولعلي اشير الى هذا الفارق في ما بعد .

عرف بها (روسو) واشتهر ، ووضع فيها كتابه المعروف (العقد الاجتماعي) ، واقوى سبب لاشتهاره هو قيام الثورة الفرنسية الكبرى على اسس نظريته تلك واتخاذ كتابه (العقد الاجتماعي) انجيلاً للثورة على ما يقول المؤرخون ، ثم نجاح الثورة في تحقيق أهدافها وامتدادها الى دول واقطار كثيرة اخرى .

قامت الثورة في فرنسا بعد موت الفيلسوف باحد عشر عاماً وبعد ظهور كتابه الآنف الذكر بثمانية وعشرين عاماً فاحيت ذكر الفيلسوف وترسمت اهداف الكتاب ، ودعت الى الحكم الديمقراطي الجمهوري على النحو الذي دعا اليه ، وكان اقتران اسمه بهذه الحوادث التاريخية المهمة والنتائج التي ترتبت عليها ، كان ذلك سبباً لاشتهاره ومعرفته بالنظرية المشار اليها.

اما الفيلسوفان الانجليزان (لوك) و (هوبز) فلم يتسن لهما ما تسنى

لزميلها الفرنسي فبقي ذكرهما مع الفلاسفه الكثيرين الذين لم يتألق لهم نجم في الحياة العامة .

والاسس التي تقوم عليها نظرية العقـــد الاجتماعي – على ما يذهب اليه الفيلسوف الفرنسي – هي :

١ – ان الناس كلهم يولدون احراراً فليس لاي انسان سلطان طبيعي على انسان آخر سواء أكان فرداً ام شعباً .

٢ – وليس للاسترقاق وجه شرعي يسوّغ وجوده كذلك ، سواء أتعلق بالافراد ام بالشعوب .

٣ – وليس للقوي (او الأقوى) حق طبيعي ولا ادبي يفرض له الطاعة في رقاب الآخرين .

٤ – واذن فالاساس الصحيح للدولة ولكل سلطان شرعي يكون بين الناس انما هو العهد الاختياري الذي يقع في ما بينهم .

وملخص النظريـة ذاتها : ان الطبيعة قد زوّدت كل فرد من الناس بقسط من القوة يحفظ لنفسه البقاء ، وقسطه هذا من القوة محدود ، وهو لا يملك من القوة زيادة على ما وهبته الطبيعة منها .

وهاهنا عوائق كثيرة وشديدة تضر بسلامة الافراد وتهدد بقاءهم في الحال الطبيعية وتقاوم ما لديهم من القوى التي لا يمكن بدونها البقاء .

فاذا اشتدت هذه العوائق وتغلبت على القوى الخاصة التي يملكها كل فرد فرد اصبح بقاء الناس متعذراً وكان هلاكهم محتوماً .

وليس للناس وسيلة للبقاء والتغلب على هذه المقاومات الا التكتكل .

ان يؤلفوا من القوى الفردية المنشتتة قوة كبيرة موحّدة تتحرك بمحرك واحد وتسير باتجاه واحد وتستطيع ان تتغلب على كل مقاومة .

والسبيل الى ايجاد هذه الشركة التي تحمي بقوتها شخص كل مشترك فيها وامواله وحقوقه ، مع الاحتفاظ بالحرية الكاملة لكل فرد منهم فلا يطيع الا نفسه ، السبيل الى ذلك هو العقد الاجتماعي .

وشروط العقد الاجتماعي – على ما يقوله هذا الفيلسوف – تردّ الى شرط واحد وهو : ان يبيع كل فرد من المشتركين نفسه وجميع حقوقه من المجتمع باسره بيعاً شاملاً ، وبتعبير آخر له : ان يضع كل واحد من المشتركين شخصيته وجميع قوته شركة تحت ادارة الارادة العامة ، بحيث يكون المجموع هيئة ويكون كل عضو جزءاً خفياً منها .

وهو يعقّب على ذلك بانه اذا باع كل واحد من الافراد نفسه بأسرها اصبح هذا الشرط متساوياً نحو الجميع ، واذا كان متساوياً نحو الجميع لم يكن لأحد منهم مصلحة في جعل الشرط ثقيلاً على الآخرين .

وبما ان كل واحد لا يهب نفسه لأحد بهبتها للجميع ، وبما انه لا يوجد مشترك لا يكتسب عين الحق الذي تنزل له عنه فانه يظفر بما يعدل جميع ما يفقد وبزيادة قوة لحفظ ما يكون له .

هذا هو ملخص النظرية وقد آثرت ان اقتبس في تعريفها وبيان شرائطها من عبارة الفيلسوف ذاته في كتابه (العقد الاجتماعي) تعريب الاستاذ عادل زعيتر وطبع دار المعارف بمصر .

ومؤسس نظرية العقد الاجتماعي – على ما يقول مؤرخو الفلسفة

الحديثة – هو الفيلسوف الانجليزي (توماس هوبز) والفارق بين مذهبه ومذهب (چان چاك روسّو) كبير جداً .

فقد علمنا ان (روسو) يرى ان الناس يولدون احراراً ، وان التعاقد الاجتماعي في ما بينهم انما يكون على اساس من هذه الحرية ، ومن اجل الحفاظ عليها ، ومعنى ذلك ان الدولة التي تقوم على هذا التعاقد الاجتماعي دولة ديمقراطية تديرها ارادة الشعب العامة وان للشعب حق اسقاطها اذا حادت عن سواء السبيل .

اما (هوبز) فانه يرى ان الانسان مجبور خاضع للقدر وان الشهوات والمصالح الشخصية هي المحرك للانسان وهي الحكم المتبع الذي يرجع اليه في الأخلاق والسلوك ، والنتيجة المحتومة لذلك ان يندفع الناس جميعاً كل لتحصيل رغباته وشهواته ، وان يقع التصادم بينهم من جراء ذلك ، وان يكون نظام الطبيعة نظام حرب عام من اجل البقاء ، والحق انما هو للقوة ، فالقوي هو الذي يستطيع ان يحقق مآربه بقوته وان يزيح العوائق والمعارضين عن سبيله .

ولن يأمن الناس من خطر هذا الصراع الدائم ولا يتقي الانسان عدوان اخيه الانسان الا اذا تعاقد الناس في ما بينهم تعاقداً اجتماعياً على الاذعان لسلطة هي اقوى من الجميع تمنع بعضهم من بعض ، وهذه السلطة هي الدولة ، ولذلك فيجب على الافراد ان يخضعوا للحكومة خضوعاً كاملاً وان يعدّوا ارادتها وارادة الملك الذي يرأسها اسمى من كل قانون

فالدولة عند هذا الفيلسوف هي كل شيء ، والملك هو صاحب الحق

المطلق ، لانه يمثل القوة الكبرى وهي صاحبة الحق ، ولذلك فلا دين ولا قيم ولا اخلاق الا ما تقرره الدولة ويعترف به القانون ، ولا قانون الا ما يفرضه الملك ممثل الدولة وممثل القوة ، اما الانسان العادي فلا يرجع اليه في شيء من ذلك لانه لا يعرف غير شهواته ورغباته ، وليس له ان يقول اي كلمة في شأن الدولة وفي شان الملك وفي شأن القانون وان حاد عن السبيل.

فالدولة عند (توماس هوبز) ملكية مطلقة على الضد مما يراه (روسو) .

واما (جون لوك) فانه يرى كذلك ان اساس الدولة عقد اجتماعي يتم بين الافراد لحماية اموالهم وحقوقهم ، وهو يتم على اساس من الحرية ، فالشعب هو صاحب الحق في ان يختار من يشاء لولاية أموره .

ولكنه يرى ان من الضروري لفعالية الدولة وتأدية مهمتها على ما يرام ان يتنازل الافراد لها عن بعض حرياتهم ، فالسلطة التنفيذية مثلا : (قضائية وادارية) لابد وان تكون خاضعة للحكومة وللملك الذي يرأسها وان يك ذلك في ضمن حدود معيّنة ، اما السلطة التشريعية فهي بيد ممثلي الشعب ، وهي السلطة العليا في الدولة .

وعلى اي حال ، فالملك والحكومة مقيّدان عنده بارادة الشعب وعليهما ان يحافظا على حقوق الناس ، فان هما لم يحافظا على حقوق الناس او لم يتقيدا بارادة الشعب فلا حق لهما في الحكم .

هذه هي خلاصة الآراء في نظرية العقد الاجتماعي وهذه هي مراحل نشوئها ونموها الفلسفي ، وضعت خطوطها في صورتها البدائية في مذهب

(هوبز) وارتقت وتبيّنت في مذهب (لوك) وبلغت درجة كمالها ونضوجها في مذهب (روسو) ، ولا يهمني ان اتعرض لمذاهب الفلاسفة الذين تبنوا النظرية بعد (روسو) كما لا يهمني ان انقد النظرية كما يراها (توماس هوبز) فان هذا مذهب يكفي تصوره في اثبات فساده .

* * *

والملحوظ جلياً ان هؤلاء الفلاسفة واتباعهم انما اعتبروا العقد الاجتماعي اساساً للدولة لما لم يكن للدولة – في آرائهم – اساس سواه ، ولما كانت الحرية المطلقة التي لا تعرف الحدود هي الأصل عندهم في الانسان ، فليس عليه ان يتقيد بشيء ، ولا يجب ان يخضع لاحد ، فاذا تزاحمت الحريات ، واذا قامت في سبيلها المعوقات ، كان على البشر ان يتجمعوا لصد العوادي ، وضمان الحريات ، وكان عليهم ان يقيموا اجتماعهم على عهد وثيق متبادل يفي لهم بالغاية ويحقق لهم المساواة فيها .

والحرية هي الاصل الذي يقرره الاسلام للبشر ولكن في حدودها الصحيحة المعقولة ، بحيث لا تجمح الى الفوضى ، ولا تنخفض الى العبودية ، والحرية متى طغت على حدودها المتزنة انقلبت عبودية خالصة ، وان سميت حرية في معاجم الشهوات ! .

وقد لخصت الحديث عن الحرية في موازين الفطرة وفي رأي الاسلام في البحث الثامن من كتاب (العفاف بين السلب والايجاب) فارجع اليه اذا طلبت المزيد .

وواضح ان الحرية التي نتحدث عنها والتي قررها الاسلام ـ كما قلنا ـ

وناط بها تعاليمه وبنى عليها المساواة الكاملة بين افراده ، انما هي حرية البشر بالاضافة الى بعضهم بعض ، وهي التي لاحظها الفلاسفةوالمشرعون لما بحثوا في حقوق الأنسان وراموا تحديد واجباته .

ولكن الأمر الذي لا يسوغ ان يتغافل عنه هو ان لهذا الانسان صلة كبرى هي فوق صلاته جميعاً واقواها جميعاً واعمقها جميعاً وهي اسبقها جميعاً وابقاها جميعاً، بل وهي المبدأ الذي تتفرع عليه وتستمد منه كل صلة، ويقوم عليه كل حق ويرجع اليه كل واجب ، وتلك هي صلة الانسان بخالقه ورازقه ومقدره ومدبره .

وقوام هذه الصلة هي العلّية من احد الجانبين والمعلولية من الجانب الآخر .

هي الربوبية القاهرة من جانبها الاعلى والعبودية الخاضعة من جانبها الأدنى ، وكل خير وجده ابن آدم او يجده في حياتهاو هو يرجو نيله فيمابعد هذه الحياة فانما هو اثر من وجود هذه الصلة وفيض من برّهـا : (وما بكم من نعمة فمن الله ثم اذا مسّكم الضر فاليه تجأرون) (٥٣ : النحل).

وصلته بالناس الآخرين - حتى بأقربهم منه دماً وامسّهم منه رحما - انما هي صلة النظير بالنظير والند للند ، فهي لا تحدث من حاجة ذاتية في احد الطرفين ، ومن اجـل ذلك كان الناس احراراً في ما بينهم بعضهم بالاضافة الى بعض ، فلا سيطرة لاحد على احد .

والجميع مشتركون متساوون في العبودية لله والتعلق به والفقر اليه .

(يأأيها الناس انتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد) (١٥:فاطر)

ومن اجل ذلك كان الناس متساوين في الحقوق والواجبات في شريعة الله ، متساوين في المنزلة امام عـــدل الله ، متساوين في الفرص التي تؤهلهم للمقامات الكريمة في قانون الله ، ثم في عادل جزائه وموفور عطائه .

ومن لوازم تلك الصلة الذاتية الطبيعية الثابتة الدائمة التي تصل الانسان بربه وتعلقه بتدبيره ، ومن مظاهر العبودية الخالصة الثابتـــة له : ان يفرده بالخضوع والعبادة فلا يخضع لموجود سواه : (قل اغير الله ابغي رباً وهو رب كل شيء ؟) (١٦٤ : الانعام) .

وان يتخذ من ارادة الله التي انزلها في كتبه واوضحها على ألسنـــة رساه منهجاً للعمل ونظاماً للحياة : (. . له ما في السماوات والارض وله الدين واصباً افغير الله تتقون ؟) (٥٢ : النحل) .

وان ينظر في صلاته بالناس وبالموجودات كافة على ضوء ذلك النظام الالهي الرشيد ، فيتوجه بها الى حيث اراد الله وينصرف بها عما نهى ويقيمها على الأسس التي وضع : (. . . انما يتذكر اولو الالباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما امر الله به ان يوصـــل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) . (١٩ ـ ٢١ : الرعد) .

ومن لوازم صلة الانسان بربه ومن مظاهر عبوديته الخاصة به الخالصة له ان يخضع لحكم الله وحده ، ويعمل ما استطاع لاعلاء كلمته في الناس وتعميم حكمه على الأرض ، فلا حكم الالله ولا سلطان الا سلطانه ولا نظام الا نظامه : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم ...) (٤٤ ـ ٤٥ : المائدة) ، ان يعمل لذلك ما استطاع العمل ويدعو اليه ما امكنته الدعوة ويدل عليه

ما وسعته الدلالة .

هذا هو اساس الدولة في الاسلام ، انه يقوم على الصلة الذاتية العميقة التي تعقد الانسان بربه وتخضعه لامره وتنيطه بتدبيره .

والخضوع لله في هذا المجال يتمثل بالخضوع لحكم الله الذي تأخذ به الدولة في كل ناحية من نواحي الحكم ، ونظام الله الذي تطبقه في كل حقل من حقول الحياة ، والدولة اذا لم تمثل حكم الله ولم تنتهج هداه فلا حق لها في طاعة على احد ابداً ، وقولة الله في هدمها صريحة قبل قول الأمة .

هذه هي ركيزة الدولة وهذا هو اساسها الذي تقوم عليه في راي الاسلام.

اما التعاقد الاجتماعي فيأتي دوره بعد ذلك ، وجدواه شد اعضاء المجتمع بالدولة في ظل شريعة الله ، ومن مظاهر هذا التعاقد الاسلامي البيعة التي يؤديها المسلمون لرئيس الدولة ، وقد ذكر القرآن الكريم بيعة المسلمين للرسول (ص) وعرّفهم عظم خطرها واكّد عليهم وجوب الوفاء بها : (ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ، يد الله فوق ايديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن اوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه اجراً عظيما) . (١٠ : الفتح) .

اما الفلاسفة الذين قالوا بالعقد الاجتماعي وحتى من اعترف منهم بوجود اله الكون ، فانهم لا يعرفون صلة الانسان به على النحو الذي شرحه الاسلام ، ومن اجل ذلك كان العقد الاجتماعي بين الافراد في آرائهم هو الاساس الفريد لبناء الدولة ولا اساس سواه .

ولدي . .

هذه هي خلاصة الآراء في نظرية العقد الاجتماعي وهذه نظرة الاسلام فيها ، وارجو ان يكون حديثي كافياً في ايضاح ذلك وان كان موجزاً ، ومن الله سبحانه اسأل لي ولكم دوام التوفيق وحسن الرعاية ، وتقبلوا خالص تحياتي لكم ولمن يعز عليكم في مطلع الحديث وفي ختامه .

هذه ثمار ماغرسناه . حوار السائل مع زميل مسيحي حول الاسلام . الحوار المحترم . خطوط وآداب الحوار . بعض ما في الكتاب المسيحي المقدس من التناقض . بعض مافيه من منافيات العقيدة الصحيحة . البشارة بمحمد في الإنجيل .

١٧

بغداد - كلية الصيدلة . ١ رجب سنة ١٣٨٥ .

الشاب الزكي النجيب . . . . حفظه الله ووفقه .

السّلام عليكمَ ورحمة الله وبركاته .

اهديك جميل التحية وجزيل التسليم وبالغ الاعجاب وطيب الثناء ، ومن الله سبحانه استمد لك نظرة حافظة ولطفاً عاصماً يكلآن لك هـــذا القبس الهادي الذي ينير فؤادك وهذا الروح الحي الذي يخفق به قلبك ، وتوفيقاً شاملاً يسدد منك الخطى ويأخذ بيدك الى التي هي ارضى .

قرأت رسالتك واطلعت فيها على الوصف العام الجامع الذي وصفت به مجتمعك في كلية الصيدلة : المجتمع المختلط من شتّى الأديان والألوان ، واللهجات والعادات ، وقد آسفك ان الدين الاسلامي في هذا الوسط يتمثل

بفريق من شباب الجيل لا يجهلون شيئاً كجهلهم بدينهم ، ولا يولعون بامر كما يولعون بمخالفة احكامه ، وساءك ان هذا الدين العظيم يتّهم من أبناء الاديان الأخرى بشتى الاتهامات ويجترأ على كرامته بمختلف الأقاويل ، ثم لا يجد من يدافع عنه ، او يحسن الدفاع عنه !.

وهذه بعض ثمار ما غرسناه نحن بايدينا ، لم نظلم منه شيئاً ولم نبخس منه ثمناً ، انها ثمار ما غرسناه بايدينا نحن المسلمين ، ومن يجن الجناية ثم يحاول انكارها فانما يرتكب جريمتين .

انها ثمار غرسنا نحن لما اهملنا ابناءنا فلم نجهـد ان نعرفهم دين الله ونفقّههم معارفه ونصلهم بطاقاته ، ولما اغفلنا مدارسنا فلم نضمّن مناهجها ما يعرّف النشء بربه ويبصّره بدينه وما يزوده بالايمان القوي البنّاء .

وسواءاً اكنا معذورين في هذا الصنع ام غير معذورين فان النتائج الطبيعية لذلك تنساق وتتتابع رضينا نحن بها ام أبينـا . والله وحده هو الرحمان المستعان .

ولكن : كان المؤمل في الشاب المتعلم : (اي شاب ، واي علم) وخصوصاً اذا كان في وسط ثقافي محترم ككلية الصيدلة ، كان المؤمل في هذا الشاب المثقف المتعلم ان يكون ابعد الناس من ان يتهم بغير حق او يقول بغير بينة ، والمرتقب من امثاله ان يبحث ليعلم ، وان ينقد ـ اذا شاء ـ عن علم .

ولكنها رواسب النفوس تحول دون الدراسات الموضوعية ، وخصوصاً في ما يتعلق بامر الدين ، فهل نصل الى الغاية التي يرتفع فيها مثقفونا عن

هذه المباءات ؟! .

انني لآمل ان يصل ذلك اليوم وانه جد قريب ، والثقافة الصحيحة الواعية هي الكفيلة بازالة هذه الرواسب والعوائق .

وذكرت انك دخلت في حوار مع اعزّ اصدقائك في الكلية حول دين الاسلام ، وصديقك هذا شاب مسيحي الدين ، وانت تطلب التوجيه في هذا الحوار .

وانا ارجو ان يكون حديثكما حديثاً شيّقاً مباركاً ما دام ناشئاً في ظل الحب والاخوة الصادقة العميقة بينكما ، وما دام موضوع الحوار هو دين الاسلام : دين الفطرة القويمة والخلق الرشيد السديد : دين الله العظيم .

وأربأ بكما معاً ما دمتما مثقفين صحيحي الثقافة ، وما دمتما صديقين حميمين ، يحب كل واحد منكما سعادة اخيه ويتمنى له الخير . أربأبكما ان تتأثرا برواسب او تنقادا لعاطفة او هوىً ، فان نفسيكما اسمى من ذلك وان غايتكما اعظم .

ابحثا بحثاً موضوعياً يليق بكما ، وتناقشا نقاشاً هادئاً حراً ، وحكّما الفكر السليم والمنطق الصحيح . والله كفيل لكما بالوصول الى الغاية المحمودة .

والحق يابني جلي النور واضح المعالم والسّمات ، والداعية الى الحق لابد له من الأناة والمصابرة في دعوته وفي اقامة حجته ولابد له من الاخلاص في النصيحة لله والنصيحة للمدعو ، وبعد هذا فالله نصيره ومعينه ولا ريب: (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز) . (٤٠ : الحج)ولست ببعيد عن هذه الصفات ان شاء الله كما اتوسم فيك .

والبحث عن دين الاسلام بحثاً مقطوعاً مقتضباً ضمن موقف واحد أو موقفين ، لست ارى لك فيه كبير فائدة ، وقد لا يقتنع به صديقك وان تفننت له في صوغ الادلة واقامة الشواهد .

ومن اجل ذلك ارغب ان يكون الحديث بينكما متأصلاً متسلسلاً ، فانه أدعى للتأمل والتفكير وايسر للاقتناع ، وما ضر الحديث في ذلك ان يتشعب قليلاً اذا كنت اديباً في الحديث لبقاً فيه ملماً بأطرافه .

اما الادب واللباقة في الحديث فهما وصفان ارجو ان يكونا متوفرين فيك ايها العزيز واما الالمام بأطرافه فسيتحقق لك بعون الله اذا رجعت الى المصادر التي سأذكرها لك .

واود ان تكون بداية حواركما بالتحدث عن اصل الدين :

هل الدين ضروري للانسان ، وما سبب هذه الضرورة التي حتمته على الانسان وحرمت ان يعيش مهملاً بلا دين ؟ .

واقرأ كتابي (رسالات السماء) ففيه بحوث مختصرة مجدية في ذلك ، وباستطاعتك ان تقرأ فصل : (الدين في ينابيعه الاولى) من كتاب : (الاسلام : ينابيعه . مناهجه . غاياته) . اذا كنت تطلب مزيداً من الايضاح والتفصيل .

أود ان تفتتح حديثكما بهذه الناحية من البحث ، وإحدى فوائد هذه الرغبة ان يقتنع صديقك بان الدين ضرورة فيهتم بالحديث وينبعث الى الجد فيه ، فالأمر امر نجاة وهلكة ، وامر ضرورة لا مسد لها ولا غناء عنها ، والعاقل المتبصر لا يتسامح فيه ابداً .

وبعد ان تستوفي الغاية من هذه المرحلة ، وبعد ان يقتنــع صديقك بأن الدين ضرورة لابد منها للانسان ، فلينتقــل الحديث الى البحث حول (الكتاب المقدس) : الكتاب الذي ترتكز عليــه المسيحية القائمة بشتى فرقها ومذاهبها وتؤمن به وتقول انه من وحي السماء .

واحب لك في هذه المرحلة ان تكون هادئاً متزناً في النقد ، يقظاً لكل كلمة تقولها .

احب هذا لك دائماً ، وفي هذه المرحلة من حديثكما على الخصوص ، لئلا تثير صديقك العزيز عليك فان الموضوع حسّاس .

ان تكون هادئاً ما وسعك الهدوء والاتزان بحيث لا تقصد في نقدك انتقاصاً ولا تبكيتاً ، وانمــا تروم استيضاح الحق والبحث عنه والتفاهم حوله ، والحوار بين النقاد المنصفين انما تكون له قيمته وجدواه اذا ارتكز على تبادل الاحترام بين المتحاورين ، ومن اجل هذا سميته حواراً ولم اسمّه جدالاً ، والقرآن الكريم حين سماه جــدالاً اشترط ان يكون بالتي هي احسن فقال : (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنــة وجادلهم بالتي هي احسن) . (١٢٥ : النحل) هذه آداب الاسلام ايها العزيز ، وعلى الداعية الى الله ان يتحلى بها ، وما انت عنها ببعيد .

قلت : وبعد ان يقتنع صديقك بان الدين ضرورة لابد منها للانسان لينتقل الحديث الى البحث عن هذه المجموعة من الاسفار الموجودة بايدي المسيحيين : اهي صحيحة النسبة الى وحي الله كما يقول المسيحيون ؟ .

اذن فما بالها تتناقض نصوصها وتتضارب ؟ وهل يمكن ان يقع تناقض

في وحي الله ؟! .

ومن أمثلة التناقض فيها انها تقول : (لتعلم ان الرب هو الاله ، ليس آخر سواه) انظر ٣٥ : الاصحاح الرابع : سفر التثنية ، وتقول : (وردّد في قلبك ان الرب هو الاله في السماء من فوق وعلى الأرض من اسفل) ، انظر ٣٩ من المصدر ذاته . وانظر الاصحاح الثاني والثلاثين من سفر التثنية . ومواضع كثيرة اخرى ، ثم تقول هي لموسى في شأن اخيه هارون: (وهو يكلم الشعب عنك ، وهو يكون لك فماً وانت تكون له إلهاً) انظر ١٦ : الاصحاح الرابع : سفر الخروج ، وتقول في الاصحاح السابع من سفر الخروج : (فقال الرب لموسى انظر انا جعلتك الهاً لفرعون وهارون اخوك يكون نبيك) ، فهي تقول بالتوحيد في فقراتها الاولى وبتعدد الآلهة في فقراتها الأخيرة .

ومن امثلة التناقض فيها انها تقول : (الله لم يره احد قط . الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر) انظر ١٨ من الاصحاح الأول: انجيل يوحنا . ثم تقول : (ثم صعد موسى وهرون وناداب وابيهو وسبعون من شيوخ اسرائيل ورأوا إله اسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة ، ولكنه لم يمد يده الى اشراف بني اسرائيل ، فرأوا الله واكلوا وشربوا) . انظر ٩ ـ ١١ : الاصحاح الرابع والعشرين : سفر الخروج . وتقول عن أشعيا انه رآه في سنة وفاة عزّيا الملك (جالساً على كرسي عال ومرتفع واذياله تملأ الهيكل) انظر ١ من الاصحاح السادس : سفر اشعيا ، وقد رآه حزقيال بن بوزي في موكب إلهي

عظيم أطنب في وصفه ، انظر الاصحاح الاول بكامله من سفر حزقيال .

ومن الامثلة على التناقض فيها انها تقول : (احكام الرب حق عادلة كلها) انظر ٩ : المزمور التاسع عشر من المزامير ، وتقول : (اني باسم الرب انادي . . . . . ان جميع سبله عدل) أنظر ٤ : الاصحاح الثاني والثلاثين : سفر التثنية ، ثم تقول : (انا الرب إلهك اله غيور أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضيّ) انظر ٥ : الاصحاح العشرين : سفر الخروج . وتذكر في ما انزل الله من الاحكام على بني اسرائيل ، انه امرهم ان يحاربوا اعداءهم حرب ابادة ، فتقول : (و أما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما : بل تحرمها تحريماً (اي تبيدهـــا ابادة) الحثيين والاموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين كما امرك الرب الهك) انظر ١٦ ، ١٧ : الاصحاح العشرين : سفر التثنية ، نعم وكذلك صنعوا (وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف) انظر ٢١ : الاصحاح السادس : سفر يشوع ، واقرأ هذا السفر كله لتعرف مبلـــغ القسوة التي ابادت مئات الالوف من الاطفال . وتقول ان ذلك بامر الله وبوحي منه .

الى امثلة كثيرة جداً من هذه المتناقضات .

وما بالها تصف الإله العظيم بصفات يجب تنزيهه عنها . فهو — في تصورها — يعجز من العمل فيفتقر الى الراحة . ويجهل موضع آدم بين شجر الجنة فيناديه : اين انت ؟ ، ويجهل ان آدم أكل من الشجرة حتى يسأله ، ويخشى من آدم ان ياكل من شجرة الخلود فيشاركه في استمرار الحيـاة ،

كما أكل من شجرة المعرفة فشاركه في معرفة الحسن والقبيح ويكون إلهاً مثله . فيطرده من الجنة . والقصة بكاملها مذكورة في الاصحاح الثاني والثالث من سفر التكوين ، فاقرأها اذا شئت ولم اذكرها هنا لان النص طويل

وقد تصارع مع يعقوب ليلة كاملة فلم يقدر على يعقوب ولم يستطع ان يتخلص من قبضته حتى اضطر الرب ان يضرب حق فخذ يعقوب فيخلعه ، ويعقوب ممسك بربه لا يدعه ولم يطلقه حتى انتزع منه البركة انتزاعاً (ولقّبه اسرائيل) انظر ٢٤ - ٢٩ : الاصحاح الثاني والثلاثين : سفر التكوين .

وهذا غير الاوصاف الشائنة التي تصف بها الانبياء ، وعدى النسب غير المؤدّبة التي تنسبها الى قدس السيد المسيح ، نعم . الى السيد المسيح بالذات ، وسوى الاعمال المنكرة التي تعزوها الى تلاميذ المسيح ، واذا رغبت في تعيين هذه المواضع من الكتاب المقدس فيمكنك ان تعرّفني برغبتك.

وبكلمة موجزة ، يمكنك ان تستعرض نسخة كاملة من الكتاب المقدس وتقرأه مع صديقك قراءة هادئة مشتركة مستقصية ، وتقفا على كل فقرة فقرة من كل اصحاح وتتفهما معانيه حتى تستيقن أنت ويستيقن صديقك معك : ان مثل هذا الكتاب لا يمكن ان يكون من وحي السماء : لوفرة ما يحتويه من الاوهام التي لا يتقبلها فكر سليم .

وبعد هاتين المرحلتين من البحث توجّها في حواركما نحو الاسلام ونبي الاسلام وكتاب الاسلام ، وليذكر صديقك نقوده واذكر انت بدورك ادلتك وموجهاتك واذا شئت فعرّفني عما تحتاج اليه في هذه المرحلة من

الادلّة وعما يديه صاحبك من النقود ، وان كنتُ كثير المشاغل متزاحم الواجبات والله ولي التوفيق :

هذا هو السبيل المجدي في اتجاه حديثكما وان كان طويلا ، وارجو لكما التوفيق في سلوكه .

وسألت عن قولة المسيح : (ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه احمد) أهي مذكورة في الاناجيل الموجودة ؟ وفي اي انجيل توجد ؟ وما موقعها ؟.

ولدي : نعم ، وردت هذه البشارة في انجيل يوحنا وقد ذكرت منه في موضعين : في الفقرة ٢٦ من الاصحاح الخامس عشر ، وفي الفقرة ٧ - ١٥ من الاصحاح السادس عشر .

ولفظه في الاصل اليوناني للانجيل : (پيركلوطوس) وتعريبه (فيرقلوط) بمعنى احمد او محمد .

ويصححه بعض النصارى (پيراكلي طوس) ويلفظون به مخففاً : (فارقليط) .

وقد ذكر هذا في الترجمة المطبوعة في لندن سنة ١٨٢١ و سنة ١٨٣١ و سنة ١٨٤١ .

وذكر كذلك في مطبوعة وليم واطس في لندن سنة ١٨٥٧ على نسخة رومية المطبوعة سنة ١٦٦٤ .

وذكر في الترجمة العبرانية للاصل اليوناني المطبوعة سنة ١٩٠١ .

ولكن التراجم العربية الموجودة بالأيدي ابدلته بلفظ المعزّي وبعضها أبدله بلفظ المسلّي ، فهل تعجب لهذه الامانة التي يؤدّون بها كتب الوحي ؟!.

وموقع العجب ان الأصل اليوناني والتراجم المشار اليها موجودة ميسورة لمن يريد البحث والاطلاع .

ودع حديث انجيل برنابا فان البشارة مذكورة فيه باللفظ الصريح : (محمد رسول الله) .

واقول : دع حديث هذا الانجيل : فان المسيحية الموجودة لا تعترف به بعد ان حرّمه البابا جلاسيوس الأول او جلاسيوس الثاني ، على اختلاف بين المؤرخين .

وختاماً ارجو لك التوفيق الدائم والنعمة الموفورة ، ولك ولمن يعز عليك وافر تحياتي .

امانة مفروضة . القول بالجبر . القول بالتفويض . كلاهما انحراف عن النهـج القويم . الجواب عن بعض الآيات المتشابهة . حوار السائل مع زميل صابىي . توجيهات في هذا الحوار .

١٨

بغداد - كلية الطب البيطري . ٥ رمضان المبارك سنة ١٣٨٥ :

حضرة الشاب المهذب : . . . دام توفيقه :

تحية مباركة وسلاماً كثيراً ودعاء جزيلا ان يثبتك الله على الحق ويجعلك من دعاته ورعاته ، ويوفقك لاداء امانتـه التي طوّق بها عنق كل مسلم ، وميثاقه الذي اخذه على كل مؤمن ، ان يكون من الدعاة الى الله والادلاّء على دينه والمرشدين الى منهجه ، وان لا يألو جهداً في ابتغاء الخير للناس والسعي لنجاتهم ، ودلالتهم على مشارق النور ومصادر الهدى .

نعم ايها العزيز ، انها امانة مفروضة وعهد مأخوذ على كل مؤمن ، لابد من أدائها ولابد من العمل للوفاء بها ، ولا معذرة لأحد في التقصير او التسامح فيها ، وقد كررت ذكر هذا كثيراً في شتى المناسبات وخصوصاً في اجوبتي

لرسائل الشباب النجباء والله سبحانه هو الموفق لأداء هذه الأمانة ، وهو المعين على القيام بواجبها .

وصلتني رسالتك واطّلعت فيهـا على قبس نيّر مضيء ارجو من الله ان يبقيه لك ويمد لك في اشعاعه وينير سبيلك به ويوجـه جميع مواهبك وطاقاتك لنصرته والحفاظ عليه .

اطلعت على قوة من الايمان توجهك لأن تسأل ، وتبعثك لان تدعو وتنير السبيل للآخرين من زملائك واصدقائك ، والشعور بالمسؤولية - ايها العزيز - اوّل العوامل التي تدفع بالمؤمن لاداء واجبه تجاه ربه وتجاه دينه وتجاه ضميره .

وقد سألت اولا عن بعض الآيات المتشابهة التي يستند اليها القائلون بان الانسان مجبر على ما يعمل ، وانه لا يؤمن ولا يكفر ولا يصلح ولا يفسق ولا يعمل خيراً او شراً ولا يترك ، لا يصنع شيئـاً من ذلك الا بمشيئة من الله وارادة تسيّره الى الوجهة التي تريد .

فالانسان — على ما يرون — مجبور مقسور لاخـيرة له في اعماله ، وقد ذهب الى هـذا الرأي بعض فرق المسلمين ، واستدلوا لإثبات رأيهم هذا بالآيات التي سألت عنها .

وذهب فريق آخر من المسلمين الى القول بالتفويض ، الى القول بان الانسان حر مختار كامل الحرية والاختيار في جميع اعماله ، ولا سلطان لأحد غيره على ارادته وفعله ، لا سلطان لأي احد عليه حتى لله الذي خلقه وقدّره ودبّره بعد ان لم يكن شيئاً مذكوراً .

والأئمة المعصومون من اهل البيت عليهم السلام وشيعتهم جميعاً في .

ركابهم يجدون في كلا هذين القولين انحرافاً عن النهج القويم في الاسلام ، فالله سبحانه هو خالق هذا الانسان ومقدّره ومدبّره ، وخالق قواه وطاقاته وممّدها وموجهها ، وهو واهب القدرة له على الفعل والترك ومهيء الاسباب ، ولو لا هذا المدد المتصل من الله لم يستطع الانسان ان يعمل شيئا بل لم يكن بذاته شيئا .

هذه ناحية .

وناحية اخرى : ان الله سبحانه حكيم كامل الحكمة منزّه عن العبث والظلم ، وقد شاءت حكمته ان يجعل الانسان حراً مختاراً وان يمهّد له اسباب الاختيار ، ويهبه العقل الذي يفكر به ويزن الأمور ، وان يدلّه الدلالة الكافية على سبيل الخير وسبيل الشر ، وسبيل الهدى وسبيل الضلال ، وان يقدره على فعل الخير وتركه وعلى عمل الشر وتركه ، ثم يدع الخيرة – بعد ذلك – لإرادة الانسان يقرر بذاته مصيره ، ويوجه مسيره ، فيفوز أو يهلك باختياره (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ...) (٢٩ : الكهف) .

ولولا تلك الدلالة والاقدار من الله تعالى والمدد المتصل من فيضه سبحانه لما اهتدى المهتدي ، وهذا هو معنى قوله تعالى : (. . لمن شاء منكم ان يستقيم ، وما تشاؤون الا ان يشاء الله رب العالمين) . (٢٨ ـ ٢٩ : التكوير) ، وعلى هذا التقرير تجتمع الآيات ولا يقع بينها اي تعارض او تخالف ، فلا جبر ولا تفويض ولكن امر بين امرين .

اما قوله سبحانه : (افلم ييأس الذين آمنوا ان لو يشاء الله لهدى

الناس جميعاً) . (٣١ : الرعد) ، وما يتّسق معه من الآيات الكريمة فهي دالة على نفي الجبر ، ومعنى الآية على احد التفسيرين لها : افلم يعلم الذين آمنوا ان الله نافذ المشيئة عام القدرة ، وانه لو تعلقت مشيئتـــه بان يهدي الناس اجمعين الى الحق لهداهم كافة ولم يضلّ منهم ضال ابـــداً ، ولكن الناس على هذا يكونون مجبرين مقسورين على اتباع الهدى ، والحكمة تحتم ان يجعلوا مختارين في هداهم وضلالهم وفي اطاعتهم وعصيانهم ، فتوهب لهم القدرة وتهيـــأ لهم الفرص وتترك لهم الخيرة اينالوا باختيارهم ثواب المطيعين او جزاء العاصين .

وفي صفحة ٢٤٢ الى ٢٥٤ من كتاب (الاسلام) بحوث مفصلة في مسألة الجبر وفي عقيدة العدل ، فارجع اليها اذا احببت المزيد .

وذكرت ثانياً ان لديكم في كلية الطب البيطري بعض الزملاء الاصدقاء من الصابئة ، وانكم تتحدثون معهم عن دين الاسلام فتذكرون لهم محاسنـــه ومناهجه ومعالجته لمختلف مشكلات الحياة وانت تلتمس التوجيه في ذلك .

والحديث عن الاسلام ـ ايها العزيز ـ متسع الآفاق كثير المناحي بعيد الاغوار ، ومحاسن الاسلام لا ياتي عليها حساب،ووددت لو ذكرت لي الاتجاهات الخاصة التي سلكتموها في حديثكم لأزوّدك فيها ببعض ما يلزم ، وفي كتب الاستاذ عبد الرزاق نوفل : (الاسلام والعلم الحديث) و (القرآن والعلم الحديث) و (الله والعلم الحديث) بحوث يحسن الاطلاع عليها في هذا السبيل ، وكذلك كتاب (الاسلام والطب الحديث) للاستاذ الدكتور عبد العزيز اسماعيل .

وأرغب رغبة خاصة ان تقتني نسخة من كتاب (الاسلام) فتقرأها مع صديقك الصابىء قراءة مشتركة في اوقات فراغكما ، وتتخذان من بحوثه موضوعاً متسلسلا لحديثكما وتتنقّلان في مواضع الكتاب قليلاً قليلاً حسب رغبتكما ، وتوضح له معانيــه بحسب طاقتك ، واذا أبهم عليك شيء من مقاصد الكتاب او عسرت عليك الاجابة عن بعض مسائل صديقك ومناقشاته فلا مانع من ان تراسلني الى النجف ، او الى البصرة او البحرين اذا كنت مسافراً الى احداهما .

أرغب في ذلك ، لأن تسلسل بحوث الكتاب يريحك من عناء التفكير في اختيار المواضيع ، ويركز حديثك مع زميلك حول نقاط مهمــة من حقائق الاسلام ومحاسنه وغاياته ، ويوجه صاحبك توجيهاً موضوعياً الى تعرف الدين الحق واقامة الأدلة النيّرة على اثباته .

ولدي العزيز : والوصية الاولى والمهمة في هذا السبيل هي التزام الاخلاص: الاخلاص لله في الدعوة اليه ، والاخلاص لله في النصيحة لصديقك الذي تدعوه وتحرص على نجاته .

هذه هي العدة القوية التي لا يفتح الا بها ، ولا يبلغ الهدف المقصود بدونها ، ومبعث هذا الاخلاص هو الايمان بالله وعظم الثقة به .

والوصية الاخرى هي التزام الهدوء الذي امر به الاسلام .

الهدوء في العرض والاحتجاج وفي الاستماع والنقاش .

الهدوء الكامل الذي يكتفي بقوة الحق ومضاء الحجة وهيمنة الانصاف عن اي حدة او شدة او لجاجة .

ان القلوب لتتفاهم ايها العزيز قبل ان تتفاهم الالسنة ، فاذا عرف قلب زميلك منك الصدق والاخلاص، اصغى اليك وبادلك الحب والاخلاص، وانتفع بنصحك وسرى اليه ايمانك . و (لان يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس) كما يقول الرسول العظيم (ص) .

ومن الله سبحانه اسأل لك التوفيق والنظرة التي تسددك في الخطوات وتصونك من الهفوات ، وتحياتي لك وللمؤمنين النجباء من اخوانك ولمن يعز عليك .

حديث السائل مع زميل مسلم حول القياس . تحديد موضوع القياس . خطوط وأسانيد للبحث . مصادر . من المجدي ان ينتقل البحث الى الامامة . مصادر .

١٩

بغداد ـ كلية الطب .

ولدي العزيز الاديب ...

السلام عليك قدر شوقي اليك ورحمة الله وبركاته ، مع دعائي لك في هذه الليالي المباركة ان يمكن سبحانه لك من بلوغ هدفك ، وان يسددك في خطواتك ، وان يكفيك ما احذره عليك انه ارحم الراحمين .

التقيت بك آخر ساعة كنت فيها في النجف ، واستمعت الى مسألتك العجلى وأنا مرتبك الذهن من جرآء سفري القريب ، فقد كانت السيارة والرفقة تنتظرني ، والواقع انني لم ارغب ان اجيبك جواباً قصيراً مرتجلاعن مسألة تهتم بها .... ووعدتك ان اتحدث اليك عنها ضمن جوابي عن رسالتك السابقة وعند وصولي الى البصرة ان شاء الله .

ووصلت البصرة بعد وداع ولدي بتسع ساعات وكانت ـ والحمد لله ـ

سفرة مريحة وارجو منـــه تعالى ان يجعلها ميمونة ، وبين تراحم الحقوق والواجبات انصرفت الى رسالتك اتم الجواب عنها ، فقد كنت بدأت في تحريره قبل سفري من النجف ، ثم رأيت ان اعجل بهذه الرسالة جواباً عن مسألتك تلك ، فقد عرفت انك تود الاعجال فيها .

قلت لي : انك اتفقت مع احد زملائك من تلاميذ كلية الطب على ان تفتحا بينكما باباً لمحادثة دينية اسبوعية ، وقد اخترتما ان يكون الحوار بينكما حول موضوع القياس في الاسلام . هل يصلح ان يستنـــد اليه في استنباط احكام الشريعة ام لا يصح الاعتماد عليه ؟ وطلبت ان ارسم لك الخطوط التي ينبغي ان يجري عليها الحوار ، وان اذكر بعض المصادر التي ترجع اليها في البحث .

ومسألة القياس من مسائل علم اصول الفقه وقد اختلفت فيها اقوال علماء المسلمين ، والثابت من مذهب اهل البيت (ع) وشيعتهم عـــدم الاعتداد بالقياس ، ووافقهم على ذلك جماعة من علماء المذاهب الاخرى ، والمعروف بين العلماء الحنفية صحة الاعتماد عليه ، ويوافقهم – جزئياً او كلياً – علماء آخرون .

وللقياس انواع عديدة وقع الخلاف في اكثرها ، واشهر هذهالأقسام التي وقع فيها الخلاف : ان يثبت بالادلة المعتمدة حـــكم شرعي لموضوع معيّن محدد ، فينظر العقل في ذلك الحكم الشرعي وفي ذلك الموضوع الذي ثبت له الحكم وفي الصفات التي يتصف بها الموضوع ، حتى يميّز من بينها الصفة التي يرى انها هي العلة التي اوجبت ثبوت ذلك الحكم للموضوع .

فاذا ميز العقل الصفة الخاصة التي يرى انها علة الحكم ، ثم رأى هذه الصفة بذاتها موجودة في موضوع آخر غير الموضوع الأول ، حكم بان هذا الموضوع الثاني يشارك الموضوع الأول في الحكم لانه يشاركه في علة الحكم ، ويسمون الموضوع الاول الذي ثبت له الحكم بالدليل : (الاصل) ويسمون الموضوع الثاني الذي الحقوه به في الحكم : (الفرع) .

هذا هو القياس الذي اعتمد عليه بعض المسلمين وانكره الآخرون .

ومفتاح الحديث فيه ان يتساءل : هل يستطيع العقل البشري وهو المحدود القوة المحدود الوسائل الكثير الصوارف والمزاحمات الكثير الوجوه والاحتمالات ، هل يستطيع وهو على هذه الصفات ان ينفذ بنظرته الى واقع الأمور فيتعرف على العلة الحقيقية التي اوجبت ثبوت الحكم الشرعي لموضوعه ؟ وهل يقوى ان يتعرف على حدود تلك العلة أهي عامة ام خاصة ، ومطلقة ام مقيدة ؟ هل يستطيع ذلك ليملك بعد ان يتعرف على العلة وعلى عمومها : ان يحكم بتعدية ذلك الحكم الى اي موضوع وجدت فيه تلك العلة ؟ .

الواقع ان نظرة واحدة الى حدود العقل البشري والى وسائله المحدودة التي يدرك بها حقائق الاشياء ، والى كثرة المزاحمات والأوهام والوجوه والاهواء التي تعترض سبيله فتصده عن النظر الصحيح ، ثم عن الاستنتاج الصحيح ، اقول : ان نظرة واحدة الى هذه القيود التي تثقل العقل البشري وتمنعه عن الانطلاق ، تكفي لاقتناع الباحث بان العقل لا يستطيع التسامي الى هذا المقام ، ولو أمكنه الانفلات من هذه القيود التي تشده الى الأرض وتميل به وبحكمه مع الميول والرغبات والموثرات ، لاستطاع ان يشرّع لنفسه

وللانسانية كلها النظام العام الخالد واستغنى بذلك عن شرائع السماء .

ان العقل البشري اضعف قوة من ان يدعي لنفسه هذهالدعوى ، وقد ادرك العلم الحديث منه هذه الظاهرة فلم يعتمد على نظرياته في العلوم المادية الا اذا اثبتها الحسّ ومحصتها التجربة ودقة الملاحظة .

ان العقل البشري اضعف قوة ، بل وهو اسمى مقاماً من ان يدعي لنفسه ذلك ، لانه لا يجهل نفسه ولا حدوده الا ان يكون مغروراً ، ولا قيمة للحكم اذا استند الى الغرور .

بلى ، قد ينظر العقل في الحكم الشرعي وفي ملابساته فيحصل له الظن بعلة الحكم ، ولا قيمة لمثل هذا الظن في استنباط احكام الشريعة .

والقوانين الوضعية في الدنيا كلها لا تصحح الاعتماد في احكامها على القياس ، فاذا ثبت حكم لموضوع معين بحسب مادة من مواد القانون ، فلا يصح لأحد ان يعدّي ذلك الحكم الى موضوع آخر يشاركه في العلّة الا اذا نص عليه ذلك القانون ، وهذا ثابت لا يشك فيه من له علم باصول القانون .

اما المصادر التي يمكنك الرجوع اليها في المسألة ، فارجع اذا شئت الى مقدمة كتاب (النص والاجتهاد) للحجة المجاهد السيد عبد الحسين شرف الدين ، والمقدمة المشار اليها بقلم العلامة السيد محمد تقي الحكيم .

وفي الجزء الأول المطبوع من الكتاب القيم : (الاصول العامة للفقه المقارن) للعلامة السيد محمد تقي الحكيم بحوث مستوفية في الموضوع فلا بأس بالنظر فيه ، ولعل في كتاب (اصول الفقه) للحجة المغفور له الشيخ محمد رضا المظفر ما يحسن الاطلاع عليه في ذلك .

ولدي : وأرى من المجدي لك ولزميلك الذي تحاوره على السواء ، ما دمتما ترغبان في مثل هـذا النوع من الحديث ، وما دامت ثقافتكما ومرونتكما الفكرية تخولكما ان تبحثا هـذه الحقائق بحثاً موضوعياً بعيداً عن العواطف والضغائن ، أرى من المجدي ان ينتقل حديثكما الى مسألة الامامة في الاسلام .

الى مسألة الولاية الكبرى على شؤون الأمة ومقدراتها بعد فقد الرسول (ص) ، وما ايسر الانتقال من مسألة القياس الى هذه المسألة ! .

نعم ، فان من اعتمد على القياس في الشريعة من العلماء المسلمين انما اضطر اليه اضطراراً لقلة النصوص الصحيحة – فيما يرى– ، وعدم وفائها بالاحكام مع تجدد الحوادث ، فاضطر من اجل ذلك الى الاعتماد على القياس، والى القول بالاستحسان ، والى ولوج ابواب غيرها تيسر له استنباط الاحكام.

اما القائلون بامامة الأئمة (ع) وعصمتهم بعد جدهم الرسول (ص) فهم في نجوة من ذلك ، فان وفرة النصوص عن المعصومين (ع) وبيانها لمختلف الاحكام في مختلف الاشياء والابواب ، تغنيهم عن اللجوء الى سبل غير مأمونة ولا مضمونة .

واذن فمن المجدي ومن الميسور ان ينتقل الحوار بينكما الى حديث الامامة وحديث العصمة ما دامت الصلة بين المسألتين قريبة ، ويمكنك الرجوع في هذه الى كتاب (المراجعات) وكتاب (الفصول المهمة) لشرف الدين ، وكتاب (الامامة) للشيخ محمد مهدي الآصفي والى مباحث الامامة من كتاب (الاسلام) .

ومسألة الامامة مسألة مهمة ، فاذا وجدت من صديقك رغبــة في بحثها ، فلا بأس بان تمكّنه من قراءة كتاب (المراجعات) واذا استطعتما ان تقرآه معاً قراءة مشتركة واعية فذلك افضل وأجدى .

ومن الله أتمنى لكما التوفيق للغايـة الحميدة . وسلامي لك ولمن يعز عليك ورحمة الله وبركاته .

رسالة كتبت الى الاستاذ عبد القادر العماوي على اثر نشره لكتابه (مستقبل الاسلام) .

٢٠

مصر . ٣ جماد الثاني سنة ١٣٧٢ .

ايها الاستاذ :

احييك – على بعد الدار – تحية المسلم الصحيح والعربي الصميم .

اقول : على بعد الدار نزولا على حكم المسافات البعيدة ، التي يعدّها الناس فاصلة بين البلاد ، والمسلم من المسلم اينما حل من بقاع المعمورة ، والمؤمنون اخوة اشقاء ، ما دامت العقيدة التي تملأ قلوبهم وتوجّه اراداتهم عقيدة واحدة ، والأعمال التي توجههم الى الله وتقربهم منه اعمالا واحدة ، ومادامت روح القرآن تنفذ الى قلب كل مسلم ، ولغة القرآن تهيمن على لسان كل عربي وكل مسلم .

اخي : كم يحزّ في نفسي وفي نفس كل غيور من انصار الاسلام وابناء القرآن هذا التناحر الذي نجده بين المسلمين ، وبين الكتاب من المسلمين على الأخص . كم يحز في نفوسنا هذا التناحر حول هذه الأسماء التي

سموها فرقاً واعتبروها مذاهب ، فاضاعوا بها جوهر الاسلام ولوّثوا بها قداسة القرآن !! .

اليس من العجيب – ايها الأخ – ان يعمد الكاتب المسلم الذي يريد ان يساهم في خدمة الاسلام ، فيصور اخاه المسلم الذي يجتمع معه في اهم الروابط واقواها ، ويتحد معه في اكثر الاشياء التي توجب الوحدة .

اليس من العجيب ان يصور اخاه هذا بابشع صورة ، ويسمه باقبح سمة ؟ ! .

اليس من العجيب ان يختلق الاكاذيب اختلاقاً ليصف اخاه باشنع الصفات ، وهو لا يعلم من آراء اخيه – الخاصة به – شيئاً ، ولا يعرف من سيرته قليلا ولا كثيراً ، وكل ما يعرفه عن آرائه واقواله سخافات يتقولها مستشرقون وخيالات يتوهمها مغرضون ؟ ! .

تامل – ايها الاستاذ – فيما لو قابله اخوه بالمثل – وبيده قلم اجرى وبين جنبيه قلب أجرأ – فكال له بالصاع صاعاً وكافأه على العمل جزاءاً أخذاً بشريعة القصاص واقتداءاً بسنة العدل ، فوضع له صورة تشبه الاولى في الوضع ، وتزيد عليها في القبح ، تأمل أيها الاستاذ ماذا ياخذ الغرباء عن هاتين الصورتين من تصوير فني للاسلام بايدي ابنائه ؟ ، وتفكر فيما يجر عليه ذلك من بلاء وما يعقبه من ويلات ، ثم انظر اليست المسؤولية تقع في ذلك على المسلم الأول الذي اراد ان يساهم في خدمة الاسلام فاوقع الضربة الكبرى على رأسه ؟ ! .

تاملوا ايها الكتّاب فيما تكتبون ، وتجردوا للعقل عن العاطفة ، وسايروا

البرهان في استنتاجاتكم ثم اكتبوا بعد ذلك ما تشاؤون .

تاملوا . فان الكتابة ليست حبراً على ورق ، ولكنها تحكّم في عقول وحكم على مبادىء . ضعوا لهذا التنابز حداً . فان في الحقائق غنى عن الخيال .

كان بوسعي أيها الأخ ان أمرّ على كتابك « مستقبل الاسلام » كريماً وان اقول سلاماً ، كما علمني القرآن ان امرّ وان اقول ، ولكن حق الاسلام يلزمني ان اوقفك على ما فيه وقفة اجمالية ، اما حين يحتاج الامر الى التفصيل فاني افضّل السكوت لئلا اكون شريكاً في الجريمة .

والكتاب الذي يقول عن الشيعة الاثني عشرية : انهم يعتقدون بامام خامس وبمكرر الخامس وبامام سابع وبمكرر السابع ، والذي يعتمد في ما ينسبه الى طوائف المسلمين على كتّاب الغرب البعيدين عن روح الاسلام ، البعيدين عن معرفة مذاهبه جدير بالسكوت عن كل ما فيه .

وقد عرفت انك تشتهي ان تدخل كل شخص قيل بامامته في قائمة الأئمة الاثني عشر ، وتجعله على حساب الشيعة الاثني عشرية ، وعلى هذا القياس فكان من اللازم ان تدرج في القائمة اسماء اخرى غير زيد واسماعيل ، وكان كل واحد من الأعداد الاثني عشر يحتـــاج الى مكرر او مكررين او اكثر ! .

وبعد فقد رأيتك تتحدث عن عقيدة المهدي عند الشيعـة ، وكنت قد تحدثت « مع الدكتور احمد امين » حول هـــذه العقيدة فارسلت اليك نسخة من الكتاب للاطلاع عليها .

وختاماً اغتنموا تحياتي الطيبة لـكم ولكل اديب مسلم في مصر .

العقيدة اساس الاسلام واساس الشخصية المسلمة . الدبلوماسية .
لمحة من تاريخها . نظرة الاسلام فيها .

٢١

البصرة — كلية الاداب . ٢٨ شعبان سنة ١٣٨٦ .

حضرة الكامل المهذب العزيز ٠٠٠٠٠ دام بخير .

تحية طيبة كريمة وسلاماً وافياً وافراً لك ولزملائك وأترابك من الشباب النجباء الذين يشعرون بشعورك لدين الله ويشاطرونك حمل امانته ، ويؤمنون معك بان سعادة الدنيا لن تتحقق الا في ظلاله ، وان بسط الأمن فيها لن يكون الا بتطبيق مناهجه ، ودعائي لكم جميعاً ان ينير الله بصائركم ويسعد نفوسكم ويوفقكم للغاية التي يرضاها لكم .

عزيزي : ذكرت في رسالتك المؤرخة ٣ شعبان ١٣٨٦ صلتك بي من طريق قراءة كتبي والافادة منها ، والصلة حين تنشأ من التجاوب العميق في الدعوة الى الله ، والايمان به والعمل لرضاه ، يرجى في نمائها ونتاجها الخير الكثير الوفير ، وأسأله تعالى : ان يجعلنا اهلاً لهذا التلاقي السعيد .

ان يجعلني اهلاً للدعوة اليه والدلالة على سبيله ، ويجعلك اهــلاً للاقتباس من نوره والاتباع لهداه .

بني ... واسمح لى ما دامت بيننا هذه الصلة الوثيقة ، وما دمت تتمتع بثقافة جامعية تخولني ان أعقد عليك الأمل ، وقبــل ان أتحدث اليك في جواب مسألتك التي من اجلها حررت رسالتك ، اسمــح لي ان أوصيك واكرّر وصيتي اليك بالعقيدة ..

بالعقيدة التي يقوم ويرسو عليها بناء الاسلام ..

بالعقيدة التي يقوم ويسمو ويتأسس عليها بناء شخصية الرّجل المسلم ..

بالعقيدة بالله وبرسوله وكتابه ، بانه سبحانه المبدأ واليه المنتهى .

والعلوم الكونية التي تقرأها في الجامعة وسواها في بطون الكتب ، او تسمعها من اقوال المحاضرين وألسنة العالِمين ، والتي تحسّ آثارهاوعجائبها ملء حواسك ومداركك حين تقلّبها في هذا الكون الفسيح النظيم ، هـذه كلها براهين عقيدة الاسلام ، فلست بعدها محتاجاً الى دليل ؛ غير ان الناظر فيها يحتاج الى ذهن يعي وفكر يتدبر .

اسمح لي ان أؤكد وصيتي اليك بالعقيدة ، فانها القوة المركزية الجاذبة التي تتماسك بها شخصيتك ، فاذا ضعفت العقيــدة او عدمت اضطربت الشخصية وانتثر نظامها .

أسمعت بالنواة المركزية التي بسببها يتكون نظام الذرّة ، وتحصــل وحدتها وتترابط جزيئاتها ؛ فاذا صدعت هذه النواة تفجرت الذّرة وانتثرت الجزيئات ؟ ، ثم ارأيت أولئك الشباب الذين وهنت أو ماتت في نفوسهم العقيدة بالله ، كيف عاشوا سادرين حائرين لا اتجاه لهم ولا مرسى ؟! .

نعم ، وكما تتفجر الذرّة حين تمس نواتها وتستحيل طاقة مدمرة بعد

ان كانت وحدة سليمة تسهم في بناء الكون وتسهم في تكامله ، كذلك تتمزق شخصية الانسان حين تذهب العقيدة منه ، ويصبح طاقــة خطرة تكيد المجتمع وتشقيه ، بعد ان كانت قوة صالحة تسهم في بناء المجتمع وإسعاده .

والمسؤولية – ايها العزيز – كبيرة ومهمة جــداً ، وخصوصاً على الشباب الجامعيين الذين ستلقى على عواتقهم – عن قريب – مهمة تربية الجيل ، فلابد من الشعور الكامل بها ، ولابد من الاستعداد الكامل لها .

ولدي : وبعد هذه الكلمة العجلى التي أزجيها اليك والى أترابك من الشباب الميامين أعود الى رسالتك العزيزة والى مسألتك فيها .

سألت عن الدبلوماسية في الاسلام : ما معناهـــا ؟ ومتى نشأت ؟ وكيف تطورت ؟ .

والدبلوماسية كلمة ترجع في اشتقاقها الى أصل يوناني قديم ، شأنها شأن كثير من الكلمات اليونانية التي لا تزال تستعمل في مصطلحات الفلسفة والعلوم والسّياسة .

وكانت هذه الكلمة تطلق في ايام الامبراطورية الرومانية على الجوازات والتذاكر الرسمية التي تعطى للمسافرين ، والعابرين الذين يتجولون في انحاء الامبراطورية وفي خارجها ، والجوازات والتذاكر - على ما يقول المؤرخون - عبارة عن قطع معدنية توضع عليها علامات مخصوصــة ، ثم تطوى على هيئة مخصوصة ويسمونها ديبلوماس .

ثم اتسعت بعد ذلك الدائرة لمعنى كلمة ديبلوماس ، فاصبحت تطلق على الأوراق الرسميــة على العموم ، وعلى وثائق المعاهدات التي تقرر بين دولة

ودولة اخرى على الخصوص ، ومن هذا المعنى أخذت كلمة ريس ديبلومانيكاه واستعلمت اسماً لوظيفة الكاتب الفني الذي يتولّى رعاية هــذه الأوراق وضبطها وتصنيفها وحفظها .

وفي القرن الثامن عشر للميلاد بدأ استعمال كلمة دبلوماسية بمعناهــا السياسي الحديث ، فأصبحت تطلق على الهيئة الرسمية التي توفدها الدولة ، للمفاوضة باسمها مع دولة اخرى في شأن من الشؤون المتعلقة بها .

وكانت العادة الجارية بين الحكومات : ان ترسل الحكومة وفدها او سفيرها الى الدولة الاخرى عند الحاجة اليه ، بحيث لم يكن لهــا سفراء دائمون ، والمعروف ان أول دولة عيّنت لهــا سفراء دائمين عند الدول الأخرى ، ووضعت لذلك نظاماً خاصاً ، هي جمهوريّة البندقية ، ثم اتبعتها الدول في ذلك وعم النظام ، وشاع استعمال كلمة دبلوماسية في تلك الهيئات الممثلة التي تتبادلها الدول ، وفي النظم والوسائل التي توضع لها وتستعمل لانجاز مهماتها ، وكان ذلك في أواخر القرن الثامن عشر للميلاد .

وفي عام ١٨١٥ للميلاد وضع مؤتمر فينّا نظاماً يتضمن ترتيبالوظائف الدبلوماسية ، فاصبح ذلك الترتيب متبعــاً في جميع الدول ، فاول المراتب السفير ، وبعده الوزير المفوض ، ثم المبعوث غير العادي ، ثم الوزير ، ثم القائم بالاعمال ، ويلحق بهؤلاء موظفون من درجات أخرى ، وملحقون تجاريون وثقافيون وعسكريون وعماليون وغيرهم ، حسب اقتضاء المصلحة.

وللتمثيل الدبلوماسي نظم ووسائل وحدود معينة بين الدول ، لايجوز للممثل التجاوز عنها ، وله حقوق وحصانة تراعيها الدول ولا تسمح بالتجاوز عليها .

ولا تحضرني أسماء مؤلفات خاصة كتبت في هذا الموضوع عربية او أجنبية ، ويمكنك الرجوع في البحث الى كتب دوائر المعارف ، ككتاب دائرة المعارف للبستاني ، ودائرة معارف القرن العشرين للاستاذ محمد فريد وجدي ، ودائرة المعارف الفرنسية ، ودائرة المعارف البريطانية ، ودوائر المعارف الاجنبية الاخرى وهي كثيرة ، ويمكنك الرجوع الى الموسوعة العربية الميسرة .

اما الاسلام فلم يكن له في موضوع الدبلوماسية نظام منفرد خاص ولا تحديد معين ، ولكن انظمته العامة تشمله وتوجهه احسن التوجيه وتستثمره اطيب الثمر ، وكان الرسول (ص) يوجه السفراء الناطقين باسمه الى رؤساء القبائل وزعماء البلاد ، ويعهد اليهم بحل بعض المشكلات التي تقع بينه وبين هؤلاء على اساس مصلحة الاسلام ، ويستقبل السفراء والوفود الذين ترسلهم القبائل اليه بهذا الصدد ، ويولي الامر ما يستوجبه من الاهتمام ، ويؤتي الرسل ما يستحقونه من الصيانة حتى يؤدوا مهمتهم ويبلغوا مأمنهم ، وفي السيرة النبوية عدة من الشواهد على ذلك ، وكذلك في الحكومات الشرعية بعد الرسول (ص) ، وهذا النوع من السفراء المؤقتين الذين يوفدون عند الحاجة هو المعروف لدى الحكومات في تلك الايام .

اما السفراء الدائمون فقد ذكرت لك ان الدول لم تعرف هذا النظام الا في القرن الثامن عشر للميلاد ، والاسلام لا يمنع منه ابداً للحكومة التي تقوم باسمه وتطبق نظامه ، ويحتم عليها اتباعه وتطبيقه اذا اوجبته مصلحة المسلمين داخل البلاد أو خارجها ، وهو يعدّها فيه بالنظم المثالية الصالحة

التي تستمد من روحه وتبتني على أصوله وفلسفته .

واقتبست الدول المسلمة التي استلمت زمام الحكم منذ ذلك التأريخ نظام الدبلوماسية الدائمة ، واخذت به على انه ضرورة دولية لا غنى عنها لدولة محترمة ، وتبادلت السفراء والممثلين مع الدول الأعضاء ، ولم يخطر – في اكثر الظن – ببال احداها ان تستنبيء الاسلام عن قولته في الموضوع ، وعن نظامه الذي يعدّه له ، ولو أنها صنعت كذلك لافادت خيراً كثيراً، وليس هذا هو الموضوع الفريد الذي لم يسأل فيه عن راي الاسلام .

وختاماً تقبل سلامي الكثير واحمل تحياتي لمن يعز عليك من الشباب النجباء .

النفوس القلقة . علينا ان نستقبلهم بعطف . من شبهاتهم .
وما محمد الا رسول ، انزلت يوم أحد . تفسير الآيــة
وجواب الشبهة .

٢٢

بغداد – كلية الهندسة .

١٦ رمضان المبارك سنة ١٣٨٦ .

حضرة الكامل المهذب النجيب ... دام بمسرّة :

سلام الله عليك وتحيته الكريمة ورأفته ورحمته ، وعلى خلطائك وخلصائك من الشباب المؤمنين بالله الواعين دعوته المستضيئين بنوره ، وأسأله تعالى ان يثبت أقدامكم وينير سبيل النشء بانارة بصائركم .

تحدثت الي في رسالتك عن بعض أصحابك من ذوي النفوس القلقة والفكر الحائرة ، وهذه الفئة من الناس كثيرة العدد جداً ، ثم هي لا تزال في تزايد مستمر مع الايام ، وأكــثر أعدادها من الشباب المساكين الذين يفقدون التوجيه في بداءة الامر ثم يصرون لسبب او لغير سبب على ان لا يتصلوا بموجّهٍ يوضح لهم معالم الطريق .

من الشباب الذين يحرمون من نعمة التوجيه اولاً ، ثم تتلقفهم الافكار الموبوءة المنحرفة ثانيا ، ولعل هذا هو السرّ الذي يبغّض لهم ان يلجؤا الى طبيب ثقة أمين يشفيهم من هـذا الداء وينجيهم من أعراضه ، يكسبهم الطمأنينة ويزيل عنهم الشكوك .

نعم ، ومن سار في الطريق على غير رشد ، فأقل ما يلاقيه الحيرة وأشد ما ينتهي اليه امره الضلال :

والقلق نقص كبير لا يقيم عليه ذو نفس سويّة ابداً ، ومغبّته وخيمة شديدة وعلى الاخصّ اذا كان قلقاً في العقيدة ، فانه ينذر الانسان بالخطر ويعرّضه لسوء المصير ، والعقل السليم يحتّم عليـه في ذلك أن يبحث وان يعرض شكوكه على الخبراء بمداواة الشكوك وازالة الريب ، ليعيش سعيداً فانه لا سعادة بل ولا حياة مع القلق .

ولكن اشاعة القلق هو السلاح الفريد الذي تستخدمه بعض الفلسفات اليوم ، كما تحارب الدول الطائشة — لفرض سلطانها — بالغازات السامة او الطاقات النووية ، ثم لا تأبه للملايين الضحايا من بني الانسان !! .

بني : لقد امتـد الحديث بي وتشعب ، وقد أردت ان اقول : ان هؤلاء الشباب يستحقون الرثاء والرحمة منا ايها العزيز ولا يستوجبون المقت والزراية .

علينا ان نستقبلهم بابتسامة العطف ونشير لهم الى مواضع الأمن ، انهم قلقون خائفون ايها الحبيب ، وان كانت سؤالاتهم ومظاهرهم تدل على غير ذلك ، فهل تعدني ان تكون صلة بين من تعرفه منهم وبين الموجهين

في النجف او في غير النجف (ولأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك مما طلعت عليه الشّمس) كما يقول الرسول العظيم (ص) .

هل تعدني ان تبتسم لمن تلقاه منهم ابتسامة تعرّفه معنى الاخوّة الحبيبة في الاسلام ، ثم تشير له بلهجة الناصح : ان يتصل ببعض المرشدين ويبث اليه شكوكه دون تحرز ولا تحرج ، فليس من الخجـل ان يقول المريض لطبيبه اني مريض ، وليس من العار ان يصف له داءه واعراضه ، وما اكثر المرشدين والحمد لله رب العالمين .

ولدي ، وقلت : ان ذلك الصديق الحـائر القلق القى اليك سؤالاً وانت تريد مني جوابه . يقول لك ذلك الصديق : انه لا يستطيع الاقتناع بان القرآن كتاب منزل من الله ، لانه قرأ في احدى سوره آية تقول : (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افإن مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين) وهي تدل على ان كاتب القرآن لا يعلم ان محمداً يقتل قتلاً او يموت موتاً طبيعياً ، فهل من المعقول ان يكون كاتب القرآن هذا هو علام الغيوب ؟.

والآية الكريمة التي يدور حولها السؤال هي الآية (١٤٤) من سورة آل عمران ، وقد انزلت يوم أحد ، يوم انهزم المسلمون عن رسول الله (ص) ولم يثبت معه من اصحابه الا النزر القليل ، وهتف هاتف بان محمداً قد قتل ، وفشا ذلك النبأ بين الناس .

فقال فريق من الناس : لو كان محمد نبياً لما قتل ، وقال جماعة : ليت لنا رسولاً الى عبد الله بن أبيّ (وهو زعيم المنافقين في المدينة) فيأخذ لنا

اماناً من أبي سفيان ، وقال قوم : ان كان محمد قتل فارجعوا الى دينكم الاول ، وتحيرّ قوم لا يدرون ما يصنعون فجلسوا وألقوا بايديهم ، ولعلها علامة الاستسلام .

وقال جماعة وهم الصابرون الشاكرون : ان كان محمد قد قتل فان رب محمد لم يقتل ، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله (ص) ؟ قاتلوا على ما قاتل عليه الرسول وموتوا على ما مات عليه ، وشد انس بن النضر وهو يجهر بهذه العقيدة وقاتل حتى قتل . ولا اطيل في تفصيل الواقعة وشرحها وبيان السبب في هزيمة المسلمين بعد ان كان النصر لهم بادىء الامر ، فكتب التاريخ وكتب السيرة النبوية تتضمن تفصيل ذلك وشرحه .

وعلى اي حال فهكذا كان . هزيمة نكراء واستسلام مخذول وارتداد وانقلاب على الاعقاب ، أن سمعوا منادياً يرجف بان محمداً قتل .

وثبت الرسول (ص) . وثبتت معه القلة الشاكرة الصابرة من اصحابه ، وتداعى الفلول المنهزمون ، وتراجعوا الى الصخرة التي وقف عليها الرسول لما علموا بانه لا يزال حياً لم يقتل .

وانزلت الآية الكريمة في عتاب من استحق العتاب ومدح من استوجب المدح سجلاً ثابتاً الى يوم الدين .

(وما محمد الا رسول) والرسول بشر يجري عليه ما يجري على سواه ، فليس من الغريب ان يقتل او يموت ، و (قد خلت من قبله الرسل) وبعض الرسل من اسلافه مات وبعضهم قتل ، وشأن محمد شأنهم فليس هو بخالد ولا دائم ، ولابد من ان يلقى الفناء موتاً او قتلاً في يوم

من الايام ، والدعوة التي صدّقتم بها محمداً باقيــة لا تفنى ، ورب محمد الذي دعاكم الى توحيده وعبادته والاسلام له حي لايموت ، (افإن مات) محمد (او قتل انقلبتم) انتم (على اعقابكم) وارتددتم عن دينكم ؟ (ومن ينقلب على عقبيه) منكم ومن سواكم (فلن يضر الله شيئاً) ابداً ، فقد تنزه سبحانه عن ان يناله نفع او ضرّ من احــد ، وسيلقى هو جزاء ارتداده وانقلابه على عقبيه سعيراً وعذاباً مبيراً .

نعم ، (وسيجزي الله الشاكرين) الثابتين على الطاعة ، الذين لم تتزلزل اقدامهم ولم تتبلبل افهامهم .

اسمعت ايها العزيز ؟ .

ان الآية لم تخبر بان محمداً يموت موتاً او يقتل قتلاً ، وليست بصدد هذا ابداً ليقول صديقك ان هذا تردد ينافي العلم بالغيوب ، ولكنها تقول : ان محمداً بشر رسول سيلاقي حمامه في يوم من الايام ، ولقاؤه حمامه ميتاً او مقتولاً لا ينقض دعوته ولا يبطل دينه .

على ان الآية انما ذكرت القتل لأنه النبأ الذي اشيع في ذلك اليوم وارجف به المرجفون ، وقد ذكرت معه الموت وقدّمته في السياق عليه ، فيكون ذلك اشارة خفية الى ان محمداً سيموت موتاً ، ولم تصرح به الآية الكريمة تصريحاً ، فقد شاءت الحكمة ان تخفي على العباد اسباب موتهم وآجالهم .

هذا هو تفسير الآية الكريمة وهذه قصة نزولها ، وكل ذلك واضح لا لبس فيه ولا خفاء ، ثم هذا موضع الاشارة فيها ، وأي موضع بعد ذلك للتشكيك ؟ فليقرأها صديقك على ضوء هذا التفسير ، وليعد للسؤال اذا عاوده

الاشكال ، شريطة ان يترفع عن الرواسب والأهواء التي لاتليق بمثقف جامعي ، شريطة ان يبحث القضايا ويناقشها نقاشاً موضوعياً لا ميل فيه ولا محاباة .

وتحياتي الكثيرة لك ايها العزيز ، ولمن يتصل بك من الشباب النجباء وسلمتم .

ولينصرن الله من ينصره • توبة وقلق • يد الله ممدودة
للتائب • الرواسب • الارادة القوية •

٢٣

بغداد - تل محمد - المعهد الصناعي العالي . ٢٥ رمضان المبارك سنة١٣٨٦

حضرة الكامل المهذب • • • • • • دام بخير .

تحية مباركة وشوقاً بالغاً ودعاء خالصاً .

ولدي : ما زالت رسائلك تحدثني بسعيك المشكور ، وعملك الدائب في خدمة دينك ، واسعاد إخوانك من الشباب الأنجاب ، وتوجيههم الوجهة الصحيحة في عقائدهم ، وهدايتهم الى السلوك الرضيّ في اعمالهم ، وما زلت أسأل الله لك المدد الوافي من توفيقه والقبس المنير من هداه والحصن الحافظ من رعايته ، وان يكثر في ابنائنا من امثالك ، ممن يعرفون واجبهم لدينهم فيقومون بنصره ، ويجهدون لرفع مناره ، يرشدون به السالكين ويضيئون به السبيل للخابطين .

اما نصر الله الذى وعد به من نصره من المؤمنين فانك - ولا ريب - قد لمست من أثره الشيء الكثير ، نعم ، وسترى من ذلك ما هو اكبر

واكثر كلما تمادى بك السير في هذا السبيل ، ومهما تمحض منك الاخلاص في السعي .

انه عهد قطعه الله على نفسه يوم قال : (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز) . (٤٠ : الحج) ويوم قال : (ياايها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم) . (٧ : محمد) ومن اوفى بعهده من الله ؟ .

وذكرت لي في رسالتك الاخيرة المؤرخة ١٣٨٦/٩/١٣ حديثاً جديداً لصديق جديد .

قلت : ان هذا الصديق رجاك ان توقظه لصلاة الصبح ليصليها ثم ليستمر عليها ، وهكذا صنعتما ، فايقظته وصلى ثم استمر على اداء الصلاة بعد ذلك اليوم ، وهلّ شهر الصوم بعد ذلك فصام ، ولم تجد منه ايّ انحراف :

وهذه القطعة من الحديث تدل على دعوة منك مخلصة ، حببت اليه الصلاة والصيام والقيام بمراسم الاسلام ، وهي كذلك حبيبةالى الله سبحانه، ومن اجل ذلك حققت الاثر المرغوب .

ثم قلت : ولكنه ناداك في يوم من ايام الشهر المبارك وعيناه باكيتان وقلبه مفجوع ،ووضع امامك عدة رسائل وصورتين لبنتين ، واعترف بين يديك بماض أسيف ، قال لك : انه حطم نفسه منذ سنتين باتباعه سبيل الشياطين ، وانه قاسى ما قاسى نتيجة ابتعاده عن الدين ، فهذه رسائل الحب ، وهاتان صورتا الزميلتين ، ومن وراء ذلك ما يعلمه الله وحده مما أشار اليه ولم يبح به .

ومعنى ذلك ان صديقك قد احلّك من نفسه منزلة المرشـــد الموثوق الامين ، فهو يطلعك على مكتوم سره ، ويستنصحك في حـــل مشكلته ويسترشدك الى سبيل نجاته .

وقلت : انه قام امامك بتمزيق الرسائل كلها الا واحدة ابقاهـــا ليسحب بها رسائله من صاحبتيه ، وقد اودعها لديك مؤقتاً .

فماذا تدل عليه هذه الظواهر والاعمال ؟ .

انها تدل على صدقه ايها العزيز .

نعم انه صادق ، وكل هذه شواهد على صدقه ، فدموع عينيه ولوعة قلبه ولهجته في الحديث واطلاعـــه اياك على الرسائل والصورتين ، وتمزيق الرسائل بين يديك ، كل هذه شواهد واضحة على صدقه في دعواه وصدقه في غايته .

وحتى ابقاؤه الرسالة الواحدة وديعة عندك ، انه يريد ان يكون بعيداً كل البعد عن قراءتها وعما فيها من مؤثّرات ومثيرات .

انه صادق في دعواه — ايها العزيز — صادق في غايتـــه ، والتائب الصادق في توبته ليس بينـه وبين الله حجاب ، واقرأ معي قوله تعالى : (انما التوبـــة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيما) . (١٦ : النساء) وقوله تعالى : (واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا ، فقل : سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة ، انه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعـده وأصلح فانه غفور رحيم) ، (٥٤ : الانعام) وقوله تعالى : (. . الا

من تاب وآمن وعمل صالحاً ، فاولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيما) ، (٧٠ : الفرقان) .

وهذه الحيرة التي قلت : انها تبدو عليه وتقلق ضميره ؟ ويرى انها مشكلة تطلب الحل وتقتضي العلاج ، اليست دليلاً على صدقه في التوبة؟، انه لو لم يكن تائباً على وجه الحقيقة لما حذر هذا الحـــذر الشديد ان لا يكون مقبولاً .

قل له : انه مقبول التوبة مغفور الذنب ما دام مخلصاً في توبته مقبلاً على ربه ، وعلامة اخلاصه التوبة اقلاعـــه عن المآثم والمحارم اقلاعاً عملياً كاملاً يؤمنه غضب ربه ، وقيامه بالواجبات قياماً تاماً يحرز له رضاه ، اما الرواسب التي يقول : انها لا زالت باقية ، فستزول وتمّحي آثارها ، اذا تمسك بهذه الصلة وعمل على صيانتها ودأب على تقويتها وتثميرها .

ستزول هذه الظلمات وتتبدد اذا سلطت عليها انوار المعرفة بالله ومراشد دينه وأشعة تقواه .

ورواسب سنين قد مهّدت لها دفعة الشباب وانطلاقة الحضارة المائعة ، حتى مرنت عليها النفس ومردت عليها الارادة ، لا تقتلع جذورها بين عشية وضحاها .

وواجب المسلم التائب المقبل على ربه ان يحذر كل الحذر من ان يسلم اليها قياده او يعمل على تنميتها وتغذيتها .

عليه ان يهملها ويهمل التفكير فيها ، فان التفكير فيها نحو من التغذية لها ، ويلجأ الى الله في الاستعانة عليها ، وسيرى من عون الله ما يصدّ

عنه كل عادية ويكفيه كل مهمة .

وحتى اذا انزلق في ساعة من ساعات ضعفه ثم قام نادماً ، ومدّ بصره الى الله خجلاً ، وطلب منه الصفح والمغفرة ، فان الله يقبل عذره ويقيله عثرته (ومن يعمل سوءاً او يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما) ، (١١٠ : النساء) .

اما التناقض الذي يخشى صديقك ان يقع فيه : التناقض بين توبته وصلاته وصومه وبين الرواسب التي يشعر بها وهي تنزع بـــه الى عمله القديم ، اما هذا التناقض فانما يُخشى منه اذا بلغ الى دور العمل ، بحيث لم يملك زمام امره واستطاعت الرواسب ان تدفع به او تقرّبه الى هاويته الاولى :

اما اذا كانت الرواسب شعوراً محضاً ، واستطاع هو ان يتغلب عليها بقوة الايمان ، فلم تملك قياده ، ولم تدنّس ايمانه ، ولم تؤثر عليه فقد قلت لك من قبل انها لا ضير فيها ، ووصفت ما يتدرع به المسلم ضدها ومـــا يجب ان يقوم به ازاءها ، وقبل كل اولئك وبعده (ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) ، (٢٢٢ : البقرة) .

ولدي وقلت لك : ان رواسب سنين مهّدت لمادفعة الشباب وانطلاقة الحضارة لا تقتلع جذورها بين عشية وضحاها ، ولست أعني ان هـــذه المخلفات عِصيّة الاقتلاع الى درجة بعيدة . فان الارادة القوية الفعالة لايعسر عليها ابداً ان تحسم الداء وتبيد الجرثومة وتستأصل الجذور في اقل فرصة ممكنة ، وخصوصاً اذا كان مالك هذه الارادة القوية ممن عرف الله واستبان هداه وتذّوق طعم طاعته ، وعلم عظيم اخذه للعاصين وشديد نكاله بهم ،

وأيقن ان ارتكاب مساخط الله يهدده بالويل وينذره بالبوار .

والإرادة القوية احدى الركائز المهمة التي يفتقر اليها الانسان في اعلاء شخصيته وانماء مواهبه واسعاد مستقبله وتصميم اعماله وتنفيـــذ خططه ، والانسان السّوي يربأ بنفسه ان يكون ضعيف الارادة ازاء اي مؤثّر واي وازع ، ويعدّ ضعف الارادة نقصاً كبيراً في انسانيته قبل ان يكون خطراً ماحقاً لمستقبله ، فلابد له من العمل لتقوية ارادته قبل ان يبدأ اي عمل وقبل ان يرسم اي خطة .

فليبادر صديقك للعمل الجاد لوضع حد لهـــذه الرواسب ، وليثبت لنفسه ولضميره قبل ان يثبت لك انت : انه قوي الارادة حقيق بهذه الصفة التي تتوقف عليها سعادته في حاضره ومستقبله ، (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردّون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بمـــا كنتم تعملون) (١٠٥ : التوبة) .

وختاما تقبل تحياتي الوافرة لك ولصديقك وان يعز عليك .

الشعور بالمسؤولية . عدةالمؤمن في دعوته الى الله . البشارة باسلام تلميذين . الوصية بهما .

٢٤

بغداد – أبي غريب – كلية الطب البيطري :

الشاب المهذب النجيب ..... دام بسرور وغبطة .

تحية مباركة وسلاماً وافراً وشوقاً متجدداً ودعاءً كثيراً ان يريني الله فيك ما احب ويوفقك للقيام بما يجب .

لقد سررت جداً برسالتك ايها العزيز وملئت مشاعري بالتقدير والاعجاب بك ، وسألت الله سبحانه ان ينظرك بعينه ويغمرك بفضله ، وان يأخذ بيدك الى الخير الاعلى والحياة الفضلى ، وان يكثر في الابناء النجباء من امثالك ، ممن يشعر بالواجب لربه والمسؤولية لدينه : لعقيدته التي يؤمن ولمناهجه التي يستمسك ولمجتمعه الذي يعيش .

والشعور بالمسؤولية هو الشرط الاول والاكبر من الشرائط التي يجب ان تتوفر في كل داعية للحق ، وبمقدار قوة هذا الشعور في الداعية المؤمن يكون اضطلاعه بالمهمة ويتقدر فوزه فيها ، بل وبمقدار قوة هذا الشعور

في الداعية المؤمن يكون مدده بالتوفيق للجهاد لنيل الغاية ، وتيسير السبل اليها وتذليل العقبات دونها ، فان التوفيق والتسديد من الله لا يكال جزافاً ولا يعطى محاباة ، ولكن على قدر مؤهلات في نفس العهـد وعلى وفق قوانين يجب ان يتبعها في سلوكه .

ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة تلق النجاح في دعوتك .

وامحضه الاخلاص في ذلك تجد التوفيق منـه ينير لك السبيل ويبسط لك الدليل .

وأخلص في النصيحة لمن تدعوه تجد قلبه وعقله ومشاعره قد تفتحت لنصائحك وتطوعت لقبول اقوالك .

والابتسامة المؤمنة والخلق المسلم والحب الالهي الطاهر – هـذه العدة التي يجب ان يتزود بها كل داعية لدين الله – تذلل لك كل صعب وتمهد لنصيحتك في كل قلب .

والارادة القوية المؤمنة الطيّعة لأمر الله ، المرنة في اتباع مناهجه هي التي تصنع كل اولئك .

والعلم بالحق والشعور بالمسؤولية له ، هما اللذان يطوعان الارادة ويزودانها بالعدة ويجنّدانها لنصرة الحق ويشعرانها التلذذ بالتضحية في سبيله .

والعون قبل ذلك وبعده من الله القوي الغالب ، الذي جعـل العزّة للمؤمنين وضمن النصرة للمجاهدين ، واتـل معي قوله تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) ، (٦٩ : العنكبوت) .

وصلتني رسالتك وقرات فيها بشارتك التي زففتها لي باسلام تلميذين

من زملائك في الكلية غير المسلمين ، فحمدت الله على هدايتها ، وسألته ان يثبّت قدميها وان يهنئها دين الحق الذي اتبعاه ويبسط لهما من بركاته ويضيء حياتهما بنوره .

ولدي : هل لي ان أوصيك وأوصي زملاءك المؤمنين بهما مايستوجبان من الخير والبر ، وما يشعرهما بالاخوة الصادقة في دين الله والحب الطاهر في ظل الايمان به ، وما يعلّمهما كيف تكون الصلات الحقيقيـة تحت مناهج الاسلام ؟ . هل لي ان أوصيك وأوصي زملاءك الأحباء بفتح القلوب لهما والسعي لتذليل العقبات التي تعترض سبيلهما ؟ .

نعم فلابد وان تعترضهما في هذه الآونـة عقبات ، ومن الضروري ان يتهيّأ لهما انصار يؤازرونهما في ازالة هذه العقبات ، ومن أحق منكم ايها الاعزاء بان تكونوا من انصار الله ؟! .

ثم هل لي ان تبلغهما عني اسنى تحياتي واجمل تهانيّ وأجزل دعائي ، وان تنبئهما اني مستعد لاجابتهما عن اي سؤال وأية شبهة حول الاسلام ؟ ، وعرفهما عنواني اذا ارادا ذلك .

وختاماً ازف اليك تحياتي والى من يعز عليك من الابناء النجباء .

والسلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته .

صلة المسلم بالمسلم . لماذا تخصص الشيعة ميراث الزوجة بالفروع ؟. لم تلتزم الشيعةفي موضع الجبهة في السجود أن يكون من الأرض او ما انبتته ؟ . حديث مع أخ من أهل العلم . السجود على التربة الحسينية .

٢٥

المملكة العربية السعودية – الدمام . ١٧ شعبان سنة ١٣٨٤ .

حضرة الماجد الأمثل الاديب الاستاذ عبد الرحمن اليوسف المحترم .

تحية الاخوة في الله ، وتكريم الحب في دينه ، والتآزر لاعلاء كلمته، والتناصر في ابتغاء مرضاته ، وتجلة الاسلام العظيم الذي جمع بين قلوب اهله على الهدى ، وألزمهم كلمة التقوى .

اخي الكريم : ما اوثق هذه الصلة التي شد الله بها المسلم الى المسلم، وربط بها بين قلبيهما ، وألف بين روحيهما ! ، ما أوثقها ! وما أبقاها على الايام ! ، وما أشدها على الطوارىء والعوادي ! ، انها ثابتة دائمة ما بقي الاسلام دينُ الحياة ، وما ثبت القرآن كتابُ الخلود ، ما دام الاسلام والقرآن يمدانها بالقوة ، ويصلانها بحب المسلم لربه وحبه لرسوله وحبه لكتابه .

ما أوثق هذه الصلة ! وما احلاها في القلوب المؤمنة ، المطمئنة بالحق المشرقة بنوره المطبوعة بسماته ! وما اجمل التفاهم في ظل هذه الأخوّة النقية والحب الاسلامي الطاهر المكين ! ، والقلوب التي تنطوي على هذا الرصيد من الايمان البصير لا تحمل حقداً ، ولا تدنّسها ضغينة ، ولا يميل بها هوى ، فان الايمان الواعي طهور للقلوب من الضغائن ، نعم ، والقلب الذي تثقله السخائم وينطوي على الغلّ أبعد القلوب عن الايمان الصحيح ، وان أغرق صاحبه بالدعاوى الطوال العراض ، ومن أجل ذلك كانت هذه إحدى الدرجات التي يستكمل بها المتّقون إيمانهم ، وإحدى الامنيات التي يرفعون أيديهم خاضعين الى ربّهم ان يبلّغهم اياها ويقوّيهم عليها ، فيقولون كما علمهم الكتاب الكريم : (ولا تجعل في قلوبنا غلّاً للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم) ، (١٠ : الحشر) .

اخي الكريم :

وصلتني مسائلك مع الخطيب الفاضل الأخ الشيخ عبد الأمير بن منصور الجمري - حفظه الله - فاجتليت من صيغتها ذهنا ناقداً ، وثقافة واعية ، وابصرت من خلالها روحاً مسلماً ، يتطلّع الى أقوال اخوانه من دعاة الايمان وحملة القرآن ويتدّبر مواضع اختلافهم معه في الرأي يلتمس وجوهها الصحيحة من مصادر الاسلام ، ومنابع التشريع فيه ، تنزيهاً للمسلمين ان يقولوا في دينهم بغير حق ، او يسيروا في مذاهبهم وآرائهم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

وصلتني مسائلك ، وقد حتّم تراكم الاعمال علي ان اتأخر في الجواب

مدّة تنيف على شهر ، فاليك معذرتي مع بالغ تقديري .

سألت اوّلاً عن ميراث الزوجة : لماذا تخصّصه الشيعة في الفروع مع أن الآية الدالّة على ميراثها عامّة لا اشعار فيها بالتخصيص ، فقد قال سبحانه : (ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد ، فان كان لكم ولد فلهنّ الثمن مما تركتم من بعد وصيّة توصون بها او دَين) ، (١٢:النساء) هكذا ، لهن الربع او الثمن مما تركتم ، ولم يستثن منه الا الوصية والدَّين وهو على غرار قوله تعالى في أول الآية الكريمة في بيان ميراث الزوج : (ولكم نصف ما ترك ازواجكم ان لم يكن لهن ولد ، فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن ، من بعد وصيّة يوصين بها أو دين) ولا تخصيص في الآية في كلا الموضعين .

وتوطئة للجواب أود أن أشير إلى أمرين جديرين بالاهتمام ، وكلاهما غير خفي عليك ، ولكنّني اذكرهما هاهنا لنستحضرهما في الجواب ، وسأذكر الامرين على وجه الاجمال ، وبوسع اخي الكريم ان يعرّفني إذا كان يرغب في التفصيل .

الأمر الأول : ان تخصيص العمومات الواردة في الكتاب الكريم لا يجب ان يكون المتكفّل ببيانه هو الكتاب الكريم ذاته ، وكذلك تقييد مطلقاته وشرح مجملاته ، لا يجب ان يكون المتكفّل ببيانها هو الكتاب ذاته ، فكثيراً ما يأتي تخصيص عموم الكتاب وتقييد مطلقه وبيان مجمله من طريق السنّة المطهرة ، ولا خلاف في ذلك – حسب ما اعتقد – بين علماء المسلمين .

واكثر ما ورد لظواهر الكتاب الكريم من تخصيص او بيان فانما ورد من هذا السبيل ، وندر ان يوجد باب من ابواب الفقه الاسلامي لا تعمل فيه هذه القاعدة ، ولو مرة واحدة على أدنى التقادير .

ومن شواهد ذلك في ابواب الفرائض : ان الآيات الكريمة ذكرت الورّاث الذين توزع عليهم تركة الميت من أبنـــاء وآباء وإخوة وأخوات وأزواج وأولي ارحام ، واشارت الى استحقاقهم من التّركة ، والى مقادير سهامهم اذا كانوا من اهل السهام ، والى قرابتهم اذا كانوا يرثون بالقرابة ، ذكرت كل اولئك على سبيل الاطلاق ، ثم قيّد هذا الاطلاق - عن طريق السنة - بما اذا لم يكن الوارث كافراً يرث من مسلم .

فقد اخرج مالك والبخاري ومسلم عن اسامة بن زيد ، قال : قال رسول الله (ص) : لا يرث الكافر المسلم ..

واخرج الكليني في الكافي والشيـــخ الطوسي في التهذيب عن الامام جعفر بن محمد (ع) : المسلم يحجب الكافر ويرثه والكافر لا يحجب المؤمن ولا يرثه ، واخرجا عن الامام محمد بن علي الباقر(ع) : ان الله عزّ وجل لم يزده (اي المسلم) بالاسلام الا عزاً ، فنحن نرثهم ولا يرثوننا .

وقيّد الاطـلاق مرة اخرى - وعن طريق السنّة المطهرة كذلك - بما إذا لم يكن الوارث قاتلاً للمورث :

فقد اخرج ابو داود والبيهقي عن ابن عمرو قال :قال رسول الله (ص): ليس للقاتل من الميراث شيء .

واخرج الكليني والطوسي في كتابيهما المتقدم ذكرهما قول الرسول (ص) :

لا ميرات للقاتل .

وعلى اي حال فهذا أمر في منتهى الجلاء لمن نظر في ادلّة الاحكام .

* * *

وثاني الامرين الذين أردت تقديمها ، وقلت لك انهما جديران بالاهتمام : ان الشيعة تقول بامامة الأئمة الاثني عشر من أهل البيت ، وبعصمتهم من الآثام ، وتطهيرهم من الرجس ، على حدّ تعبير الكتاب الكريم ، وادلّة الشيعة على هذا القول غفيرة وفيرة ، وهـذا القول هو المائز الجلي الذي تعرف به الشيعة الإمامية من بين سائر اخوانها من فرق المسلمين .

ومن نتائج قول الشيعـة بإمامة الائمة ، واعتقادها بعصمتهم أنّها توقن بان هؤلاء المعصومين لايقولون ابداً الا بقول جدهم الرسول (ص)، ولا يحيدون عنه قيد انملة ، فاقوالهم مصدر من مصادر السنّة ، ومرجع من مراجع علم الكتاب ، وليست على حد اقوال العلماء المجتهدين قائمة على الاجتهاد ومقتبسة بالنظر ، فقد اغناهم الله بالتسديد والعصمة عن ذلك .

ومن اجل ذلك فاذا صحّت عن احدهم (ع) رواية يخصّص بها عموماً ورد في الكتاب او يقيّد بها اطلاقاً او يبيّن مجملاً ، فان الشيعـة تأخذ بتلك الرواية ، وتخصّص بها ذلك العام وتقيّد المطلق ، لانها تعتقد يقيناً ان شأن تلك الرواية شأن الاحاديث الثابتة الصحّة من قول الرسول(ص)، فهم الحفظة المأمونون على السنّة المطّهرة .

وعلى اقلّ الاحتمالات فالرواية الثابتة بطريق احدهم لا تقـل عن رواية صحيحة يرويها أحد الصحابة العدول عن جدهم الرسول (ص) .

اخي الكريم : هذان هما الأمران اللذان رغبت ان اقدّمها اليك ، لنستحضرهما عند البحث في جواب السؤال ، وقــد اكتفيت فيهما — كما وعدتك — بالاشارة ، وخصوصاً الامر الثاني منهما ، فانه موضوع طويل ،، وقد كتبت فيه مئات المؤلفات .

وعذري الى اخي اولاً : انني احرّر له رسالة لا أؤلّف كتاباً .

وعذري اليه ثانياً : ان الامرين لم يكونا مقصودين بالاصالة ، وانما ذكرتهما تمهيداً للجواب .

وبعد هذه التوطئة اقول :

ان الآية الكريمـة الدالّة على ميراث الزوجات وان كانت عامّة كما ذكر في السؤال ، ولكنّا روينا من السنّة الصحيحة من طرق اهل البيت (ع) ما يخصص هذا العموم ، فقد صحّ باسانيد كثيرة عن الباقر والصادق (ع) انهما قالا : ان المرأة لا ترث من تركة زوجها من تربة دار أو أرض ، الا ان يقوّم الطوب والخشب قيمة فيعطى ربعها او ثمنها ان كان ، من قيمة الطوب والجذوع والخشب .

وفي الصحيح عن محمد بن مسلم عن الباقر (ع) : لا ترث النساء من عقار الارض شيئاً . الى غيرها من الاحاديث الصحيحة والموثقة .

واشير مرّة ثانية الى أن اقوال الأئمة ـ عند الشيعة ـ انما هي أحاديث جدّهم الرسول (ص) ، لا يحيدون عنها قيد انملة .

وقد اخرجت جوامع الحديث المعتمدة لدى الشيعة ، كالكافي ، ومن لا يحضره الفقيه ، والتهذيب ، والاستبصار ، والوسائـل ، عن ميسرة بن

عبد العزيز ، وهو أحـد أصحاب الامام محمد بن علي البـاقر (ع) الثقات ، عن الامام جعفر بن محمد (ع) ، قال ميسرة : سألتـه عن النساء : مالهن من الميراث ؟ .

قال (ع) : لهن قيمة الطوب والبناء والخشب والقصب ، امـا الارض والعقار فلا ميراث لهن فيها .

قلت : فالثياب ؟ .

قال : الثياب لهن نصيبهن منها .

قلت : كيف صارذا ، ولهذه الثمن ولهذه الربع مسمّى ؟ .

قال (ع) : لأن المرأة ليس لها نسب ترث به وانما هي دخيل عليهم ، وانما صار هذا كيلا تتزوج المرأة فيجيء زوجها او ولدها من قوم آخرين فيزاحم قوماً في عقارهم .

وبمقتضى دلالة هذه الاحاديث الصحيحة الكثيرة الواردة من طريق اهل البيت عن جدهم (ص) ، فقد ذهب اكثر فقهاء الشيعة الى حرمان الزوجة من الارض ، فـلا ترث من عينها ولا قيمتها ، وتعطى ربعها او ثمنها من قيمة الآلات والابنيـة الموجودة في الأرض ، ومن سائر الاموال الاخرى التي تركها الزوج .

* * *

أخي : وسألت ثانياً : لم تلتزم الشيعة في موضع الجبهة - وهي احد المساجد السبعة التي يجب عليها السجود - ان يكون من الارض او ممـا أنبتته ، عدا المأكول والملبوس والمعدن ؟ .

وعبارة هذا السؤال محتملة لاحد وجهين :

الوجه الاول : ان يكون المراد منه : لماذا اشترطت الشيعة هذه الشرائط في موضع السجود ، فمنعت من السجود على غير الأرض ونباتها ، ومنعت من السجود على المأكول والملبوس من النبات ، وعلى المعدن وشبهه مما خرج عن اسم الارض ، وان كان في الاصل منها ؟.

الوجه الثاني : ان يكون المراد منه : لماذا خصّصت الشيعة موضع الجبهة بهذا الاشتراط ، دون سائر الاعضاء الاخرى التي يقع عليها السجود ، فاجازت ان تقع الكفّان والركبتان وابهاما القدمين في حال السجود على الصوف والقطن والقير ، وأمثالها مما هو من غير الارض ، او من المعدن، او من نبات الارض المأكول او الملبوس للانسان ، اجازت ذلك اذا وضعت الجبهة على شيء يصح عليه السجود ؟ .

قد يكون المراد من السؤال هو الوجه الأول ، ولعل هذا هو الظاهر منه ، وادلّة الشيعة على هذا القول كثيرة .

فمن ادلتهم احاديث مستفيضة وردت من طرق اهل البيت عن جدهم الرسول (ص) صريحة في الدلالة على ذلك ، ووفرة من هذه الاحاديث صحيحة الأسانيد ، فقد اخرجت الكتب المعتمدة بسند صحيح عن هشام بن الحكم ، عن الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) ، قال : السجود لا يجوز الا على الارض او ما انبتت الارض ، الا على ما أكِل أو لبِس .

واخرجت بسند صحيح كذلك عن زرارة بن اعين ، عن الامام محمد ابن علي الباقر (ع) :

قال زرارة : قلت له : أأسجد على الزفت (يعني القير) ؟ .

فقال : لا ، ولا على الثوب الكرسف ، ولا على الصوف ، ولا على شيء من الحيوان ، ولا على طعام ، ولا على شيء من ثمار الارض ، ولا على شيء من الرياش .

الى روايات عديدة تشبه هاتين في صراحة الدلالة وفي علوّ الاسناد ، وروايات كثيرة أخرى من الموثّق ومن الحسن تؤكّد الحكم وترفع اللّبس عنه .

ومن أدلتهم على هذا القول : ما أخرجه الحاكم في الاربعين ، والبيهقي في كتاب السنن الكبرى ، في باب الكشف عن الجبهة في السجود ، وأخرجه الشوكاني في كتابه نيل الاوطار ج ٢ ص ٢٦٨ ، عن خبّاب بن الارتّ : قال : شكونا الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حر الرمضاء في جباهنا واكفّنا فلم يشكّنا .

انظر ايها الاخ الكريم ، لماذا يشكو الاصحاب الى رسول الله (ص) حرّ الرمضاء اذا صح لهم السجود على الثياب والبسط وأمثالها مما يقيهم حرّ الرمضاء ؟ ! ، وهب انهم لم يعلموا ذلك فكيف لم يشكّهم الرسول (ص) ؟، وقد أخرجه مسلم في صحيحه ايضاً ، ولكنه لم يذكر الجباه والاكف (انظر ص ١٠٩ من الجزء الثاني ط محمد علي صبيح) .

وما اخرجه البيهقي في الباب المتقدم ذكره ، ورواه النسائي في باب تبريد الحصى للسجود عليه ، والامام أحمد (ص ٣٢٧) من مسنده : عن جابر بن عبد الله ، قال : كنا نصلي مع رسول الله (ص) الظهر ،

فناخذ قبضة من حصى في أكفنا لتبرد حتى نسجد عليه من شدة الحر .

وما اخرجه البيهقي عن انس بن مالك : كنا نصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شدة الحر فيأخذ احدنا الحصباء في يده ، فاذا برد وضعه وسجد عليه .

والواقع ان دلالة هذه الصحاح على الحكم وافية كافية ، فقد كان الاصحاب في سعة من السجود على الحصى الملتهب بحرّ الرمضاء ، وكانت لهم مندوحة بالسجود على غير الارض ونباتها ، وعلى النبات الملبوس لو كان ذلك مما يصح ، كانت لهم بذلك مندوحة عن الشكاية الى الرسول ، وعن معالجة الحصى الملتهب بالاكف ، وهو أمر يذهب بخشوع الصلاة ، الأمر الذي عرف به الرسول (ص) وصحابته المكرّمون (رضي الله عنهم اجمعين) .

وفي سنن البيهقي عن عمر بن الخطاب : مطرنا من الليل فخرجنا لصلاة الغداة فجعل الرجل يمر بالبطحاء ، فيجعل في ثوبه من الحصباء فيصلي عليه ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاك قال : ما احسن هذا البساط ! ، فكان ذلك اول بدء الحصباء .

وفي صحيح مسلم (ص ١٠٩) من الجزء الثاني ط محمد علي صبيح ، وفي سنن الدارمي (ص ٣٠٨) في باب الرخصة في السجود على الثوب في الحر والبرد ، عن انس بن مالك قال : كنا نصلي مع رسول الله في شدة الحر ، فاذا لم يستطع احدنا ان يمكّن جبهته من الأرض بسط ثوبه فصلى عليه ، ورواه النسائي وأورده البيهقي عن الجماعة .

اخي : أرأيت ؟ هذا هو عمــل الصحابة : السجود على الأرض ، الاّ عند الضرورة ، وهذا هو بذاته قول الشيعـة ، وواضح ان الضرورات انما تقدّر بقدرها .

الى أحاديث اخرى ، ترويها الصحاح والمسانيد ، وكلها دالّة عليه.

ومن ادلّة الشيعة على قولهم : ان السجود عبادة شرعيــة يجب ان يؤخذ فيها بما ثبت يقيناً من عمل الرسول (ص) ، وقد اتّفق المسلمون كافة على انّه (ص) سجد على الارض ، وسجد على الحصر وأمثالها من نبات الارض غير المأكول ولا الملبوس ، ثم اختلف المسلمون فيما سوى ذلك .

ومقتضى الاحتياط في الدين ، أن يؤخذ بما اجمع المسلمون على ثبوته وصحته عن الرسول (ص) ، ويُتوقّف في ما عداه حتى يثبت بدليــل قاطع ، تحصيلاً لليقين بامتثال امر الله بالصلاة .

ويبدو أن سائر مذاهب المسلمين يقولون بندب السجود على الأرض أوماأنبتت ، قال في كتاب البحر الزخار (ص ٢٢٥) : مسألة ، وندب السجود على الارض او على ما انبتت الارض لقوله (ص) : (جعلت لي الأرض مسجداً) .

هكذا يفتي هذا العلامة الضليع بندب السجود على الارض ونباتها على وجه الاطلاق ، ولا ينسب الحكم به الى مذهب معين من مذاهب المسلمين .

اخي : وههنا وبمناسبة هـذا الأثر الشريف : (جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً) الذي ذكره في البحر الزخار والذي أطبق على روايته وصحّته عن الرسول جميع فقهاء المسلمين ، أتذكّر حديثاً جرى لي مع اخ من اهل العلم عام ١٣٨٠ للهجرة .

كان هذا الأخ الى جانبي في المسجد النبوي الشريف ، ورآني قد افترشت مصلىّ من الأسل الهندي لأسجد عليه ، فقال لي نضّر الله وجهه: ما بال اخي يصلي على الأسل ؟ ولماذا لا يسجد على هذه (واشار الى الطنافس التي كست ارض المسجد) ؟ .

فقلت : لانني لا استبيح السجود على الصوف .

فقال : وعلى ايّ المذاهب تقول هذا ؟ .

فقلت : وما شأن المذاهب هاهنا يااخي ، ونحن بين يدي صاحب الرسالة (ص) ، فلماذا لا نرجع الى ما يقول ؟! .

فاستحسن كلمتي وابتسم ، ثم قال لي : وما يقول صاحب الرسالة في هذا السبيل ؟ .

فقلت : يقول (ص) في حديثه المستفيض أو المتواتر بين جميع علماء الحديث من المسلمين : جعلت لي الارض مسجداً وطهوراً .

وكلمة المسجد في اصل مدلولها تعني موضع السجود ، وبهذه المناسبة أطلقت على الموضع الذي يعيّن للصلاة في عرف المسلمين ، لأن الصلاة افضل العبادات التي شرّع فيها السجود ، ولأن السجود أظهر أحوال الصلاة في التعبد ، وابلغها في الخضوع .

واذن فالحديث الشريف يدلّ اولاً : على ان الارض هي موضع السجود ، ويدلّ ثانياً : على ان الأرض كلّها موضع للصلاة ، (فايما رجل من الأمّة ادركته الصلاة فليصلّ) ، كما اخرجه البخاري في تتمّة الحديث .

ثم علمنا باجماع المسلمين ، وبالصحاح المستفيضة او المتواترة من السنة كذلك : ان الرسول (ص) صلى على نبات الارض غير المأكول ولا الملبوس ،

فالثابت لنا من قول الرسول ومن فعله ، انما هو السجود على الأرض ونباتها الذي لا يؤكل ولا يلبس ، وعلينا ان ندع ما سواه لانه مشكوك الثبوت.

فقال – وهو بادي الموجدة – : وعلى قولك هذا ، فهل نحكم بالخطأ على مذاهب المسلمين التي أباحت ذلك ؟! .

فقلت : على رسلك ايها الأخ ، ان هذه نظرة ضيّقة يترفّع عنها أمثالك من أولي العلم ، الذين عرفوا مرونة الاسلام وسعة آفاقه ، وعلماء المذاهب مبرورون مشكورون ، محمولون على أفضل محامل الخير ، انهم مجتهدون ، والمجتهد الذي يتفيأ في اجتهاده ظلال الاسلام ، ويتبّع اصوله ، ويترسّم مناهجه ، ويتوخّى الادلّة الصحيحة في تعرّف احكامه ، لاشك في عذره ولا ريب في أجره ، وقد ثبت بالادلّة ان له اجرين كاملين اذا هو أصاب ، واجراً واحداً اذا أخطأ ، وبعد فاننا قد تجنبنا ذكر المذاهب في اوّل حديثنا ، فما بال أخي يرغب ان يعود بنا اليه .

فضحك صاحبي ضحكة طويلة ، ثم صلينا وزدنا وودّعته بعد ذلك محمودا .

* * *

أخي : وقد تريد من السؤال : لماذا خصّصت الشيعة موضع الجبهة وحده بهذا الاشتراط ، من بين سائر الاعضاء التي يقع عليها السجود ؟.

ووجه التخصيص واضح لا يخفى على أمثالك ، ومن أجل وضوحه فاني أستبعد أن يكون هو المراد من السؤال ، وانما أذكره انا لمجرد الاحتمال.

والوجه في ذلك : ان الجبهة هي العضو الذي تتقوّم به حقيقة السجود ، فاذا وضعت الجبهة على الأرض تحقّق مفهوم السجود ، وإذا لم توضع هي لم يتحقق ، وأمّا أعضاء السجود الأخرى فانما هي واجبات وليست مقومات.

ومن أجل هذا الفارق الواضح ، فالادلة المتقدّمة كلّها انما نظرت الى الجبهة وحدها ، لا إلى الأعضاء الأخرى ، وبعضها صريح في ذلك ؛

ومن أجل هذا الفارق قام الاجماع على عدم اشتراط هذه الشرائط في غير الجبهة من جميع المسلمين ، والأمر في الركبتين أشدّ وضوحاً ، فان السجود عليهما في الأحوال المألوفة بين الناس انمّا يكون على ما يسترهما من الثياب ، وسترهما في الصّلاة مستحب في فقه أهل البيت (ع) ، وواجب عند بعض المذاهب الاخرى .

• • •

وسألت ثالثاً وأخير : متى بدأ السجود على التربة الحسينية ، وكيف صحّ ذلك ؟ .

أخي الكريم : قدّمت لك في جواب المسألة الثانية : ان الواجب في السجود عند أهل البيت (ع) أن يكون على موضع طاهر من الارض ، أو على شيء طاهر من نباتها ، على أن لا يكون مما يأكله الانسان او مما يلبسه ، وقد ورد في تعليل ذلك عن الامام الصادق (ع) : ان السجود خضوع لله عزّ وجلّ فلا ينبغي ان يكون مما يؤكل ويلبس ، لأن أبناء

الدنيا عبيد ما يأكلون ويلبسون ، والساجد في سجوده في عبادة لله عز وجل ، فلا ينبغي أن يضع جبهته في سجوده عليها .

وأشرت هناك الى أن هذا هو الثابت من صحيح السنّة عن الرسول (ص) ، وعلى ادنى التقادير فهذا هو سبيل الاحتياط ، بعد حصول الاختلاف بين المسلمين في صحّة السجود على ما عدا ذلك .

وبعد هذا كله – وقد علم أخي أنني إنما أشير الى أدلّة القول اشارة بلا تفصيل ولا استيعاب – فلا لوم على مسلم يريد أن يكون محافظاً على صلواته – وكل مسلم يجب عليه ان يكون محافظاً عليها ، وقد قال سبحانه في كتابه الكريم : (والذين هم على صلواتهم يحافظون) (٩ : المؤمنون) – اقول : لالوم على المسلم في أن يعدّ لصلاته شيئاً يصحّ السجود عليه بالاتّفاق ، من أجزاء الأرض الطاهرة ، أو من نباتها الذي تجتمع فيه الشروط :

لا لوم عليه في أن يعدّ ذلك الشيء ، ويحمله معه ليسجد عليه متى صلى على الفرش المألوفة ، المصنوعة من الصوف او الوبر أو القطن ، أو على مكان لا تتوفر فيه شرائط السجود ، كالامكنة المزفّتة او المبلّطة بالحجر الصناعي أو المعدني ، ممـا خرج عن اسم الأرض ، وان كان في أصله منها ، وقد كانت للرسول (ص) خمرة أعدّها لسجوده ، وقد تكرّر ذكرها في الأحاديث الصحاح .

فقد اخرج البخاري في باب الصلاة على الخمرة : عن عبد الله بن شداد ، عن ميمونة ، قالت : كان النبيّ (ص) يصلّي على الخمرة .

وأخرج في آخر كتاب الحيض : عن عبد الله بن شداد قال : سمعت

خالتي ميمونة زوج النبي (ص) : أنها كانت تكون حائضاً لا تصلي ، وهي مفترشة بحذاء مسجد رسول الله (ص) وهو يصلي على خمرته ، اذا سجد اصابني بعض ثوبه . وأخرج حديثاً آخر قريباً منه في المعنى ، في باب اذا أصاب ثوب المصلي امرأته اذا سجد .

وأخرج هـذا الأخير مسلم في باب جواز الجماعة في النافلة والصلاة على حصير وخمرة .

وأخرج في باب جواز غســل الحائض رأس زوجها : ... عن القاسم بن محمد ، عن عائشة ، قالت : قال لي رسول الله (ص) ناوليني الخمرة من المسجد ، قالت : فقلت : اني حائض ، فقال : إن حيضتك ليست في يدك ، وأخرج بعده حديثاً آخر قريباً منه في المعنى .

وأورد ابن الاثير في كتاب النهايــة من حديث أم سلمة ، قال لها النبي (ص) وهي حائض : ناوليني الخمرة .

وذكر الخمرة أحمد ، وابو داود ، والبيهقي ، وغيرهم ، وأوردوا فيها عدّة أحاديث .

والخمرة – على ما يقول العلامة ابن الاثير في كتاب النهاية – : مقدار ما يضع الرجل عليه وجهه في سجوده من حصير ، أو نسيجة خوص ونحوه من النبات ، ولا تكون خمرة الا في هذا المقدار ، وسميت خمرة لان خيوطها مستورة بسعفها .

ويقول العلامة جلال الدين السيوطي في تلخيص نهاية ابن الاثير : الخمرة شيء منسوج يعمل من سعف ، على قدر ما يسجد عليه المصلي او

فويق ذلك ، فان عظم حتى يكفي الرجل لجسده كله فهو حصير وليس بخمرة ، قاله ابو عبيد .

لا لوم على المسلم في أن يقتدي بعمل نبيّه (ص) ، فيعدّ لصلاته شيئاً طاهراً مما يصحّ عليه السجود ، سواءً أكان من النبات ، كهذه الخمرة التي اتخّذها الرسول (ص) ، أم كان من خالص الترّاب ، كهذه التي يتخّذها الشيعة لصلواتهم ، وقد ورد في الصحيح عن الامام الصادق (ع): السجود على الأرض أفضل لأنـّه أبلغ في التواضع والخضوع لله عز وجل.

ولا سيّما اذا كانت تلك الأرض قد أطلّت عليها دمـــاء زكيّة في الجهاد في سبيل الله ، وتناثرت عليها أشلاء شهـــداء قاموا لنصر الله ، وأخلصوا في اجابة دعوته ، وجاهدوا لإعلاء كلمته .

ولا سيّما إذا كان المستشهَدون على ذلك الصعيد هم آل محمـــد ، المطهرون بنص الكتـاب ، الذين شروا أنفسهم وأموالهم لله ، فوفى لهم بعهده ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعهم الذي بايعوا به ، وذلك هو الفوز العظيم .

ان السجود على هذا الترّاب الزكي ، الذي شهد ألواناً رفيعة في مجالي الخضوع لله تعالى ، والعبودية الخالصة له ، والتفاني الشديد في سبيله ، ان السجود على هذه التربة يضاعف للمصلي خضوعه لربه ، ويمثّل بين عينيه صفوف الخاشعين الراكعين بـــين يدي الله ، تتناهبهم السيوف وتتوزعهم الأسنة ، وهم مقبلون ، صابرون مصابرون ، لا تختلج ألسنتهم بغير ذكر الله ، ولا تخفق قلوبهم الا بحبه ، ولا تتعلق أمانيهم الا باعزاز دينه وابتغاء مرضاته ،

فيقتدي بهم في شدة الخشوع لله ، وبالغ الانقطاع اليه ، ويتمنى مثل موقفهم في الجهاد بين يديه .

نعم ، وهذا هو معنى الحديث الذي رواه الديلمي في كتاب الارشاد : كان أبو عبد الله (ويعني به الامام الصادق (ع)) لايسجد الا على تربة الحسين (ع) ، تذللاً لله واستكانة اليه ، وهذا هو معنى الحديث الذي أخرجه الشيخ الطوسي في كتاب المصباح : عن معاوية بن عمار ، قال : قال الصادق (ع) : ان السجود على تربــة ابي عبد الله (ع) يخرق الحجب ، والمراد بالحجب : الموانع التي تلمّ بالانسان فتحجبه عن الاخلاص في العبادة ، وهذا هو المراد من الأحاديث التي وردت عن اهل البيت (ع)، بالامر باتّخاذ التربة والسجود عليها .

اخي الكريم : هكذا بدأ السجود على التربة الحسينيّة ، وهكذا صحّ .

بدأ السجود عليها وصحّ لأنها جزء من الأرض ، والأرض أفضل ما يسجد عليه المصلي باتّفاق المسلمين .

وبدأ السجود عليها وصح لان الرسول (ص) اتّخذ خمرة يسجد عليها ، وهذا إذن منه للمسلمين في أن يتخذوا لصلواتهم شيئاً معيناً يسجدون عليه من اجزاء الأرض ، أو من نباتها الذي يصح السجود عليه .

وبدأ السجود على التربــة واستحب ، لأن السجود عليها يضاعف الخضوع لله ، ويمكّن للعبد الاخلاص في العبادة .

وبدأ السجود على التربة واستحب ، لأن الائمة من اهل البيت أمرت به ، ودعت اليه ، وواظبت عليه ، وأوضحت تلك المعاني المتقدّمــة التي

يبلغها المصلي بسببه .

اما أوّل من صلى على التربة من أئمة المسلمين ، فهو الامام علي بن الحسين زين العابدين (ع) ، فقد أخـذ من تربة أبيه الحسين (ع) قبضة ، وعمل منها سجّادة لصلاته ومسبحة لتسبيحه ، وتلاه أولاده وأحفاده من أئمة اهل البيت ، وعنهم اخذت شيعتهم وبهم اقتدت .

وارجع – اذا شئت – الى كتاب (الخصائص الكبرى) للعلامـة السيوطي ، في باب إخبار النبي (ص) بقتـل الحسين (ع) ، لتعرف موقع هذه التربة الحمراء من الرسول (ص) .

اقرأ جميع ذلك ، وفي الكتاب المذكور ما يناهز عشرين حديثـاً ، يرويه عن أكابر الثقات ، اقرأ ذلك ، وفكّر في هؤلاء الرواة وفي ماروَوا ، واقرأ كذلك ما قدمته اليك في رسالتي ، ثم احكم بنفسك لنفسك ، غير متّهم ولا مردود .

اخي : لقد أوجزت الحديث ، لأن أعمالي التي أومأت اليها في ابتداء الرسالة تمنعني عن الاطالة ، وأرجو أن تجد في ما حررته لك كفاية .

والى الله سبحانه أضرع : أن يجمع كلمة المسلمين ، ويؤلف شتاتهم ، ويشدّ أزرهم ، ويرفع امرهم ، ويقرّ عين الرسول (ص) بوحدتهم ، ويرفع الغلّ من صدورهم ، انه ارحم الراحمين .

وختاماً اقدم لأخي أوفر التحيات ، واطيب الأماني ، واجمل الثناء ، واجزل الدعاء ، وتحياتي الكثيرة لمن يعز عليكم من الاخوان في الله .. وسلمتم .

السؤال الذي قدمه الأديب الفاضل الشيخ عبد الزهراء الصغير :

قد سألت الفقيه عن كنه ذاتي
كيف اوجدت ؟ . . كيف ابغث رمة ؟ !
ولماذا نفنى زهوراً . . وبعض
بالتمادي قد غيّر الدهر رسمه ؟
ولماذا نهوى الرقاد وانّا
قد كرهنا من واقع الموت إسمه ؟
فغدى الشيخ في سكون وصمت
طبع الحصر فوق شدقيه ختمه
ولذا للاديب يمت وجهي
ليريني من ثاقب الرأي علمه

مداعبة صديق . جواب القرآن الكريم . هذا السؤال ليس جديداً . السؤال بذاتـــه اتجاه الى علة واعتراف بخلق . كيف اوجدت ؟ . طريقان لا ثالث لهما . ازليـــة المادة وابتداء الحياة . المصادفة . يمتنع ان تكون المادة أزلية . القانون الثاني من قوانين الديناميكاالحرارية . هكذاعرفت كيف أوجدت وكيف أبعث . كل شيء منوط بحكمـــة . الموت كالحياة .

٢٦

بغـــداد

اخي ابا عزّ الدين . . سلمت ، وسلم لك ادبك ومواهبك .

تحية الاخـوّة في الله ، وولاء الايمان به ، وتكريم الدعوة الى دينه .

اخي : قدّمت اليّ سؤالك في من قدّمته اليه من الادباء ، ولابدّ وأن تكون خلعت عنيّ ثوب الفقه قبـــل أن تقدّم السؤال اليّ ، لانك قدمته الى الفقيه فعجز عن جوابك – كما تقول في أبياتك الجميلة – ، ثم أوليتني الثقة التي أوليتها للادباء ، فقدّمته الي في عدادهم . وانا احتجّ اولاً حيث نزعت عني ثوباً أعتزّ به ، وأتسامى بان اكون من اهله ، ثم اشكر ثانياً ، حيث اوليتني ثقة ارجو من الله ان يجعلني لها اهـــلاً ،

والدعوة الى الله وذبّ الشبهات عن دينه ، هي غاية المؤمن الصحيح ، بأي الاثواب بلغها وباي الاسماء سعى اليها .

اخي — وائذن لي ان ابدأ حديثي معك بهزل يشبه الجد ، اوجدّ يشبه الهزل ، — كما يعبّر اساتذتنا الادباء القدامى — : من هذا الفقيه الذي القيت اليه سؤالك هذا (كيف اوجدت ؟ كيف ابعث رمة ؟) ، فغدى في حيرة وصمت ، ولم يدر بخلده — على ادنى التقادير — ان يقرأ لك إحدى معجزات القرآن في جواب هذا السؤال ؟! وهي كُثر وُفر في الكتاب الكريم ، وهذه واحدة منها:

(ياايها الناس ان كنتم في ريب من البعث ، فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلّقة وغير مخلقة ، لنبيّن لكم ، ونقرّ في الارحام ما نشاء الى اجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم . ومنكم من يُتوفى ، ومنكم من يردّ الى أرذل العمر ، لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الأرض هامدة ، فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت وانبتت من كل زوج بهيج . ذلك بان الله هو الحقّ ، وانه يحيي الموتى ، وانه على كل شيء قدير . وان الساعة آتية لاريب فيها ، وان الله يبعث من في القبور) . (٥ ـ ٧ : الحج) .

هكذا اتلوها معك تلاوة ، دون تعليق او تفسير ، وخصوصاً بعد ان كشف العلم من عجائبها الشيء الكثير .

من هذا الفقيه الذي القيت اليه هذا السؤال ، فلم يملك مثل هذا الجواب ؟ ! .

أما ان يكون قرأ لك بعض اجوبة القرآن عن سؤالك ، ثم تدعي

عليه الحصر والبكم ، فهذا امر لا اعتقد ان يكون .

اقرأ الآيات السابقة مرة اخرى ، تجدها جواباً لك عن اكثر النقاط التي تساءلت عنها ، حتى عن قولك :

ولماذا نفنى زهوراً وبعض   بالتمادي قد غيرّ الدهر رسمه

وبعد ، فمالي وللفقيه الذي سألته ثم وصمته بهذه الوصمة ؟ ، ولعله يشبه شيوخ الدير الذين القى اليهم ايليا ابو ماضي نظير هذا السؤال ، ثم آب عنهم كما وفد عليهم ، وهو حائر ليس يدري ! .

ولكنني احاول ان أقول : ان الذي يملك من الأرصدة الفكريّة ما يملكه المسلم من كتابه العظيم ، لا يستعصي عليه جواب هذا السؤال ، كما استعصى على شيوخ الدير ، الذين مرّ بهم شاعر الطلاسم .

وهذا السؤال – كيف اوجدت ؟ كيف ابعث رمة ؟ – ليس جديداً في التاريخ ، ولا مختصاً باحد دون احد من الناس ، فقد عرفه اوّل انسان ملك القدرة على التفكير ، ثم عرفه كلّ انسان ذي فكر ، وسيظل يراود كل فكرة ، ويبقى ما بقي مفكر ، حتى كأنه فريضة حتمية على الانسان ، لابد له من ادائها ، فلا محيد له من ان يسأل هذا السؤال وان يفكر فيه ، ويطلب الحل الوجيه له .

وسواء اهتدى الانسان الى الحل الصحيح ام لم يهتد ، فان لهذا السؤال جدواه وله دلالته ، فهو لم يعرض للفكر البشري ، ولم تكن له هذه الاصالة وهذا الشمول هكذا اعتباطا ، ومحال او شبيه بالمحال ، ان تتطابق افكار الناس كلهم ، من اولهم الى آخرهم ، ومن اقصاهم الى اقصاهم ،

على هذا التساؤل ، وعلى هذا البحث ، دون ان يكون لذلك سبب اصيل يوجّه الافكار والعالمين كلهم هذا الاتّجاه .

ومن موائز هذا السؤال هذا العناد الملحوظ فيه ، فهو يلحّ على الانسان ويلحف ، ويتنوّع في الصيغة ، ويتنوّع في الاسلوب ، ولا يهدأ ولا يخفّ الحاحه ، ولن يقر ابداً حتى يظفر بالاجابة الصحيحة التي يقتنع بها الانسان ويثلج لها صدره .

واذن فللسؤال مبعث أصيل في ذات الانسان وفي اغوار طبيعته ، ومن أجل ذلك كان له هـذا العمق ، وهذه الاصالة ، وهـذا الشمول للانسانية جمعاء ، ثم هذا الالحاح العنيف .

واذن فانبثاق السؤال في طبيعة الانسان على هذا الشكل وهذا العمق هو بذاته أحد الاسانيد للاجابة الصحيحة عليـه ، فهو صدىً لفطرة ، واتّجاه عميق الى علّة ، وهو بالتالي اعتراف ذاتي بخلق .

ولا اطيل ولا افصّل ، فلا استحبّ هنا ان اكون فيلسوفاً ، وقد قدّم اخي سؤاله اليّ على ان اكون اديباً ، وموعدي في هذا البحث مقدمة كتابي : (التوحيد في القرآن)

* * *

كيف اوجدت ؟ كيف ابعث رمة ؟ .

هكـذا يبتدىء السؤال ضيّقاً محدوداً عن بداءة هـذا الانسان وعن نهايته ، والانسان أرقى نماذج الطبيعة التي أنتجها معمل الكون ، فاذا استطاع بوجه ما ان يعلل مبدأه ونهايته ، فقد استطاع أن يتعرّف على مبدأ هذا

الكون كله ونهايته .

كيف اوجدت ؟ .

لقد وجدت ولم اك شيئاً ، فانا لم اوجـــد نفسي ، وابواي اللذان ولدت منهما مثلي في ذلك ، والناس الآخرون الذين سبقونا او عاصرونا في الوجود كلهم مثلنا ، فالانسان لم يوجد نفسه ، فكيف اوجد ؟ .

ثم لنفترض ان الانسان انحدر من سلالات اخرى سبقتـــه في سلسلة التطور - وان لم يقم على صحة هذه النظرية دليل علميّ متين - ، لنفترض ذلك كي يمتد السؤال بايدينا ويتسع ، وحتى ننظر في صدق بعض النتائج التي يحمّلها بعض الناس على هذه النظرية .

والسلالات الحيوانية التي سبقت الانسان بالوجود ، كلها مثله حدثت بعد ان كانت معدومة ، فهي لم تخلق نفسها ، حتى الخليّة البسيطة التي زعموا انها خليّة الحياة الاولى .

فالحياة كلها نشأت بعد العدم ، وهي لم تخلق ذاتها ، ومن بدهيات العقل التي لا يرتاب فيها احد ، انه لا شيء يحدث من لا شيء ، فكيف اوجدت الحياة ؟ .

وامامنا طريقان لا ثالث لهما ، فلننظر أيهما احرى بالسلوك ؟ .

الطريق الأول : ان نعتبر المادّة قديمة ازلية ، لا ابتداء لوجودها ، ويتبع ذلك فلابد لنا من ان نعتبر القوانين الطبيعية التي تحكم المادة وتوجهها ، قديمة ازليّة كذلك ، وأولى مشكلة عصية الحـــل تعترضنا في هذا الطريق مشكلة ابتداء الحياة ، كيف تنشأ الحياة من الجماد ؟ . والقائلون بأزليـــة

المادة لم يأتوا في حل هـــذه المشكلة بشيء يحترمه الفكر ، ويعترف به العلم .

زعموا ان الحياة جاءت اول مرة نتيجة مصادفة سعيدة ، التقت فيها عناصر معينة بمقادير محدودة في وقت مناسب وفي بيئة مناسبـــة ، فكانت الخلية الاولى التي بدأت منها الحياة .

وهذا القول يعتمد على دعويين ، كلتاهما تفتقران الى تمحيص .

وقد نظر العلم في العناصر الجامدة : هـــل فيها ما يمكن ان يتألف فينتج حياة ؟ ، وبحث ، وجرّب ، وهيأ الجو الصالح ، والبيئة الصالحة والفرص والشروط والمناسبات ، ولاحظ وصابر ، فلم يفـــد شيئاً ، وهو لا يزال يبحث ويجرّب ويهيء ويصابر ، ولعله لا يفيد شيئاً كذلك ، ولعله يفقد حتى الامل .

يقول العالم البيولوجي الكبير الدكتور (رسل تشارلزارنست) : لقد وضعت نظريات عديدة ، لـكي تفسر لنـــا كيف نشأت الحياة من عالم الجمادات ، فذهب بعض الباحثين الى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين ، او من الفيروس ، او من تجمع بعض الجزيئات البروتينية الكبيرة ، وقد يخيل الى بعض الناس ان هذه النظريات قد سدّت الفجوة التي تفصل بين عالم الاحياء وعالم الجمادات ، ولكن الواقع الذي ينبغي ان نسلم به هو ان جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحيّة من غير الحيّة قد باءت بخذلان وفشل ذريعين . « انظر ص ٧٩ من كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) » .

هذه قيمة الدعوى الاولى التي يعتمد عليها القول الآنف الذكر .

اما المصادفة ، وهي الدعوى الثانية التي يعتمد عليها ذلك القول ، فان العلماء الرياضيين قد درسوا نظرية المصادفة والاحتمال ، دراسة دقيقة مستوفية ، ووضعوا لها اسساً رياضية مبتنية على الارقام ، واصبح من الميسور لديهم - بمراعاة هذه الاسس - ان يميّزوا بين ما يمكن من المصادفات وما يستحيل ، وان يحدّدوا - في ما يمكن منها - درجات قربه من الوقوع واللاوقوع ، ويصدروا في جميع ذلك احكاماً هي اقرب الى الصواب .

وعلى هذه الاسس - التي قرروها - نظروا في المصادفة الخاصّة التي ادّعيت في نشأة الحياة .

وقد نظروا في هذه المصادفة بمقدار تنتج جزيئاً بروتينياً واحداً فحسب ، لا بمقدار تنتج خلية كاملة الاجزاء والحياة ، فان حساب ذلك ليس بمستطاع ، (والبروتين احد المركبات الاساسية في كل خلية حية) .

فعدّوا ما يحتمله حصول هـذه المصادفة من فرص ، وما يلزم ان تتوفّر لحدوثها من عناصر ، وما يتطلبه خلط تلك العناصر خلطاً مستمراً من برهة زمنيّة ، حتى يحدث التفاعل ، ثم ما يمكن ان تتألف به ذرّات ذلك الجزيء البروتيني الواحد من الطرق :

فكانت الفرص المحتملة لتكوّن الجزيء البروتيني الواحد هي عشر مضروبة في نفسها (١٦٠) مرة ، وهو على ما يقولون عدد لا يمكن التعبير عنه بكلمات.

وكانت المادة التي يلزم ان تتوفر لتكوّن ذلك الجزيء بالمصادفة ، اكثر مما يتسع له هذا الكون بملايين المرات .

وكانت البرهة الزمنيّة التي يقتضيها خلط تلك المادة خلطاً مستمراً ،

حتى يحصل التفاعل بالمصادفة بين ذرات ذلك الجزيء الواحد ، هي عشر مضروبة في نفسها (٢٤٣) مرة من السنين .

وكانت الطرق التي يمكن ان تتألف بها ذرات ذلك الجزيء الواحد ، هي عشر مضروبة في نفسها (٤٨) مرة .

والفرصة المنتجة في كل واحد من العوامل الآنفة الذكر ليست الا بنسبة الواحد الى تلك الاعداد الهائلة منها ، فاذا نحن ضربنا هذه الاعداد الضخمة بعضها ببعض ، لنحصل على مجموع الاحتمالات ، كان الناتج منها هولاً في هول ، والفرصة الصحيحة المنتجة ، هي واحدة فقط من كل هذه الأعداد .

هكذا عدّوا الفرص والاحتمالات لهذه المصادفة ، واستنتجوا من ذلك : ان تألف هذه الفرصة الواحدة من بين هذه الأعداد البالغة الهول محال عقلاً ، وانظر اذا شئت كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) ، الذي اشترك في تأليفه ثلاثون عالما من كبار علماء الطبيعة ، وكتاب (مصير البشرية) للفيلسوف الشهير (ليكونت دي نوي) .

وقال بعضهم : ان خلية الحياة وفدت الى الارض من كوكب آخر مجهول ، وكان وفودها الى الأرض من باب المصادفة ، وكان وفودها في وقت اصبحت الأرض صالحة لاحتضان الحياة ، وهو من باب المصادفة كذلك .

وخروج هذه الخلية من ذلك الكوكب المجهول لابد وان يكون نتيجة مصادفات كذلك ، ثم خروجها من حكم جاذبيته ، وتوجهها نحو الأرض ، وإفلاتها أو ابتعادها من جاذبيّات الكواكب الاخرى ، لابدّ وان تكون

نتائج مصادفات كثيرة لا عداد لها .

ثم هي لابد وان تكون قد قطعت في رحلتها الى الارض مآت من السنين - ان لم تبلغ الالوف والملايين - ، واحتفاظها بالحياة وبالمناعة الذاتية ضدّ الطوارىء والمزاحمات طوال هذه المدة وعبر هذا الطريق ، لابد وان يكون نتيجة مصادفات ومصادفات ومصادفادت .

وهكذا نجدهم يلجؤون من مصادفة الى مصادفة ابعد ، ومن إحالة إلى إحالة اشد .

ووفود خلية الحياة من كوكب آخر لا يقطع التساؤل ، فان هـذه الخلية الوافدة حادثة مسبوقة بالعدم من غير ريب ، وهي لم تخلق نفسها ، فكيف اوجدت ؟ .

والحياة التي تسلسلت منها الخلية على ظهر ذلك الكوكب المجهول ، اذا لم يكن لها خالق فلابد وان تكون مستندة الى المادة الازلية ، وتعود المشكلة الاولى ، مشكلة نشأة الحياة من الجماد . الا ان يقولوا بوفود خلية الحياة من كوكب ثالث ، وهكـذا الى الأزل ، فتتضاعف المصادفات ، وتتضاعف الاحالات .

* * *

والمشكلة الثانية التي تعترض القول بازلية المادة ، مشكلة الازلية ذاتها ، وهي تعترض كذلك ازلية الحياة ، ان يقول بها قائل .

وهي مشكلة اساسيّة عصيّه الحل ، وقد تآزر عليها العقل والعلم ، ونظر فيها كل من ناحيه اختصاصه ، وخرجا بنتيجة واحدة مشتركة .

اما العقل ، فقد رأى ان المادة والحياة ممكنتا الوجود ، والممكن هو الشيء الذي لا يجب – لذاته – ان يكون موجوداً ، ولا يجب – لذاته – ان يكون معدوماً ، بل هو قابل لها ، والمعنى الصريح لذلك : ان الممكن لا يوجد من تلقاء ذاته ، وانما يوجد بسبب خارج عنه يؤثر فيه ، واذا كانت الماده والحياة لا تتصفان بالوجود لذاتها ، فكيف تتصفان بأزلية الوجود ؟ .

واما العلم ، فانه درس الحرارة دراسة مستوعبة ، وقسّم الطاقة الحرارية الى طاقة ميسورة وطاقة غير ميسورة ، ثم كشف ان ايّ تغيرّ حراري يحدث ، فلابد من تحوّل جزء من الطاقة الميسورة الى الطاقة غير الميسورة ، وانه لا سبيل الى العكس ابداً ، فلا يتحوّل جزء من الطاقة غير الميسورة الى الطاقة الميسورة بوجه من الوجوه ، وقد سمّي هذا القانون بالقانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية .

ثم اثبت ان ذلك قانون كوني عام ، ولا يختصّ بالحرارة ، فكل تغير أو تحوّل طبيعي ، فلابد وان يصحبه تحلل او نقص في النظام الكوني :

ونتيجة هذا القانون : ان الكون سائر لا محالة الى الفناء ، فلابدمن ان تنعدم الطاقة الميسورة فيه ، وتصل الحرارة الى درجة الصفر المطلق ، وعندها فلا حياة ولا طاقة .

واذا كانت هذه هي النهاية المحتومة للكون ، فمن المحال ان يكون ازليّاً ، لانه لو كان ازليّاً لكانت هذه النهاية قد تحققت منذ أمد بعيد :

واذن ، فالمادة ليست ازلية ، والحياة ليست ازلية ، بحكم العقل وحكم

العلم ، واذا لم تكونا ازليتين ، فلابد وان يكون لهما خالق ، نعم وهذا هو الحل الوحيد لمشكلة الايجاد .

والنظام الرتيب العجيب الذي نحسّه في موجودات هذا الكون كافّة ، فكل موجود لغاية ، وكل حركة لميقات ، وكل شيء بمقدار ، ان الفكر السليم لا يشك ابداً في ان له مبدعاً منظماً ، اوجده بحكمة ، ودبّره بعلم واتقان ، والانسان – كما قلت في اوائل رسائلي هذه – ارقى نماذج الطبيعة التي انتجها معمل الكون ، ان الفكر السليم لا يشك ابداً في ان موجده له منتهى الكمال ، ومنتهى الحكمة ، ومنتهى العلم ، ومنتهى الاحاطة .

واخيراً فموجد الكون يجب ان لا يكون مادياً ، لانه لو كان مادياً لوجب ان يخضع للقانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية ، فتكون له نهاية محتومة ، وبتبع ذلك فلا يكون ازلياً ، ويكون بدوره محتاجاً الى موجد.

اخي ابا عز الدين :

هكذا عرفت كيف اوجدت ، وهكذا اعرف كيف ابعث رمة .

ان باعثي بعد ان اكون رمة ، هو موجدي بعد ما لم اكن شيئا مذكوراً ، وان جامع اجزائي واعضائي بعد أن تتمزق وتتفرق ، هو مكون خلاياي من عناصرها ، ومركّب عناصري من ذراتها ، ومؤلف ذراتي من جزيئاتها وان معيد حياتي في جسدي بعد الموت ، هو نافخ الحياة في مادّتي الجامدة عند نشأتي الاولى ، لم ينقص علمه ، ولم تضعف قدرته ، ولم تقصر حكمته ، والقادر على الابتداء قادر على الاعادة .

هكذا يقول لي عقلي ، فاجد شواهد التكوين في نفسي ، وفي الكون

العظيم الذي يحتويني ، بينات واضحة على صدق ما يقول .

ثم اقرأ معي ان شئت : (او لم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ، قال : من يحيي العظام وهي رميم ؟ . قل : يحييها الذي انشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً ، فاذا انتم منه توقدون ، او ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على ان يخلق مثلهم ؟ ، بلى وهو الخلاّق العليم) . (٧٧ ـ ٨١ : يس) .

ونظرتِ في شؤون وجودي ، فرأيت ان حكمة خلقي لا تكمل الا ببعثي ، وان اقامة العدل الكامل في هذه الحياة ، لا تكون الا بتوفيتي جزاء اعمالي ، فآمنت بوجوب البعث ووجوب الجزاء ، وما دام كل شيء منوطاً بحكمة ، ومتجها الى غاية ، فان كمال الفرد البشري لا يتم الا بنشأة اخرى ، وان غاية التكليف لا تكمل الا باعداد جزاء وتوفية حساب ، وصدق الله العظيم اذ يقول : (افحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لاترجعون ؟ ، فتعالى الله الملك الحق ، لا آله الا هو رب العرش الكريم) (١١٥ ـ ١١٦ : المؤمنون) .

* * *

اخي :

وما دام كل شيء منوطاً بحكمة ومرتبطاً بقانون ، والعلم الكوني الحديث وفروعه وكشوفه ونظرياته ، كلها ادلّة على صدق هذه الدعوى ، والناس كلهم مطبقون على الاعتراف بها ، ولا يشكّك فيها منهم احد ، اقول :

وما دام الأمر أمر حكمة وقوانين ، جرت عليها سنة الله في التكوين فليس من الحق ان نتّهم حكمة الحكيم اذا اخفي علينا الوجه في بعض اعماله ، وليس من الوهن ان يقف الانسان المحدود القدرة ، المحدود الادراك ، عند السفح اذا لم يستطع ان يبلغ القمّة ، وقد وقف العلم عند كثير من الظواهر يستطرق الابواب ويطالب الاذن ، فإمّا يفتح له الباب فيدخل ، واما يبقى موصداً في وجهه فينصرف ، ليس من الوهن ان يصنع الانسان كذلك ، ولكن الوهن ان يقتحم ثم يتّهم .

بلى ، من الحق له ان يسأل عن وجه الحكمة الذي خفي عليه ، وسواء استعصى عليه جواب المسألة ام سهل ، فهو مسلم موقن بحكمة الحكيم ، وان خفيت عليه .

من الحق له ان يقول مسترشداً :

ولماذا نفنى زهوراً وبعض بالتمادي قد غيّر الدهر رسمه

وقد أقامت الحكمة بناء هذا الكون وفق قوانين ثابتة ، وأطلقت احكامها في الاشياء ، فلا يتعدّى شيء قانونه ، ولا يتخلّف عنه ، ومن اهمّ القوانين الكونية قانون الاسباب والمسببات ، فقد اناطت القدرة الخالقة كل شيء بسببه ، وعقدت ما بين كل سبب ونتيجته ، فمن المحال ان يوجد شيء بدون سببه ، ومن المحال ان تتخلّف نتيجة عن سببها التامّ .

والعالم المادي عالم يزخر بالاضداد والمتزاحمات ، وتبعاً لذلك ، فقد يوجد سبب ما لشيء من الاشياء ، او لكمال من الكمالات ، او لغاية من الغايات ، وقبل ان يتمّ ذلك السبب ، وقبل ان يستكمل تأثيره في النتيجة ، يزاحمه

ما يضادّه ، فيمنعه عن التأثير ، ويحول ما بينه وبين الأثر ، فيموت انسان وهو طفل او جنين ، ويحيي انسان حتى يردّ الى ارذل العمر ، وحتى يغيرّ الدّهر رسمه ، والحكمة العامّة التي سبّبت الاسبــاب ، ووضعت القوانين للنظام العام ، هي الحكمة ، لم تتغير ولم تضعف .

اما الحكمة الخاصّة ، فلها شؤون خاصّة بين الله وعبده يوفّيه إياها كاملة غير منقوصة .

* * *

والموت كالحياة تقدير وتدبير ، وحكمة سامية المعنى بعيدة الغور والحدود ، للنوع الانساني وللفرد معاً ، ووجه الحكمة ظاهر لا خفاء فيه ، ولعل أخي لذلك لم يتعرض له في السؤال .

انظر ما لو استمرت الحياة في عشرة اجيال او عشرين جيلاً من الناس ، فكيف تتيسر لهم الاقامة والمعيشة على ظهر هــذا الكوكب ؟ ، وقد انتشرت في الآونة الاخيرة بين الناس فكرة عن ضائقة اقتصاديّــة موهومة ، فحكم بعض المفكّرين بوجوب تحديد النسل ! .

ثم انظر ما لو استمرت الحياة بالفرد ، حتى تجاوز الحدّ الذي يغيرّ الدهر فيه رسمه ، فماذا ينتفع هو بهذه الحياة ، وماذا ينتفع بها الآخرون ؟ .

امّا حديث النوم والموت ، واننا نحب النوم ونكره الموت ، فليسمح لي اخي ان اقول له : إنه ليس من صميم المشكلة ولا من حواشيها ، فالنوم يحبّه الانسان لانه راحة طبيعية مؤقتة ، يلجأ اليها ليعوّض بها ما يفقده جسمه من طاقات اثناء يقظته وعمله ، ثم ينتبه وهو موفور الطاقة متجدّد النشاط ،

وهو يكره الموت لانه مفارقة حياة حبيبة ، وورود على مستقبـــل حالك رهيب ، شديد الرهبة والظلمة ، والموت ذاته غامض في فكرة الانسان ، شديد الغموض ، وغموضه هذا يضاعف من وحشته ووقعه على النفوس .

ان هذا الحديث ليس من صميم المشكلة ولا من حواشيها ، ولذلك فحب النوم وكراهة الموت لا يختص بهما فريق معين من الناس ، مهمـا كانت فكرته او عقيدته في المبدأ والمعاد .

اخي : ارجو ان لا اكون اغمضت في بحث الموضوع ، وماذا اصنع للمصطلحات التي تدخل نفسها في طوايا الحديث ، وتأبى على الادب ان يحوّرها ؟ .

اما الشعر فقد راودته فاستعصم ، وأراه واجداً علي ، فقد هجرته منذ زمن طويل ، وختاماً اكرّر لك تحياتي واجدد اشواقي .

التيارات المتآزرة على حرب الاســلام . قادة الاسلام لا ييأسون . الغايات العظمى غالية الاثمان . ويطعمون الطعام على حبه . الابرار وأوصافهم . من انزلت فيهم الآيات. سبب النزول . مناقشة وجواب . زمن الحادثة . النتائج المترتبة عليها .

٢٧

بغداد – كلية الطّب ، ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٨٦ .

ولدي الزكي الأديب ... بلّغك الله الأمل وحقق فيك الأمنية :

تحية زكية وشوقاً متجدداً وذكراً طيّباً ، ومنــه سبحانه اسأل لك ولزملائك المؤمنين الأنجاب توفيقاً دائماً ، وسعادة موفورة ، ونظرة مسددة ، تجعلكم من دعاة الهدى ، وأدلّة الحق ، وتؤهّلكم لحمل الاعباء ، ونشر ألوية السّلام في ظل الاسلام .

بني : لعلك تعدّني قد ابطأت في جوابك كثيراً ، وان شهرين كاملين يمّران على وصول رسالتك الي لبرهة طويلة تكفي حجة لك على هذا القول .

ولكن شهرين فحسب ، فرصة قصيرة في ميزان مناهجي الخاصة التي اضطررت لوضعها لترتيب أعمالي ، ومن الله استمدّ العون والتوفيق لبلوغ

الغاية وتحقيق المنى .

ذكرت في رسالتك التيارات الفكرية المتلاطمة ، المتآزرة على حرب الاسلام ، واخماد صوته ، وابعاده عن قيادة الحياة ، ثم اقصائه أخيراً عن عالم الوجود . التيارات الكثيرة ، التي لم تدّخر قوة دون هذه الغاية ، ولم تأل جهداً ، ولم تترك وسيلة : (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله الا أن يتمّ نوره ، ولو كره الكافرون) . (٣٢ : التوبة) .

وما أيسر أمر هذه التيارات وان كانت كثيرة وشديدة ! وما أقل خطرها لو لم يكن من صميم مناهجها ، ومن أساليب حربها أن تسمم التربة !! .

أن تبذر في اذهان النشء انواع السموم ، وتوبئها بمختلف الأوبئة ، ثم تملأ الجو والماء بالجراثيم والطفيليات ، حتى تنعدم قابليـّة التّربة وتعود غير صالحة لغرس ، ولا قابلة لثمر .

ما أهون أمر هذه التيارات على الاسلام ! وما أضعف خطرها لو لم تكن هذه مناهجها وأساليبها ! ، فان بذور الاسلام تغرس مع الفطرة ، وافكار الاسلام تتسلسل مع الطبيعة ، وعقائد الاسلام تبتني على أسس التكوين ، وبراهين الاسلام وأدلته وشواهده ملء الكون ، وملء الطبيعة ، وملء الحياة ، وملء الفطرة ، وتشريع الاسلام من وضع خالق جميع هذه المقدرات : (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؟ ، ونحن له عابدون) (١٣٨ : البقرة) .

واي مبدأ من مبادىء الدنيا ، أو فلسفة من فلسفاتها ، أو دين من أديانها ، يملك مثل هذا الرصيد ، أو يقوم على مثل هذه الركائز ؟ .

انها – جميعاً – لن تستطيع أن تقف مع الاسلام على قدم ، ولن

تقوى أن تبدي له صفحة ، اذا كانت المحاكمة الى الحقائق الصحيحة ، والى الفكر الواعي السليم .

ولكن . ماذا يصنع قادة الاسلام ودعاته إذا أوبئت الأذهان وأوقرت الآذان ، فلم تع هتاف هاتف ، ولم تتفتّح لدلالة دليل ؟! .

نعم ، ولكن ليس معنى ذلك أن ييأس قادة الاسلام ودعاته ويخلدوا الى السكون .

كلّا . كلّا ، فمن طبيعة الحق أنه نيّر ثابت ، ومن طبيعة الايمان الصحيح أنه باسم متفائل ، فلن ييأس المؤمن الداعي الى الحق ، ولن يكلح ، ولن يتشائم ، ولن تتزلزل قدمه ابداً .

ان المؤمن ليشعر في أعماق أعماقه أن الكون والطبيعة والحياة كلها تسير معه في ركابه ، وتتّجه معه الى غايته ، وقد انحدرت معه من مبدئه ، ولذلك فهو متفائل ابداً وموقن بالظفر ، والأفكار والمبادىء والفلسفات الأخرى التي تخالفه ، انما تعاكس التيار الكوني العارم المنحدر معه عن المبدأ الحق ، المتجه معه الى الغاية الحق ، ولذلك فلا يمكن لها البقاء مطلقاً ، وان بقيت فالى أمد جدّ قصير .

ليس معنى ذلك أن ييأس قادة الاسلام ودعاته ويخلدوا الى السكون ، بل معنى ذلك أن يضاعفوا الجد ويضاعفوا الأهبة ، ويصبروا ويصابروا ويرابطوا ، والمدد من الله وحده .

ولقد إمتحنت دعوة القرآن في ابتدائها بقوم من أسلاف هذه الناس ، فأصمّوا آذانهم عن الحق ، وأوصدوا قلوبهم عن نوره وصرفوا أذهانهم

عن أدلته ، فأيأسهم القرآن من جدوى هـذه المحاولات ، فقال لهم : (افنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين) . (٥ : الزخرف) .

بلى ، وجهر القرآن بكلمته وأتمّ دعوته ، ومرّ الزمن وانحـدر التيار ، واذا بنور الحق يرتفع ويرتفع ، واذا بالظلمات المعتمة تنجاب وتنجاب ، واذا بالآذان الصمّ والقلوب الغلف والدعوات الماكرة تهوي وتهوي .

ولدي : أصغ الي فانك من الشباب الذين يعقد الاسلام عليهم الأمل ، ويعدّهم للمستقبل الزاهر القريب ، وأرجوا أن يكون لكلمتي هذه وقعها المجدي ، وأثرها البعيد ، والغايات الكبيرة والأهداف الضخمة ، لابدّ وأن يكون عبؤها كبيراً وثمنها غالياً ، ولكنها خفيفة رخيصة على ذوي الكفاءات ، إذا عرفوا قلّة ما يبذلون بازاء ما يقصدون .

والآية التي سألت عنها — ايها العزيز — والمقطع القرآني العظيم الذي يشتمل عليها ، يتضمنان نموذجاً رفيعاً من الأثمان الغالية التي يدفعها عظماء الدعاة ، حين يؤمنون بعظم الغاية ، فيدفعونها خجلين وجلين كأنهم مقصّرون .

وودت لو سمحت لي الفرصة فأفضت في الحديث حول هذا المقطع كلّه ، لأقدم لولدي شاهداً نموذجياً على هذا البذل العظيم .

وددت لو أفضت في هذا الموضوع حتى نتعرف مكامن السّر في عظمة العظماء ، ونتبين مواضع القـدوة من أعمالهم ، ثم نستعين الله على الاقتداء بها ، والاستضاءة بنورها ، اما الآن فحسبي أن أشير ، وأن أعتمد في تجلية هذه الاشارة على ذكاء ولدي .

عزيزي : تعرضت للآية الكريمة : (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً

ويتيماً وأسيراً) وسألت أولاً عن أبعاد الحادثة التاريخية التي تصورها الآية ، من حيث زمان الحادثة ، ومن حيث سبب النزول ، ومن حيث النتائج المترتبة عليها .

ومطاف السؤال هي الآية الثامنة من سورة الدّهر ، والمقطع الذي يحتويها هو المقطع الثاني من السورة الكريمة ، وهو يتألف من سبع عشرة آية ، أولها قوله سبحانه : (ان الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً) وآخرها قوله : (ان هذا كان لكم جزاءً ، وكان سعيكم مشكوراً) .

والمقطع يتضمن تعريفاً بصفوة من الناس ميّزتهم أعمالهم ، وميّزهم إخلاصهم ، وميّزتهم رهبتهم الشديدة من الله .

انهم الأبرار - كما تسميهم الآية الأولى - ، المطيعون لله ، البالغون أقصى حدّ الإطاعة ، المخلصون له دينهم وعملهم ، أقصى درجات الأخلاص .

وانهم عباد الله - كما تسميهم الآية الثانية - ، العارفون حق المعبود ، المؤدّون له حق العبودية .

وانهم الموفون بالنذر ، وبكل ما التزموا به لربهم من برّ ، وبكل ما أمرهم به ربهم من زلفة .

وانهم المطعمون الطعام - على حبه وشدة الفاقة اليه - المحاويج من الناس ، المؤثرون بالقوت على أنفسهم وهم في خصاصة من العيش .

وانهم المخلصون ، الذين يطعمون قوتهم للمسكين واليتيم والأسير ، لا يريدون منهم جزاءً ، ولا يبتغون منهم شكوراً ، وانما يفعلون ذلك لوجه الله وحده . لحبّ الله الذي امتزج بلحومهم ودمائهم ، وخالط

شعورهم وأحاسيسهم .

وانهم الخائفون من الله يومه العظيم – على شدة اخلاصهم له – الوجلون منه – على شدة تقواهم اياه – .

انه الاحساس القوي العميق بعظمة الله وعظمة دينه وعظمة مبدئه ، يقوى ويتسع في قلوب هذه الصفوة وقلوب من يلتّزم نهجهم ، حتى يملأ آفاق نفوسهم ويسيطر على قواها ، فلا تقول ولا تعمل إلاّ له ، ولا تكدح الا في سبيله ، وتستصغر كل غاية دون رضاه ، وتستسهل كل صعب غير غضبه .

وانها تبعات العقيدة النيّرة الثابتة التي آمنوا بها ملء قلوبهم وعقولهم ونفوسهم ، يوفون بها راضين مبتهجين .

هكذا يعرّفهم القرآن للناس ، ويذكر ما اعده الله لهم من نعيم وملك كبير ، وما هيأه لهم من سعادة لا يحيط بها وصف ولا ينتهى بها أمد ، نعم هكذا يعرّفهم القرآن للناس ليأتمّ بهم من يروم الاقتداء ، فان الباب مفتوح والسبيل ميسّرة .

وقد اجمع أهل البيت وأتباعهم ، وكثير من علماء الحديث وعلماء التفسير من سواهم ، على ان المقطع الكريم أنزل في علي وفاطمة والحسن والحسين (ع) لمـا آثروا بقوتهم ، وأطعموه المسكين واليتيم والأسير ، وطووا ساغبين .

والحادثة معروفة مشهورة ، وقـد رواها الأثبات الحجج من علماء الاسلام ، وان اختلفوا في بعض مشخصات الحادثة ، ففي جملة من أسانيد الحادثة انها وقعت في يوم واحد ، وفي بعضها أنها وقعت في ثلاثة أيام .

ولأكتف هنا بذكر ما نقله الواحدي في كتابه (اسباب النزول) :

(عطا عن ابن عباس : ان علي بن ابي‌طالب آجر نفسه ليسقي نخلاً بشيء من شعير ليلةحتى أصبح ، فلما أصبح وقبض الشعير طحن ثلثه ، فجعلوا منه شيئاً ليأكلوه يقال له الحريرة ، فلما تمّ انضاجه اتى مسكين فأخرجوا اليه الطعام ، ثم عمل الثلث الثاني فلما تم انضاجه اتى يتيم فسأل فأطعموه ، ثم عمل الثلث الثالث فلما تم انضاجه أتى أسير من المشركين فسأل فأطعموه ، وطووا يومهم ذلك) .

أقول : لأكتفي بهذه الرواية ، لا لأنها أوثق الأحاديث سنداً ، بل لأنها نموذج قصير مما يورده غير الشيعة في سبب نزول الآيات .

وأقوى مناقشة يتمسك بها من ينكر ذلك هي : أن سورة الدهر مكّية ، فكيف تحتوي ذكر حادثة جرت في المدينة ؟ .

نعم ، والمصاحف المتداولة بالأيدي تذكر سورة الدهر في عداد السور المكية .

ولكن الروايات الصحيحة تدلّ على انها من السور المدنية ، وعلى هذا اجماع أهل البيت (ع) وشيعتهم كافة ، وهو كذلك قول كثير ممن خالفهم .

وممن روى ذلك من غير الشيعة : الحاكم النيسابوري في كتابه المستدرك ، وأحمد الزاهد في كتاب الايضاح ، وهو قول مجاهد وقتادة وعكرمة والحسن البصري وجماعة كثيرين ، فالمناقشة الآنفة الذكر لا تقوم على أساس متين .

أما زمن الحادثة فالراجح انها وقعت في السنة الخامسة للهجرة فما بعدها ، فقد صرّحت الأدلة بأن الحسين (ع) قد اشترك في الإيثار ،

وأن الآيات الكريمة قد شهدت له مع أهل بيته المطهرين بهذه الكرامة ، وبوأته معهم هذه المنزلة ، فلا بدّ وأن تكون الحادثة قد وقعت بعد ولادته(ع) وفطامه ، لتصحّ منه المشاركة بالفعل .

واما النتائج المترتبة على ذلك ، فهل استطيع أن أحصيها أولاً ، ثم ألخصها لك في رسالة ؟! .

انها النتائج التي يحوزها المؤمن الكامل الايمان ، حين يأخذ نفسه بتطبيق مناهج الاسلام في أوسع نطاق ، وأبعد حدٍ ، وأتم تطبيق ، وانه الكمال الأعلى الذي يحرزه الإنسان حين يسلم وجهه لله في سره وعلانيته ، وفي قوله وفعله ، وفي حركته وسكونه .

انها نتائج الاسلام الكبرى ، وحياته الفضلى .

هذه هي النتائج المترتبة على ذلك : إشراقة نفس ، ووضاءة حياة ، وسعادة مضاعفة في الأولى والأخرى .

والآيات الكريمة لم تفرد قصة اطعام الطعام بالذكر ، ولكنها نظمتها مع سائر صفات هؤلاء الأبرار في سلك ، وقدّمتها نموذجاً حياً خالداً لسائر أعمالهم ، ولما يبذلونه في الله من تضحية ، وما يقدّمونه للعقيدة من تكاليف.

وهذا هو سرّ العظمة ، وموضع القدوة ، اذا أردنا الاقتداء .

وبعد ، فان السورة الكريمة تقدّم هذه الصفوة من الناس صورة شاخصة كاملة للاسلام الكامل الحي المجسّد ، ليصوغ الناس نفوسهم على مثالها ، اذا كانوا يرغبون في الوصول الى الغاية . غاية الاسلام الكبرى .

ثم هي ترشيح لأفراد هذه الأسرة للولاية العامّة ، التي سيقول الاسلام

فيها قولته الصريحة .

نعم ، هي ترشيح لهم للزعامة الكبرى على الأمـــة ، فان الذي يؤثر بالقوت على نفسه وهو في ضرّ الطوى ، لا يتصور فيه أبداً أن يتسامح أو يستأثر في شيء من حقوق الأمة ، يوم يكون عليها زعيماً .

عزيزي : وهكذا طال الحديث بي وأنـــا أجيب على سؤالك الأول حول الآية الكريمة ، وألجأني الى أن أختم الرسالة ، وأرجي الجواب عن سؤالك الثاني الى رسالة قريبة ان شاء الله ، ومن الله العون والتوفيق .

محـــاولات في التربية . مهمات ومسؤوليات . يتهمون المجتمع الاسلامي بالتأخر المادي . لا يفرقون بين الاسلام والمجتمع المسلم . العصر الذي انزلت فيه الآية . لم يطبق الاسلام كثيراً من نظمه . ضروراتقائمة . العلاج المستطاع في تلك الضرورات .

٢٨

بغداد – كلية الطب . ١٤ محرم الحرام سنة ١٣٨٧ ه

الشاب المؤمن الزكي ..... دامت مسراته .

اهدي اليك أنفس التحيات ، وأبث اليك خالص الشوق ، وأترجم لك عن مكين الحبّ وبالغ الاعجاب .

بني : لقد ارسلت اليكقبل ايام رسالتي الأولى ، وقد ضمنتها الجواب عن سؤالك الأول ، وآمل أن تكون وصلت اليك وانت في غبطة ، فأوفيتها بحثاً واستقصاءً ، ففيها ايماءات تحوجك الى تفكير .

ورسائلي اليكم – ايها الأعزاء – محاولات في التربية العملية الاسلامية ، فلا يستغني قارئها عن تكرارها اكثر من مرة ، ولا يستغني عن أن ينفعل بأحاسيس الكاتب ويصطبغ بمشاعره ، ويتكيف مع أساليبه ، ويكون رهن

اشاراته ما دام قارئاً له .

وكلما تعددت الفرص وامتدت به في تملّي هذه الدروس واستبطانها ، كان اقرب الى النجاح .

انها محاولات في التربية العملية على ضوء مناهج الاسلام ، ارجو ان نصل بها الى الغاية التي أرادها الله لنا من أقرب طريق ، وفي أيسر مدة ، وهو المسؤول لتحقيق الأمنية ، وهو دليل المرشد والمسترشد ، ومنه توفيقهما وبه قوّتهما .

ولا أريد هنا بيان منهجي هذا الذي سلكته في مراسلاتي لكم ، ولا التعريف بخصائصه ، ولكني اذكر بعض معالمه ، لينتفع بها ولدي العزيز ، حين يقرأ رسائلي اليه ، أو الى سواه ، ولعلي أوضح منهجي ، واذكر معالمه وخصائصه ، يوم أقدّم رسائلي هذه للنّشر ، وارجو أن يكون ذلك قريباً ان شاء الله .

ولدي : قلت لك في رسالتي الأولى : انك من الشباب الذين يعقد الاسلام عليهم الأمل ، ويعدّهم للمستقبل .

وهذه الكلمة وحدها تكفي للدلالة على سمو المنزلة ، وكبر المسؤولية في وقت واحد .

ان دين الله انما يعقد الأمل على ذوي الطاقات القوية من أبنائه ، يريد أن يجعلهم في الطليعة من دعاته ، وفي الرعيل الأول من حماته ، وانها لمنزلة سامية ، ما في ذلك من شك .

ولكن هذه المنزلة تستتبع مسؤولية كبيرة ، فهو يريد منهم انجاز

المهمة التي نيطت بهم ، وتصديق الأمل الذي علّق عليهم .

ثم اذا أتم الداعية شوطه ، وأنجز مهمته ، ارتفع الى منزلة أسمى ، والى مسؤولية أكبر ومهمة اعظم ، وهكذا يرتقي ، وترتفع منزلته ، وتعظم مسؤوليته كلما سار شوطاً وقطع مرحلة .

اما الفوز الذي يسجله الاسلام له في نهايات الاشواط ، والذي به يحرز السبق ، وينال الجزاء في الأولى والعقبى ، أما هذا الفوز فهو بقدر ما يبذل في الله من جهد ، وما يتحقق له من اخلاص ، وهذه حقائق غير خفية من دين الاسلام ، ولكني أوردها لنستذكرها في ميادين عملنا لله .

والشباب ـ ايها العزيز ـ طاقات جبارة تثمر الخير وتسعد الأمة اذا زودت بالايمان ، وثبتت بالعقيدة ، وهذبت بمناهج الاسلام ، وعرفت مبادئه وغاياته ، وهي ـ على الضد من ذلك ـ تثمر الشر ، وتبتغي الهدم ، اذا تركت للتيارات الملحدة ، تملأها بالسموم ، وتطلقها للتدمير .

وانتم فصائل الشباب المؤمنين مفاتيح هداية الجيل ، وأدلة رشده ، فلابد لكم من الشعور بمسؤوليتكم ، ولابد لكم من الاستعداد لها ، والله في عونكم وعون العاملين في سبيله .

ولدي : ولنغد بعد هذا الى رسالتك ، الى سؤالك الثاني حول قوله سبحانه : (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً) .

قلت : ان البعض يتّهم المجتمع الاسلامي – من خلال هذه الآية – بالتأخر المادّي الفظيع ، ففيه ـ كما تقول الآية ـ مسكين ويتيم وأسير ، والكلّ بلا مسكة من طعام ، والروايات التي ذكرت سبب النزول ، حدّثت

أن علياً (ع) حين أطعمهم بقي بلا طعام كذلك ، وهذا يدل على فقر شديد ، وهو ينافي ما يقوله دعاة الاسلام من أنه يوجب الرفاه للبشرية ، واذا صحّ ذلك ، كان من المستحيل قيام مجتمع اسلامي مرّفه في عصرنا الحاضر.

ثم قلتَ : فاذا قلنا لهم : ان الخيرات في ذلك العصر كانت قليلة ، حيث لم يوجد نفط أو معادن .... قالوا : ان المدنية بشكلها ومتطلّباتها اليوم تختلف عنها بشكلها ومتطلّباتها في ذلك العهد ، من حيث بناء الدور والآلات والأدوات ، فتصبح المسألة نسبيّة ، ولا نخرج بحلّ .

ويبدو أن هذا البعض الذي نقلت عنه هـذه التهمة لا يفرّق بين الاسلام والمجتمع المسلم ، ودعاة الحق انما يقولون — والأدلّة كثيرة موفورة على صحّة ما يقولون — : ان الاسلام يكفل الرفاه للبشرية ، ويوجب لهـا الحياة الهانئة اذا اتّبعت سبله في تنظيم الحياة ، وطبقت مناهجه في الاقتصاد ، ونفـّذت تعاليمه في التكافل والاجتماع ، وواضح جداً ان المجتمع (ايّ مجتمع) لن تتحقق له هذه الغاية إلاّ اذا واتته الفرصة فطبّق هذه المناهج كلهـا غاية التطبيق ، واستثمرها اتم الاستثمار .

وقد لا تواتيه الفرصة لذلك ، لضرورات اجتماعيـة أو اقتصادية أو حربية ، يضطرّ معها الى ايقاف بعض الأنظمة عن التنفيذ ، ويخضع لحكم الضرورة الراهنة علاجاً للمشكلة ، وتقديمـاً لأشدّ الضرورتين ، وواضح كذلك ان حكم الضرورة لا يتخذ منه قياس ، ولا تبتني عليه قاعدة الاّ لضرورة مثلها .

وهذه هي الحالة الراهنة في العصر الأول للاسلام :

العصر الذي أنزلت فيه الآية الكريمة ، ووجّه ذلك البعض تهمته من خلالها الى الاسلام ، والشواهد على ذلك من التاريخ ، ومن النصوص الأدبية ، ومن الشعر العربي ، كثيرة وصريحة .

نعم ، هذه هي الحالة الراهنة في ذلك العصر ، فان المجتمع العربي في زمان الجاهليّة ، (وعرب الجزيرة على الخصوص) كان من أشد المجتمعات تأخراً في الاقتصاد ، وفي ميادين الحضارة الأخرى ، وقد اكثر المؤرخون والمحلّلون في بيان ذلك وتعليله ، وذكر الشواهد عليه ، حتى لم يتركوا مجالاً للشك فيه ، وفي القرآن الكريم اشارات كثيرة اليه .

وقد كان في مكة والطائف والمدينة أفراد يذكرون بالثروة ، ولكن ليس معنى ذلك تحسّن الحالة الإقتصادية في هذه البلدان ، بل معنى ذلك توفّر الثروة النسبية عند اشخاص معيّنين من أهل هذه البلاد ، ويقابل ذلك فقرٌ حالكٌ أسود عند الناس أجمعين .

فقر اضطر كثيراً من القبائل ان تقتل أولادها خشية املاق ، وأن ترتكب الجرائم والموبقات لتحصل القوت .

وحتى بعد ايلاف قريش رحلة الشتاء والصيف ، فإن نتيجة ذلك تهيّؤ القوت للبعض فقط ، لا للعرب ، بل ولا لقريش أجمعين .

وأشرق الاسلام في تلك الربوع ، ومرّت من عمره الكريم ثلاثة عشر عاماً في مكة ، قضاها الرسول (ص) في تبيين العقيدة ، وتثبيت الرسالة ، وفي الكفاح الدائب دون الدعوة ، ودون الضعفاء الذين اعتنقوا الدين ، ولم يستطع الاسلام في هذه البرهة ان يقول في ميادينه الأخرى كلمة ، أو

يشير الى غاية .

ثم هاجر الرسول (ص) الى المدينة لينشر دعوة ، ويبني مجتمعاً ، ويؤسس دولة ، ويقيم حكماً ، ويشرع نظاماً كاملاً شاملاً : ينظم الدولة، ويوجّه الحياة ، في شتى المناحي ، وشتى الحقول ، وشتى المجالات ، ويسعد البشرية من أقصاها الى اقصاها ، ويكفل لها بحلّ كل معضلة ، وجواب كل مسألة .

وأتمّ الاسلام كلمته في كل اولئك ، وأوفى بوعده على أتم وجه ، وفي انصع صورة .

نعم ، ولكن الضرورات القائمة الملازمة لم تمكّن الاسلام من تطبيق بعض مناهجه .

ومن مناهجـــه الفريدة التي لم تطبق ، بعض أنظمته في الاقتصاد ، وتعمير الأراضي الصالحة للتعمير ، وتشغيل الأيدي التي تستطيع العمل ، واستثمار الموارد القابلة للاستثمار .

فان الحروب التي اضطرّ الاسلام الى اعلانها للدفاع عن الدّعوة ، ونسف السّدود التي تقام في وجهها ، ثم لتثبيت قـــدم الدولة ، وصدّ العوادي عنها . ان هذه الحروب الدائمة الشديدة منعت الدولة الاسلاميـة عن التوجّه الى أي فكرة من هذا القبيل ، وشغلت المسلمين عن التفرغ لأي عمل .

ويكفي للدلالة على ذلك حدوث ثلاث وثمانين غزوة في مدة لاتزيد على عشر سنين ! فالمسلمون في تأهّب دائم ، والدولة في تعبئة مستمرة ، والقيادة في شغل متصل .

هذه هي الحالة الراهنة في عصر الاسلام الأول ، ومن أجل ذلك فلم يستطع الاسلام تغيير الحالة الاقتصاديـــة ، ورفع المستوى المادي ، الا بمقدار تسمح به الضرورة ، وترك الأمر للايام المقبلة .

للدولة الاسلامية يوم تتخلص من الضرورات وتطبق مناهج الاسلام كاملة غير منقوصة ، وتحقق الرفاه الكامل والحياة الطيبة للمجتمع المسلم .

والعلاج المستطاع في ابّان تلك الضرورة أن تبثّ روح الاحسان في الأمة ، وتعوّد أفرادها على المواساة والإيثار ، فيحسن من يملك الى من لا يملك ، ويواسي من يجد القوت من لا يجد ، ويؤثر من يستطيع الصبر على الخصاصة من لا يستطيع ، ويطعم الطعام على حبـــه المسكين واليتيم والأسير ، ويشد القائد الأعلى للأمة حجر المجاعة على بطنـــه ، ليقتدي به الفقير فيصطبر ، ويجهر بها خليفته وإمام الأمة من بعـــده فيقول في أحد كتبه : (ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي الى تخيّر الأطعمة ، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ، ولا عهد له بالشبع ، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرّى) ويقول : (أأقنع من نفسي بأن يقال : أمير المؤمنين ، ولا أشاركهم في مكاره الدهر ، أو اكون أسوة لهم في جشوبة العيش) .

هذا هو العلاج المستطاع ريثما ترتفع الضرورة ، فتطبق المناهج ويعمّ الرفاه ، والعيشة الراضية .

عزيزي : أرأيت أرأيت ؟ ان ذلك البعض الذي اتّهم الاسلام تلك التهمة لم يفرق بين الاسلام ذاته والمجتمع المســـلم ، ومثاله في ذلك مثال

الآخرين الذين يتهمون الاسلام بالتأخر الخلقي ، وهم ينظرون الى واقعنا نحن الذي نعيش فيـــه ، على فارق عظيم بين واقعنا الفاسد وواقع ذلك العصر الكريم .

هكذا تكال التهم كيلاً من أنـــاس يؤسف لهم ، لدين الله العظيم الذي يريد اسعادهم ! .

ولعل الثقافة تتسع ، فتزول الرواسب ، وتنقى الضمائر ، وتأخـــذ الأحكام مجراها الصحيح ، ونرجو أن يكون ذلك في يوم قريب ، وما ذلك على الله بعزيز ! .

واكرر لك تحياتي واشواقي .

معاذير . مقطع من سورة قَ . حقائق شاخصة . الحديث في سابق هذه الآيات . تفسير المقطع . عبر وعظات .

٢٩

النجف . ٤ رجب سنة ١٣٨٤ .

ولدي المهذب ...

سلام الله عليك ورحمته وبركاته .

تناولت رسالتك ، ولمست عواطف البنّوة البرة فيها ، ودعوت الله لك بدوام التوفيق .

ذكرت فيها لقاءك إيّاي قبل أسبوعين على أعتاب الحرم المطّهر .

نعم . التقيت بك أيها العزيز ، وكانت كل ظاهرة مني ومنك تدلني على أنك هو .

ولكنّها - كما تعلم - فراسة وحدس ، وكثيراً ما يخطئان ، وقد أحببت تصديقهما .

وذكرت في ضمن منهاجك العملي أنك بالغ الحرص على حضور مجلس الشيخ (....) والإفادة منه ، وقد سرّني كثيراً أن يكون هذا الفاضل موضع ثقتك ومصدر افادتك .

وطلبت مني في آخر رسالتك أن أختار لك مجموعة من الآيات الكريمة القوّية التأثير ، التي تصف الجنّة وما فيها من نعيم ، والأخرى التي تصف النار وما فيها من جحيم ، مع شرح بسيط للغريب من مفردات الالفاظ .

وقد وردت عليّ أمنيّتك هذه أيها العزيز وأنا في ضائقة من الشواغل، فماذا أعمل ، وماذا أصنع ؟ .

فهل تعلم أن بين يدّي أكثر من عشرين عملاً يتطلب الإنجاز ؟ .

وفي ضمن هذه الأعمال أكثر من ثلاثين سؤالاً ينتظر الجواب ؟ .

وان بعض هذه الأسئلة يفتقر الى اكثر من خمس صحائف في الشرح والتعليق ؟ .

هل تعلم أني منذ شهرين كاملين ، لم أكتب جملة واحدة في الحلقة الثانية من كتاب (الاسلام) ؟ ! .

ولدي : ولم أكتب إليك هذا لأعتذر ، فلستُ محتاجاً معك الى معذرة ، وطلباتك ومسائلك في قمة الأعمال التي أهتمّ بها ولله الحمد ، ولكنني كتبت هذا لأستمدّ الدّعاء بالعون ، فان الإنسان ضعيف لولا مدد الله وعونه ، ودعوة الشابّ المؤمن من أقرب الدّعوات الى الله وأحراها باجابته.

ومع رسالتي هذه كتاب (الجامع) ، وقد اخترته لك لأنه يتكفّل لك بهذا النّوع من الأغراض التي تتطلّب مصادرها من القرآن ، وستجد آيات الجنة في العناوين الواردة في صفحات (٣٨٧) و (١٣٥) و (١٤٥) ، وآيات النّار والأهوال في العناوين المذكورة في صفحات (٣٨٣) و (٣٦٣) الى (٣٨٢) ، و (٥٠٢ الى ٥٣٢) و (٥٤٨ الى ٥٥١) ، تجد الآيات

التي تطلبها مجموعة في هذه العناوين فاختر منها ما أحببت .

وطلبت لك مصدراً أعتمد عليه في شرح الغريب من ألفاظ القرآن ، وقد تعذّر علي الآن وجوده في المكاتب ، بعد أن فحصت عنه أياماً ، ولم أعثر الا ّ على كتاب (البيان) للمرحوم الشيخ قاسم محي الدّين .

وليس معنى إرسالي لهذا الكتاب أنني أرتضي لك كل ما فيه ، ولكنه المصدر الذي لم أجد سواه ، على أن الكتاب فيه جدوى كبيرة ، فافحص فيه ، وانت – بحمد الله – تملك ذوقاً ناقداً أديبـاً يميز ّ بين الطعوم ، ويمكنك أن تستعين ببعض كتب التفسير متى التبس عليك شيء منه ، أو بأحدٍ تعتمد عليه من حملة العلم .

ثم ماذا ؟ .

ثم لأقف معك على نموذج واحدٍ مما تبتغي .

على مقطع واحدٍ من آيات الكتاب التي تذكر النّار ، ومقطع واحد من الآيات التي تصف الجنـة . على مقطعين فقط . وليكونا من سورة واحدة هي سورة ... (قٓ) .

هي هذه السورة التي ما مررت بها إلا ّ وقف ّ شعري وجرت ...

هذه السورة الر ّهيبـة التي تحضر الهول إحضاراً وتجسّده تجسيداً ، وتصكّ السمع وتذري الدّمع .

وددت لو تناولت السّورة بكاملها من ابتدائها الى ختامها ، فإنها تؤ ّلف وحدة متّصلة الأبعاض ، ولكن من لي بذلك ؟ وكيف لي ؟ ولعلّ الله يوفقني له بعد حين .

ولدي : لنتل المقطع تلاوة قبل أن نشرع في الحديث عنه ، لنفيد من عرض القرآن ذاته ، ومن زجره ، ومن إيقاعه ، ومن إيحائه وإيمائه ما لا يبلغه الشرح ، ولا توفيه العبارات .

اقرأ معي أيّهـا العزيز ، وإن استطعت فبلفظ مسموع ، وبصوت خافت . متقّطع . يعين على التدّبر ، ويدفع الى الاعتبار :

(ولقد خلقنا الإنسان .. ونعلم ما توسوس به نفسه ... ونحن أقرب اليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقّيان ، عن اليمين وعن الشمال قعيد .. ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد .

(وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد .

(ونفخ في الصّور ، ذلك يوم الوعيد .

(وجاءت كلّ نفس معها سائق وشهيد . لقـد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد .

(وقال قرينه : هذا ما لديّ عتيد .

(ألقيا في جهنم كل كفّار عنيد . منّاع للخير ، معتد ، مريب . الذي جعل مع الله إلهاً آخر ، فألقياه في العذاب الشديد .

(وقال قرينه : ربّنا ما أطغيته ، ولكن كان في ضلال بعيد .

(قال : لا تختصموا لديّ ، وقد قدّمت اليكم بالوعيد . ما يبدّل القول لديّ ، وما أنا بظلّام للعبيد .

(يوم نقول لجهنم : هل امتلأت ؟ .. وتقول : هل من مزيد) .

ولدي : أرأيت ؟، أرأيت ؟! .

إنّها ليست معاني يُحضرها لفظٌ يتلى ، ولكنّها حقائق شاخصة ، ماثلة ، محُسّة ، يبعثها وحي القرآن في روع الانسان .

حقائق كالحة مرعبة ، تتّقد هولاً ، وتتفجّر رعباً !! .

أرأيت خالق الانسان ، ومليك أمره ، وعالم ما توسوس به نفسه ، وربّ الحياة والموت ، والحشر والنشر ، يعرض مواقف الحشر في قرآنه ، كما يعرضها بعد هذا بقدرته ، فتمرّ خاطفة عاصفة ، مع مرور الكلم ، ومع تسلسل السياق !! : وجاءت سكرة الموت . ونفخ في الصّور . وجاءت كلّ نفس . ومع كلّ نفس سائق . ومع كل نفس شهيد . وكشف الغطاء . وتعرّت الحقائق . وبدأ التخاصم والتلاوم ؟! .

أسمعت الأوامر تتحدّر من وليّ الأمر : ألقيا في جهنم . ألقياه في العذاب الشّديد . لا تختصموا لديّ . ما يبدل القول لديّ . ؟! .

والناس تتهاوى الى القعر . وجهنّم تتلوّى وتتلظّى . والأوامر تترادف: ألقيا ، ألقيا .

وأخيراً ، أسمعت قولة الله العظيم العليم لجهنم : هل امتلأت ؟ ... ثم قولتها الرهيبة الشديدة .... : هل من مزيد ؟! .

ولدي : لقد انحرف القلم بي الى منهج العبرة ، وقد كنت أردت التفسير ، ولعلّي أعنتك بهذا التحوير .

* * *

والحديث في سابق هذه الآيات عن فئة من النّاس ، تنكّرت لفطرتها ولموازين التفكير المستقيم في عقولها ، فعجبت مما لا داعي الى العجب منه،

وانكرت ما لا مساغ لإنكاره .

عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وما موجب العجب في ذلك ؟ أليس مقتضى الحكمة أن يكون نذير القوم منهم ؟ : لأنه أبصر بأدوائهم ، وأحرص على نجاتهم ، وأقدر على إفهامهم ، وفي سورة الاسراء : (قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزّلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً) : (٩٥ : الاسراء) .

وأنكروا عود الحياة بعد الموت ، فقالوا : أ إذا متنا وكنّا تراباً ، ذلك رجع بعيد ، وما سبب الإنكار ، بعد أن وجدوا بملء عقولهم ، وملء أبصارهم ، دلائل القدرة على الإبتداء ؟ وهل يرتاب عاقل في أن القادر على الابتداء قادر على الإعادة ؟! .

وكذبوا بالحق لما جاءهم ، ودلائل اثباته ماثلة أمامهم في كلّ وجه ، وفي كلّ صوب ، في بناء السّماء ، وفي زينتها ومالها من فروج ، وفي مدّ الأرض ، وإلقاء رواسيها ، واخراج نباتها ، وفي تنزيل الماء ، وتجديد النّبات ، وتصنيف الثمرات .

كذّبوا بالحق ، وكذّبت قبلهم فئات أخرى من أصحاب القلوب الغلف ، فنالوا مغبة جحودهم ، وسبيل من تأخر من الطاغين هو بذاته سبيل من تقدم منهم ، فلا محيد من أن يحق عليهم الوعيد كما حقّ على اولئك .

هكذا يولع الانسان بانكار الحق ، وان كانت شواهده ملء السماوات والأرض ، وملء الاكوان والازمان ، ويولع بتكذيب حقائق الدين كلّها ، وتكذيب عقيدة البعث منها على الخصوص ، وان كانت تتهدّده بالخطر ،

وتنذره بالبوار !.

لعله يتوهّم أنّه مخلّى السرب ، حرّ من التبعة ، لا سلطان عليه ، ولا رقيب على عمله ، ولا مطّلع على سرّه .

وما أسخفه وهماً ! وما أضعفه واهماً ! ، فقد خُلق وأنشيء ودبّر ، وانه ليعلم ذلك حق العلم ، ولم يكن مخلى السرب ، حراً من السّلطان في ذلك كلّه ، ولو كان مخلّى لا رقيب عليه ، ولا مطّلع على أمره ، لما بلغ الكمال الذي يعتزّ به ، ولم يعرف أكثر آفاقه حتى اليوم .

(ولقد خلقنا الانسان) ، والانسان ذاته مهما تقلبت به التصوّرات لا يشك في أنه كائن حادث ، ولا يشك في أن لوجوده سبباً مؤثراً ، فلا شيء يحدث من لا شيء ، كما تقول الفطرة ، وكما يعترف العلم .

واذن فلا محيد من ان يكون عليه سلطان .

سلطان العلة التي كوّنته ودبّرته ، واستقلّت في ملكه وتصريفه وتدبيره ، ولا مخرج له ابداً من قبضتها .

وشيء غير ذلك ، وهو أن خلق الانسان نعمة ، يتحتّم عليه من أجلها طاعة الموجد ، وشكر نعمته ، وهذا هو سلطان الدين ، كما أن ذلك هو سلطان التكوين .

(ولقد خلقنا الإنسان) بجملته وأبعاضه ، ومتنوّع أجهزته ، وظاهره وباطنه ، وأمددناه : أمددنا جملته وأبعاضه وأجهزته ، وكل وحدة من عناصره وطاقاته بالتدبير المتّصل ، والمدد المتتابع ، في كل آن من آنات حياته ، ولو اننا قطعنا المدد والتدبير عنه آناً ما لتداعى بناؤه وتمزق شر ممزق .

أفلا يدّله هذا التدبير على علم شامل ، محيط بخفايا الانسان وطواياه ، وعلى رعاية دقيقة مستمرّة لحركاته وسكناته : (ولقد خلقنا الانسان ، ونعلم ما توسوس به نفسه) ، وما وسوسة النفس ، وما خلجات القلب ، وما ذات الصّدر ، وما أسرار الضمير ، وما همسات الشعور ، وما رعشات العاطفة ؟ أليست هذه كلّها لا تسنح الا بتدبير ، ولا تجري الا بتقدير ؟ فكيف تخفى على خالق الانسان ومقدره ؟ !.

والوسوسة هي الصوت الخفي ، فاذا أضيفت الى النفس أو القلب او الصّدر وما اليها ، أريد بها الخطرات والتّصورات والأحاديث التي تمّر بها .

(ولقد خلقنا الانسان ، ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) . والوريد مجرى الدم في الجسد ، وقد ينصرف الى الموجود منه في العنق خاصة ، والكلمة مثلٌ يذكر للشيء لشدة قربه ، وخالق الانسان ومركب جزيئات دمه ، ومقدّر دورته ومجاريه في بدنه ، أقرب من كل قريب اليه .

وماذا بعد هذا السلطان العظيم المسيطر ، الذي لا ينّد الانسان عن قبضته ، وهذا العلم الدقيق الذي أحاط حتى بخطرات وهمه وهمسات قلبه ، وهذه الرقابة الشديدة الدائمة القريبة ، التي لا تشذ عنها حركة من الإنسان ، ولا كلمة ، ولا نية ؟ ما بعد ذلك كلّه ، اذا كان هذا الرقيب هو الحسيب ، وهذا الشهيد هو الحاكم ؟ ، وما حاجته الى رقابة وشهادة أخرى ؟ ، وما ضرورته الى تسجيل وتدوين ؟ .

ولكّنه التشدد في الأمر ، والدّلالة على ضخامة المسؤولية ، والتاكيد

على وجوب الحذر ، ووجوب اليقظة ، واتّخاذ الأهبة . فوراء كل أولئك ملكان مع كلّ إنسان ، مهمّتهما رقابة أعماله وأقواله ، واحصاء كل صغيرة وكبيرة منه ، وتدوين كل حركة او كلمة : (اذ يتلقّى المتلقّيـان عن اليمين وعن الشمال قعيد . مايلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد) .

متلقّيان يقظان ، رقبان بامانة ، ويسجّلان بدقّة ، فكلّ واحـد منهما لمهمّته الخاصّة المنوطة به قعيد عتيد . والقعيد : الملازم ، والعتيد : الحاضر المعدّ .

(وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد) .

ولدي :

ماذا اكتب في شرح هذه الآية ؟ .

إن القلم ليجمد . . وان القوى لتخور . . وان الحركة لتسكن .

انها لسكرة الموت . . وإنّها لحق اليقين . . وإنها ما كنت منه تحيد ، وهل يملك أحد من المخلوقين أن يحيد ؟ ! .

ولدي : مرت الحياة . . وختم العمل . . وانفضّت الرقابـة . . وطويت الصحيفة . . . . . وجاءت سكرة الموت بالحق ! ! .

مرت الحياة ذات الصخب واللجب ، كما تطرف العين وكما تلمح ، وكما ينتقل السياق الكريم من آية الى آية ، وانّها لفترة جد قصيرة ، بلى، وما الحياة سوى لحظة ، وما الدنيا كلّها سوى لحظة ، وستفنى هذه اللحظة اذا جاءت سكرة الموت بالحق .

ومرت سكرة الموت كما مرت فترة الحياة ، وكأنها لحظة .

(ونفخ في الصّور ..... ذلك يوم الوعيد) .

ياللهول . وياللدهشة . ويا للقلوب الذائبة الذاهلة المدهشة من اعلان هذا النفير !! .

ان الآية تفعل بالقلوب ما يفعله نفخ الصور .

ويوم الوعيد لابّد فيه من إعلان هائل يبلغ الجمع ، ويوقظ الحياة ، ويرج اقطار الأرض ، ويعرّف الناس وهم يبعثون من قبورهم : انه اليوم الذي كانوا يوعدون ، ونفخـــة الصّور أول أهوال اليوم ، وأول زلزلة السّاعة ، واول مبادىء العرض .

الى الحشر الى الحشر ، الى الله الى الله ، ايّهـــا المبارزون لله ، المنغمسون في معاصيه .

الى الحشر الى الحشر ، الى الله الى الله ، أيّها المستكبرون عن طاعته ، المكذّبون بوعيده .

(وجاءت كلّ نفس ، معها سائق وشهيد) مهطعة ، مسرعـــة ، شاخصة من الفزع ، ناكسة من الذّل ، والسائق من خلفها يدّع ، والشهيد بين يديها يسعى ، وهل تملك أن تتخلف اذا لم يكن سائق ، وهل تستطيع أن تجحد اذا لم يكن شهيد ؟! .

وهبط التقريع مجلجلاً ، مدّوياً ، يشدّد الهول ، ويضاعف المحنة : (لقد كنت في غفلة من هذا ، فكشفنا عنك غطاءك ، فبصرك اليوم حديد) .

والغفلة لا تجد سبيلها الى القلوب الحيّة اليقظة ، التي تنظر بموازين الفطرة ، ومقاييس التفكير السليم ، وانما تجد سبيلها الى القلوب المحجوبة ،

التي يصرّفها الهوى ، ويمتلكها حبّ اللذائذ ، وتجلّي الحقائق يزيل الغباء، ويكشف الغطاء .

والبصر الحديد : هو القوي الحادّ الذي ينفذ الى المرئيات البعيــدة والدقيقة .

• • •

ويمر السّياق – كما هو – سريعاً خاطفاً ، فلا يصف عرضاً ، ولا يذكر سؤالاً ولا إثباتاً ، فالأعمال مدونة مثبتة ، والنتائج واضحة معلومة ، وليس سوى الحكم ، وليس سوى التنفيذ . ووجه ذلك أن الحديث – كما قلت – عن فئــة أنكرت الحق ، واستهانت بالأمر ، وتجاهرت بالإنكار والاستهانة ، ولا موقع معها لسؤال ، ولا حاجة لبيّنة ، ولا تملك اعمالاً صالحة الى جنب أعمالها السيئة فتنصب لها موازين .

وابتدر قرينه : ملكه الذي لزمه طوال حياته ، وضبط عليه ديوان أعماله ، ابتدر وبيده الكتاب ، ينشره بين يدي ربّ الأرباب : (وقال قرينه : هذا ما لدي عتيد) : والإنسان دهش حائر ، قد برق بصره ، وانخلع قلبه ، وهو لا يملك حجة ، ولا يؤذن له في قول .

وأعلن الحكم ، وقرر التنفيذ : (ألقيا في جهنم كل كفّار عنيد . مناع للخير ، معتدٍ ، مريب . الذي جعل مع الله إلهاً آخر ، فألقياه في العذاب الشديد) . إنها صيغة حكم كاملة ، تتضمن الحكم ، وتعين الموضع ، وتوضح التعليل ، وتقرّر التنفيذ .

والملكان المأموران بالالقاء لا ينتظران وراء هذه الكلمة شيئاً . لقد

حقّت غضبة الله ، وضاقت رحمته عن هذا الانسان فماذا ينتظران به ؟ :

وجهنم فاغرة فاها ، تتغيّظ وتزمجر وتلقف وتبتلع .

وألقي وهو يعجّ ، والتقمته النار وهو يستغيث ، وغلل وصفّد وهو يسترحم ويدعو .

وانزلت الكلمة الغاضبة الناقمة ، التي تقطع الرّجاء ، وتميت الأمل ، تجيبه وتجيب الصارخين في النار معــه : (اخسؤوا فيها ولا تكلمون) . (١٠٨ : المؤمنون) .

(وقال قرينه) ، والقرين هذه المرة شيطان كان يغويه في حياتــه الدنيا ، ثم قرن اليه هاهنا في العذاب الشديد ، (وقال قرينه : ربنا ماأطغيته ، ولكن كان في ضلال بعيد) .

والسياق يدلّ على ان الإنسان يريد أن يحمّل شيطانه هــذا بعض تبعاته ، لانه سبب طغيانه ، والشيطان يتبرّأ من ذلك ويروم التخلص بهذا القول .

وتأتي الزجرة المرعبة المسكتة تخمد الأنفاس وتبطل الحجج : (لاتختصموا لدي وقد قدمت اليكم بالوعيد) . انتهى كل أمر ، واحتمل كل تبعة عمله ، ولقي جزاءه : (ما يبدل القول لدي ، وما انا بظلام للعبيد) .

ثم يختم السياق هذا المقطع بهذه الآيــة التي ترعد الاوصال وتذيب الاكباد : (يوم نقول لجهنم : هل امتلأت ؟ ، وتقول : هل من مزيد ؟) .

وسواءاً أكان ذلك حواراً يقع بين جهنم وخالقها ، ام مثلاً يضرب لسعتها وشدّة نهمها ، فانه أمر مخيف مرعب ، يستوجب الحذر ، واتخاذ الحيطة.

ولدي : لقد طال الحديث على هذا المقطع وتنوّعت الآلام بتنوّع محاوراته ومشاهده ، فلأختم رسالتي هذه بختامه ، وسأوافيك إن شاء الله في رسالة ثانية عن المقطع الثاني ، وآمل باذن الله أن نلتقي فيها على ابتسامة .

لقد أطلت الحديث ، لأنه درس عملي في التّربية القرآنية ، وقد رغبت ان أؤدّي فيه بعض حقوق البنوة ، ورجوت أن تتخذه منهجاً عملياً في دراسة الآيات التي تطلب .

ومن الله سبحانه أسأل لك دوام التوفيق منه ، ومزيد الرغبة في ما عنده ، وتقبل تحيات ابيك .

حديث الخشية من الله على شدته شهي لذيذ . مقطع آخر من سورة قٓ . من طرائق القرآن . كيف يتلو الاديب آيات القرآن ؟ . مقارنة بين المقطعين . تفسير المقطع . موعظة وذكرى .

٣٠

النجف . ١٢ رجب سنة ١٣٨٤ .

ولدي ...

سلام الله عليك ورحمته وبركاته ، مع سؤالي ودعائي .

لعلّي أعنتُّك في رسالتي تلك ، فقد كان الحديث فيها مرهباً مرعباً، وماذا أعمل أنا ؟ فالحقيقة القرآنيــة التي تحدثت عنها في الرّسالة كانت مرهبة مرعبة .

غير أن العنت في أمثال هــذه الحقائق محبوب لي ولك على سواء ، وحديث الخشية من الله على شدّته شهي لذيذ، وليس ألذّ من دمعة خفية يذريها خوف الوعيد ، وليس أقرب الى الله من موقف يرى فيه عبده قد تأثر لزجره ، فحنّ قلبه ولوعاً ، وفاضت عيناه دموعاً .

انها دروس التربية القرآنية – ايها العزيز – تصهر المسلم لتنفي عنه الأدران والأخباث ، وهل تفعل ذلك إلاّ حين تتخذ هذا السبيل ؟! .

لقد أطلت الحديث في تلك الرسالة ، فاسمح لأبيك إذا اختصره في هذه ، فقد قلت لك : انني في ضائقة من الشواغل .

* * *

والمقطع الثاني الذي وعدتك بتفسيره في هذه الرسالة : جزء متمم للمقطع الأوّل ، الذي قدّمت لك الحديث فيه ، قرنهما السياق القرآني جنباً الى جنب ، ومنظراً الى منظر ، والوصف العام للمحشر ومواقفه ونتائجه لا يتم الاّ بهما مقترنين .

ومن الطرائق التي يكثر استعمالها في القرآن : في أحاديثه عن الجنة والنّار ، أنه يشفع ذكر احداهما بذكر الأخرى ، فاذا ذكر النّار اردف لها ذكر الجنّة ، واذا وصف الجنــة قفّى عليها بوصف النّار ، حسب اقتضاء المورد ، ولعلّ هذه طريقته في غالب تلك الأحاديث .

ومن آثار هذه الطّريقة الحكيمة ، أن اقتران وصف العذاب الشديد المبيد بوصف النعيم العظيم غير المحدود ولا المنكود ، يبعث في شعور المسلم مزيجاً قوياً متعادلاً من الخوف والرجاء ، من الرّهبــة الشديدة التي تمنعه أن يتردّى في بؤرة أو يفكّر في حطّة ، والرغبة البالغة التي تدفعه دفعاً الى السبق في مضامير الخير ، والارتقاء الى معالي الأمور ، وتعادل هذين الخلطين القويين في نفس الانسان يصوغ منه المسلم الحق ، ويجمع له كل ما يبتغي الاسلام من صفة حميدة ، تؤهّله لكل مقام كريم . وهذا أحــد مناهج التربية في الاسلام .

ومن جدوى هذه الطريقة : أن اقتران منظر النّار واتكالها وأهلالها

وطعامها ذي الغصّة ، وشرابها الحميم ، وعذابها المقيم ، بمنظر الجنـة الوارفة الظلال ، المطّردة الأنهار ، الموفورة الهنـاء ، المستكملة السّعادة ، أن اقتران هذين المنظرين ذاته عـذاب شديد لأهل العذاب ، ونعيم كبير لأهل النعيم . فان رؤية السعادة الكاملة تضاعف من شقاء الشقي ، ونظرة الشّقاوة الشديدة تزيدفي سعادة السعيد ، وفي القرآن الكريم مشاهد ومحاورات بين أهل الجنة وأهل النّار تجري في هذا السبيل .

* * *

ولدي :

لنتلُ المقطع الكريم قبل أن نبحث عن مدلوله ، فقد جرّبنا هـذه الطريقة فأفدنا من نفعها الخير الكثير .

لنتل المقطع بصوت مسموع – كما صنعنا أول مرة – ، ولنتحسّس أجراس آياته ونبراتها وذبذباتها ، ولنتبين مواقع الإشارة ومدلول العبارة ، ومن أحرى من الأديب بهذا التفكير ؟

ولي الفخر أن اعترف – هاهنا ، وفي هذه المناسبة – بأن جزءاً مهماً من أدبي أنا مدين به للتفكير في أدب القرآن .

وبعد ، فهي نصيحتي لكلّ شابّ أتوسم فيه الخير .

أقرأ معي أيّها العزيز :

(وأزلفت الجنّة للمتّقين غيرَ بعيد . هذا ما توعدون لكلّ أواب حفيظ . من خشي الرّحمان بالغيب ، وجاء بقلب منيب . أدخلوها بسلام ، ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاؤون فيها ، ولدينا مزيد) .

أرأيت . أسمعت ؟ .

إن السّياق يحتفظ بمقوّماته الأصيلة المشتركة بين المقطعين ، ولكن الفارق بينهما كبير خطير ، هو الفارق بين منظر الجنة ، ومنظر النّار .

ان السّياق يمرّ — كما هو — سريعاً عجلاً يطوي المراحل ، ويلفّ التفاصيل ، ليلحق كلاً من الفريقين بنهايته ، ويوفّيه حسابه ، ولكن الإجمال لأولئك شقاء ومهانة ، ولهؤلاء اسعاد وتكريم .

يمرّ كالحاً ، لافحاً ، متجهّماً ، يسوق بين يديه حشوداً هائلة من البشر ، حتى يوقفهم على شفير الهاوية ، ثم يلقي بهم أكواماً وأكداساً ، وجهنّم تأكل الوقود وتطلب المزيد .

ثم يلتفت الى اليمين .... الى المتقين .

الى الوجوه المشرقة بالنور ، الباسمة بالرضا ، المطمئنة بالكرامة .

يلتفت اليهم باسم الثغر ، متهلل الوجه ، مشرق الأسارير ، يستقبلهم بالبشرى ، ويبتدئهم بالترحيب والتكريم ، ويشير لهم الى المنازل الكريمة والجنان الرفيعة .

(وأزلفت الجنة للمتقين) .

ياللكرامة . . وياللفوز . . ان الجنة أزلفت لهم إزلافاً : قرّبت اليهم وأدنيت ، لئلا يتكلّفوا السعي اليها ! ان الجنة ذاتها هي التي تستقبلهم ، وأملاك الرحمة ، وخزّان الجنة ، على الأبواب تحييّهم وترحّب بهم ، وحور الجنة وولدانها وأطيارها وأنهارها تهتف لهم ، وتتباشر بمقدمهم ، فعلى كل شيء بهجة وفي كل قلب فرحة ، وبكل فم بسمة .

ومالك الجنة وخالقها يعلن رضاه عنهم ، ويعدهم بتوفية أمنياتهم ، واعداد المزيد لهم .

ويبدو أن المشهدين اللّذين يعرضهما السياق : مشهد أصحاب الشمال وهم يساقون من قبورهم الى الحشر ، ثم من محشرهم الى النّار ، ومشهد أصحاب اليمين وهم يرفعون الى مراتب الكرامة ، وينالون أنواع التبجيل ، يبدو أن المشهـــدين ليس بينهما ترتب في الزّمان ، فان (واو) العطف التي ربطت بين جمل السياق لا تدل على ترتيب ، فبينا كان اولئك يتقاذفهم الهول ، وتتراماهم الشدائـــد ، كان هؤلاء يستقبلهم النعيم ، ومظـاهر التكريم ، ولكن السياق ذكر أصحاب النّار أولاً ، لأن الحديث كان عنهم منذ بداءته .

(وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد) . ان تكريم المتقين لا حاجة فيه الى اعلان حكم وتقرير تنفيذ ، فازلاف الجنة وتقريبها اليهم أبلغ من اعلان الحكم وتنفيذه ، وليستقبلوا بكلمات الرّضا من إلههم وخالقهم ، فانها أبلغ في التكريم من إزلاف الجنة :

(هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ، من خشي الرّحمان بالغيب .. وجاء بقلب منيب .) ، وهذه هي الصفات التي وعدوا من أجلها بالجنة ، واستحقّوا الرّضوان ، والأوّاب : الرّجاع الى الطاعة مهما صرفته الصّوارف ، والحفيظ : شديد المحافظة على امتثال ما أمر الله به ، شديد التحفظ عن الوقوع في معصيته ، ومن خشي الرّحمــان بالغيب : من راقب الله حيث يأمن مطلعاً سواه ، وحذره حيث لا يخشى معاقباً غيره ، والمنيب : الراجع

الى الله ، التائب اليه من سيء عمله ، وجاء بقلب منيب : قد استمكنت خشية الله في أعماق قلبه حتى وصلته بالله ، فواظب على طاعته والرجوع اليه ، وحتى وافى الله في حشره وهو موصول السّر والعلانية به .

(ادخلوها بسلام) بسلام من كلّ آفة ، ومن كلّ فتنة ، ومن كلّ ما ينقص السّعادة التامة ، ويكدّر العيشة الراضيــة الهانئة ، (ذلك يوم الخلود) خلود الحيــاة فلا موت ، وخلود الكرامة فــلا نقص ولا ضعة ، وخلود السعادة فلا شقاء ولا بؤس ، وخلود النعيم فلا غول فيها ولا هم عنها ينزفون ، وخلود الأمن فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ٥

(أدخلوها بسلام) ، باللكرامة ، وباللمجد والرفعــة ، ان الله هو الذي يبتدئهم بالسّلام ، وملائكة الله تستقبلهم على أبواب الجنة بالسَّلام ، وقد وصفها كتابه الكريم بانّها دار السَّلام .

وينتهى المقطع بهذا الوعد وهذا الضمان :

(لهم ما يشاؤون فيها ، ولدينا مزيد) .

بهذه الآية الكريمة التي تضاعف لهم الحبور ، وتملأ نفوسهم بالغبطة ، وتضمن لهم أعلى درجات الفوز .

ليتمنّوا من اللذائذ والطّيبات ما شاؤوا ، وليُدلوا بأمانيّهم وطلباتهم ما اشتهوا وما رغبوا ، فكلّ شيء لهم موفور ميسور ، ان الحبيب لاتحجب عنه امنية .

ثم ما هي أماني الانسان وما وفاؤها بالتكريم غير المحدود ، وبالعطاء غير المجذوذ ؟! ، انهم يستوجبون من الحبــاء ما هو فوق ذلك ، (لهم

ما يشاؤون فيها) من صنوف اللذائذ وأنواع الرغائب ، (ولدينا مزيد) مما لا يحيطون به علماً ، ولا يدركونه وصفاً .

ولفتة قرآنية حازمة أود أن اشير اليها قبل أن أختم الحديث .

ان المقطع - كما رأينا - يصور واقعاً حاضراً ، فقد أزلفت الجنة ، واستقبل المتقون بالبشرى ، وبالترحيب وبالتكريم ، واستحقّوا النعيم والخلود ، ووعدوا بالمزيد .

ولكن الآية الثانية من المقطع : الآية التي يقدّم الله بها الجنة لأهل الجنة ، ويعلن بها رضاه عنهم ، ويعدّد موجبات استحقاقهم ، اقول : ولكن هذه الآية الكريمة تأتي بصيغة الفعل المضارع : (هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ) .

واذن فالوعد لا يزال مستمرا ، والموعود به لا يزال مستقبلاً ، واذن فالفرصة لكل عامل لا تزال باقية ، ومضمار السباق لا يزال مفتوحاً ، فليعمل من يشاء أن يعمل ، وليحرز السبق ، وليفز بالغاية .

لقد طال الحديث وأنا أروم الاختصار ، لعلّ ذلك لأنه حديث عن اهل الجنة ، ولعل ذلك لأنه حديث الى ولد حبيب ، ولعلّ ذلك لأنه حديث عن القرآن حبيب كلّ نفس وشفاء كل صدر ودليل كلّ رشد .

واستودع الله دينك وجميع مواهبك .

امانة الله . الاسلام مفتقر الى اقلام تكتب . قولة لبعض ادباء الغرب يهاجم بها الاسلام . حطة يهوي اليها الانسان . لا يتعرضون لقوانين الدنيا اذا سنت للعقاب على مخالفتها . صرخة الاسلام انما هي صرخة النذير . انذار البشر بالخطر ليدبروا .

٣١

النجف . ١٥ رجب سنة ١٣٨٤ .

ولدي . . . . دمت ودام لك التوفيق .

سلام الله عليك ورحمته وبركاته .

وصلتني بالأمس رسالتك ، وتلوتها مغتبطاً بما فيها ، حتى في الضيق الذي تعانيه من نظام التعليم الجديد ، نعم ، حتى في هـــذا القفص الذي يحيط بك من الجهات ، فإنني اتوسم لك منه الخير الكثير ، ما دام الظن قد صدّقني في درجتك من الذكاء .

وصلتني رسالتك ظهر أمس ، وصممت على أن أدخـــل جوابها في تسلسل منهاجي للأعمال ، وهو كما حدثتك عنه منهاج طويل .

وكان التسلسل المنهجي قد انتهى بي الى سؤالات أرسلها أحد الأمراء

السعوديين يناقش فيها بعض احكام المذهب الجعفري ، والسؤالات من حيث مجموعها ، ومن حيث مصدرها وموضوعها تستوجب الاهتمام ، وبعضها حساس يفتقر الى مزيد من التفكير ، وهي على اي حالٍ تتطلب الإعجال.

وبعدها الى سؤالات أحد الشباب النجباء من أهل الكوت ، وكنت بعثت اليه جواب سؤالين منها ، والنوبة لسؤاله الثالث عن نظرية العقد الاجتماعي في رأي الاسلام .

وهلّم جراً ، الى ان يصل العدد الخامس والأربعون .

صممت على أن أضم جواب رسالتك في تسلسل الواجبات ، ولي من بنوتك البارة عاذر عن التأخير .

والتقيت بك هذه الليلة على عتبة الحرم المطّهر ، فرأت أن أجلسك الى جانبي بضع دقائق ، وأحدثك بما ينبغى الإسراع فيه من مضامين الرّسالة ، واترك الباقي منه الى المنهاج .

ولكنني لمحت منكِ بوادر العجلة ، فأنت تريد أن تصلّي وردك ، ثم تبادر الى مجلس افادتك ، ولم أشأ أن أزاحم عملاً ترغب فيه .

ثم قلت – بعد عودتي الى المنزل – ماذا علي لو اتممت ليلتي مع ولدي العزيز ؟ على أنني أحرّر له رسالة ينتظم بعضها في سلك رسائلي الاسلامية ، وستنشر ان شاء الله سبحانه وأمدّني منه بالتوفيق .

وتناولت القلم لأحرّر لك هذا الكتاب .

ولدي : ذكرت في رسالتك جانباً من شعورك نحو أبيك .

وما ادري – ايها العزيز – لعل الله ينظر هذا الجهد الصغير المتواضع

بعينه ، فيعدّه وفاءاً ببعض ما يجب ، ويمدّ بالعون على اداء الباقي .

لقد قلت لك في إحدى رسائلي : انها امانة الله .

أجل ، انها امانة الله يابني ، وحامل هذه الأمانة ان أدّاها تامّة غير منقوصة ، فهو أحفظ الأمنة ، وان التوى في أدائها أو حرّفها أو جزّأها وفق ميوله ، فهو أخون الخونة ، ويخادع نفسه وضميره ودينه من يتجاهل ذلك ، أو يصدّ عنه ، او يتمارى فيه .

بني : لقد اطلّت لاعلاء كلمة الله دماء ووزّعت أشلاء ، فما الذي بذله أبوك – هذا الذي يطارحك الحديث – مما يستحق الإكبار ؟! .

بسمة في وجه ولدي ، وهو مقبل علي . . . ! . اصغاء إلى كلمته . . . اجابة عن سؤاله ! . . .

انه جهد متواضع صغير ، اذا لم يتعهده الله بلطفه ، فينمي صغيره ، ويرفع وضيعه ، ويبارك في نتاجه .

ونمو الجهد وارتفاعه ، هو أن يشعر ولدي بالمسؤولية التي أحملها من أجله ، فيشاركني في القيام بها نحوه ، ونحو الأعزّاء الآخرين من اخوانه وأترابه ، الى أن يشعروا بشعورنا ويشاركونا حمل الاعباء . وتسري قوة الايمان الحي القوي الصنّاع الى اكبر عدد يستطاع من الابناء الأحبّاء .

ولدي : ان الاسلام مفتقر الى ألسنة تقول ، وأقلام تكتب ، وأعمال تهدي ، وطاقات تبني .

اي وعينيك انه لمفتقر . . . . . وانــه ليستنصر . . . والى أيّ موضع يمد عينيه ، ويطلب النصرة ، الا الى النجف ؟! والى أي جيــل

يطمح ببصره ، الا الى شباب النجف ؟! .

اني اكتب اليك هذه الكلمات وأدمعي تسابق قلمي ....

لست متشائماً ... والتشاؤم ليس من سمات الايمان الصحيح ، ولكن المسؤولية كبيرة جداً ايها الحبيب .

* * *

وذكرت قولة لبعض أدباء الغرب يهاجم بها الاسلام ، يقول : ان دعاة الإسلام يفتنّون في الأساليب التي تجبر الناس على اتّباع دينهم ، ومن أساليبهم : انهم يخوّفون الناس العذاب الأليم بعد الموت اذا هم لم يعتنقوه ، ويعدونهم بأنواع المتع واللذائذ في الجنة اذا هم اتّبعوه ، يصنعون كذلك لتدفع الناس غرائزهم وانفعالاتهم الى اتّباع هذا الدين . ذكرت هذه القولة وطلبت مني الجواب عنها .

ولدي : قرأت هذه الكلمة في كتابك فلم أعجب ، فقد وقفت على كثير من أقاويل هؤلاء ، التي يهاجمون بها الاسلام ، ويشنّون الغارة عليه ، مما هو أشدّ غرابة وأبعد شناعة ، وقد تعرضت لبعضها في مقدمة كتابي (من أشعة القرآن) .

ولكنني عجبت من الحطّة التي يهوي اليها الإنسان حين يدفعه الحقد إلى أن يقول .

ان هؤلاء لا يتعرضون لقوانين الدنيا ، ونظمها الوضعيّة ، وشرائعها ، ومبادئها ذات النفوذ والقوة ، لا يتعرضون لهذه كلّها بشيء ، وهي تسن العقاب الصارم لمن يخالفها ، أو تحدثه نفسه بالخروج عليها ، بل ويمدّون

ذلك منها موافقاً للحكمة ، فالقانون الذي لا يفرض العقوبة على مخالفته ، لا يضمن لذاته البقاء .

إنهّم لا يتعرضون لهذا بشيء ، ولكنهم يهاجمون الاسلام وحده اذا أراد أن يصنع هذا الصنيع ! ، وكأنهم يريدون منه أن ينقض بناءه بيده ، فيهمل الجزاء ويسوّي بين من عصى ومن أطاع ! : (أفنجعل المسلمين كالمجرمين . مالكم كيف تحكمون ؟!) . (٣٥ ، ٣٦ : القلم) .

انهم لا يتعرضون لمشرعي القوانين ، وواضعي المبادىء ، والقائمين عليها : أن يعملوا (صلاحياتهم) من أجل حفظ النظام ، وتطبيق العدل الذي يرون ، أفيحظرون على إله الكون أن يعمل (صلاحياته) من أجل حفظ النظام ، وتطبيق العدل الذي يريد ؟! .

وصرخة الاسلام والقرآن في هذا السّبيل انما هي صرخة النذير .

وتذكيرهما بالقيامة وأهوالها ، وبالجنة والنّار وأحوالها ، انما يكون في أحد مقامين اثنين ولا ثالث لهما أبداً .

أحد المقامين : انذار البشر عامة بالعاقبة المدمّرة ، فهم واردون على خطر مهول ، وأثر هذا الإنذار : أن يبعثهم الخوف على التأمل في البراهين التي يقدّمها لهم هذا النذير ، ما درجتها من القوّة ؟ وما مبلغها من الصحة ؟ وقد زوّدتهم الحكمة الخالقة بركائز من الفطرة ، وأوليّات من الفكر السليم .

أن يبعثهم الحذر فيتأملوا في هذه الأدلة حق التأمل فيؤمنوا باقتناع كامل أو يرفضوا كذلك : (وقل الحق من ربكم فمن شـــاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) . (٢٩ : الكهف) ، ومن بدهيات الاسلام أنه لا يقهل

الايمان المسوق المجبر .

انهم بعد النظر الصادق في الأدلة إمّا أن يؤمنوا بصدق النـذير ، وإمّا أن يؤمنوا بكذبه ، والنتيجة لذلك : انهم قد عيّنوا سبيلهم ، وعرفوا موقفهم في كلتا الحالين .

أفتريد أن اقدّم لك شاهداً واحداً على ذلك من الكتاب الكريم ؟ .

أقرأ معي من اوائل سورة فصّلت ، من الآية التاسعة :

(قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له انداداً ، ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام ، سواءً للسائلين . ثم استوى الى السّماء ، وهي دخان ، فقال لها وللأرض : ائتيا طوعاً أو كرهاً ، قالتا : أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات في يومين ، وأوحى في كلّ سمـاء أمرها ، وزيّنا السماء الدنيا بمصابيح ، وحفظاً ، ذلك تقدير العزيز العليم .

(فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقةً مثل صاعقة عاد وثمود) .

أرأيت ؟ .

انه عرض على أسماعهم وأبصارهم وعقولهم ألواناً من الآيات التي تنير السبيل وتكشف اللّبس ، وحثّهم على التفكر فيها ، والاعتبار بها ، فما كان جوابهم ؟ .

انهم أعرضوا وصدّوا (وقالوا : قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل اننا عاملون) .

فكان من العلاج الحكيم أن يصك مسامعهم بهذا الإنذار المرعب :

(أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عادٍ وثمود) لعل الخوف يدفعهم فينظروا في الأمر نظرة الجد ، ويستنبئوا العقل الواعي عن حكمه في تلك الآيات .

والمقام الثاني لتذكير الاسلام بالقيامة وبالجنة والنّار : أن ينذر بها أتباعه ومصدّقي دعوته .

وأثر هذا التذكير أولاً : أن يمكّن في نفوسهم عقيدة النّشور ، فانها ثالثة العقائد الكبرى التي يقوم عليها بناء الاسلام .

وأثره ثانياً : أن يوازن في نفوسهم شعور الخوف وشعور الرّجاء، فيتكوّن منهما المزيج القوي الفعّال المتعادل ، الذي يضع أسس التّقوى في نفس المسلم ، ويوجّه أخلاقه وأعماله وسرّه وعلانيته ، وقد ذكرت هذا الأخير في رسالتي المتقدمة .

أما سؤالك الأخير : سؤالك عن بيت المال وموارده ومصادره وشؤوله وأحكامه ، فان الحديث عنه يستدعي وقتاً طويلاً ، وبحثاً مسهباً ، وارجو من الله أن يوفقني للقيام به في مستقبل الأيّام ، فمنه العون وبه القوّة ،

واسلم .

تنبؤ صادق . كليات العلم الكوني معاهد تلقن الايمان . المغريات والمزالق . ماذا تدل عليه آية الحجاب ؟ . تفسير الآيتين . بحث حول الحجاب .

٣٢

بغداد – كلية الطب . ٢٨ جمادى الاولى سنة ١٣٨٦ .

ولدي . . . . دمت كما اتمنى .

سلام الله عليك ، وعلى كل عزيز لديك ، ورحمة الله وبركاته ، مع وافر شوقي ، وكثير دعائي .

وقفت على رسالتك الأخيرة ، ثم وقفت ، وطال وقوفي عليها ، وطال تكراري اياها .

ولم يكن في الرسالة شيء جديد بالنسبة إلي ، فكل ما تحتويه أمر قد تفاءلت به لك منذ أولى رسالة وصلتني منك ، ومنذ أول يوم تكونت فيه هذه العلاقة التي شدتك إلي ، وبوأتك الموقع السامي من نفسي .

لقد ابتسمت لك منذ ذلك اليوم – ايها العزيز – ، ابتسمت للآمال الكبيرة التي عقدتها عليك ، والتي أجدك تحدثني عن بعضها في رسالتك اليوم ، وسأرى – ان شاء الله – ما يصدقها جميعاً في الغد القريب . .القريب .

ابتسمت لك منذ ذلك اليوم ، ولم اعرف - على وجه التحقيق - أثر هذه الابتسامة في نفسك ، ووددت - والأماني اليقظة هي الموحيات الأولى التي توجّه الأبوة كيف تضع الخطوط الرشيـدة لسلوك البنوة - وددت لو اتصلت بك من قريب ، ولو صحت هذه الأمنيـة لاسترحت من كثير من السؤالات التي تبحث عنها اليوم .

نعم ، لم يكن في الرسالة شيء جديد بالنسبة إليّ ، فقد كنت عرفت الطاقة ، وقدّرت مبلغها ، وعلمت اتجاهها ، ورغبت أن أؤدي أمانة الله في إمدادها وتعبئتها وتوجيهها . . . ولله أمر هو بالغه .

ولكني وقفت حتى طال وقوفي على رسالتك هذه ، وطال تكراري لقراءتها ، لأنها تقول لي : ان المرتقى الذي كنت توسمته لولدي بالأمس ، هو بذاته الهدف الذي يختطه لنفسه اليوم ، ويدأب في السعي له ، ويؤمن بأنه مسؤول عنه ، ويضع طاقته و (امكانياته) في رصيده !! :

هو هو بذاته ، لم تتبدل ملامحه ، ولم تضعف قوّته ، ولم ينحرف اتجاهه !! .

سرابها الحبيب سر ، ان الغاية منك قريب جداً ، هي في متناول يدك ، ولا يمنعك اي شيء من ان تشدّ عليها بكفك .

سرابها الحبيب سر ، ان الغاية التي تبتغيها ، وتعدّ طاقتك لها رفيعة جداً ، ولكنها ليست ببعيدة على ذوي الكفاءات .

لا . لا يابني ، لست في بداية السلم كما تقول ، وليس الأمل بعيداً منك كما تشير ، ولكنها الطموح والوله الشديد بالغاية يدفعان بك اليهـا

دفعاً ، وانت من أجلها تستبطىء ما هو عاجل ، وتستبعد ما هو قريب !! .

سر الى غايتك ، فالله نصيرك ما دمت تضمر نصرة الله ، والدعوة الى دينه والتعريف بشريعته ، من سبيل علم الطب ، ومن سبيل إيضاح العجائب والمدهشات التي يحتوي عليها تشريع الاسلام ، والعجائب والمدهشات التي يشتمل عليها تركيب جسد الانسان ، والقوانين الحكيمة التي تسند كيانه . وتدبر حياته . سر الى غايتك فالله نصيرك ومجيرك ، وسترى آثار نصر الله لك ، ورحمته اياك في كل خطوة تخطوها ، وفي كل عقبة تمر بها .

ولكن الشرط الأول والاكبر لهذا الضمان - ايها الحبيب - هو الاخلاص .

هو الاخلاص في النية ، والاخلاص في العمل .

الاخلاص في النية ، فلا تحيدُ عن هدفك ، ولا تتجه فيه لغير ربك .

والاخلاص في العمل ، فلا تنزلق مع الهوى ، ولا تلين للنزوات ، ولا تذل للمغريات .

حبيبي ... - واسمح لأبيك ان يؤدي بعض واجبات الأبوة ، وان كنت اثق انك أسمى نفساً من هذه المناة - :

انا لا أحاذرُ على عقيدتك ابداً ولا على ايمانك ، فقد مهدت لها الفطرة ، وحصنتها الفكرة ، وعلم الطب الذي اخترته من علوم الكون ، ومقدماته وتوابعه وسائر ما يتصل به من قريب او من بعيد ، كلها مما يعزز العقيدة الحق ، ويشد بناءها ، ويثبت الايمان بها تثبيتاً قوياً لا زلزلة معه ولا اضطراب .

انا لا احاذر على ايمانك أبداً ، فالجو الذي أقبلت عليه ، وكل جو

علمي سواه مشرق بنور الحق ، ساطع بعبير الايمان ، وان حجب عنه الغافلون والمتجاهلون .

ان الايمان بالله وبقدرته وباهر حكمته ، وبصدق الرّسول محمد(ص) وصدق دينه وصدق كتابه ، يشعّ من مبضع الجراح ، وسكين المشرح ، ومجهر المختبر ، ومن كل آلة للكشف اخترعها الطب ، وكل وسيلة وضعها للوقاية ، وكل طريقة ابتكرها للعلاج ، ويشع من آفاق الصحة في الصحيح ، وأطواء المرض في المريض ، كما يشعّ من فكرة الأستاذ وهو يحاضر ، ومن روع التلميذ وهو يتلقّى ، وكليّات العلم الكونيّ ومعاهده ومختبراته ومعامله معاهد تلقّن الايمان الراسخ بالله ، وتقيم الحجج الدامغة على علمه وقدرته ، قبل ان تلقّن التلميذ قوانين العلم وتفهمه نظرياته وأسسه ، وان غفل اكثر التلاميذ ، بل واكثر الأساتذة عن هذه الحلقة من الدرس !! .

انا لا احاذر على عقيدتك وانت مقبل على هذا الجوّ المشرق بالنور العابق بالشذا ... ولكن .

ولكن المغريات ، والمزالق الكثيرة المتنوّعة ، المبثوثة في كلّ سبيلٍ ، هذه هي التي أحذّر ولدي منها ، وأربأ به ان يستذلّ لها ، او ينخدع باغرائها . وغايتك اكبر وأسمى من هذه المنحدرات والمباءات . والله سبحانه هو العاصم الكافي ، ومنه أسأل ان يزوّدك بعصمة من تقواه .

هذه المغريات الكثيرة بجميع ألوانها ، وبمختلف فنونها وأساليبها ، لست اخص منها صنفاً ولا نوعاً ، هذه الصوارف التي تعترض سبيل الشاب أنّى سار ، وأنّى اتّجه ، فتحوّل وجهه عن الله وهو يريد القرب منه ،

وتشغله عن هدفه الذي رسمه لنفسه ، وتبدد طاقته التي جمعها ، وتصرفه عن غايته الكبرى أو تكاد !! .

لا . لا . إنك اسمى من ذلك وأبعد ، ولكنها قولة أردت أن أزيدك بها يقظة وحذراً .

وبعد ، فان رسالتك قد احتوت عدداً من الأسئلة ، وكل واحد من سؤالاتك يقتضي جواباً مبسوطاً ، وانت تعلم بوقت ابيك ، وشــدة مضايقاته ، ولذلك فسأتعرض في رسالتي هذه لجواب مسألة واحدة منها ، وادع الباقي لرسالة اخرى .

سأتعرض في هذه الرسالة لحديثك عن المرأة ، وللنواحي التي تطرّقت اليها من شؤون المرأة واحكامها في الاســلام ، وسأختصر في الجواب ، نزولا على حكم المضايقات التي أشرت اليها ، وأحاول ان يكون الحديث – على اختصاره – وافياً بالمرام .

تعرضت للآية الكريمة الحادية والثلاثين من سورة النور : (وقــل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن الاّ ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن .....) وسألت عن معنى قوله تعالى فيها : ولا يبدين زينتهن الاما ظهر منها . وقوله فيها : وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، وقلت : ما هي الزينة التي استثنيت في الجملة الأولى ، فابيح للمرأة المسلمة ان تظهرها لغير البعــل وغير المحارم من الرجال ؟ ، وتساءلت : كيف يكون شكل الحجاب ، اذا أخذ من هاتين الجملتين ؟ .

ثم سألت عن الحجاب المعروف اليوم ، وعن مدى انطباقه على الحدّ الشرعي للحجاب في الاسلام ، وهل عرفت المسلمات في صدر الاسلام هذا المقدار من الحجاب ، فأخذن به على أنه هو المقـــدار الواجب ، لا على سبيل المبالغة فيه ؟ .

وأودّ ان اقف معك وقفة قصيرة على تفسير الآية الكريمة ، لنستوضح الجواب عن النقاط المسؤول عنها ، وسابقة هذه الآية آية أخرى تقترن معها في السياق ، وتتصل بها في المعنى ، وترمي معها الى هدف واحد ، بحيث يتألف من كلتا الآيتين درس واحد متكامل في الحجاب ، وهما تومیان الى بعض الأسباب التي شرّع من أجلها هذا الحكم في الاسلام ، فمن المجدي ان نتعرض لكلتا الآيتين ، وقبل الدخول في الموضوع أود أن تقرأ الفصل (٢٤) من كتاب (العفاف بين السلب والايجاب) ففيه أحاديث لاغنى عنها في ايضاح معنى الآيتين الكريمتين ، ولا موجب لتكرارها في هذه الرسالة .

ان الاسلام يرمي الى انشاء مجتمع طاهر نقي ، منزه في صلاتـــه وعلاقاته ، وفي اخلاقه وعاداته واعماله ، عن كل ما يخـــل بالتّطهر ، أو يخدش بالكرامة ، او يهبط برفيع الأخلاق ، وسامي الصفات والعادات ، وتحقيق هذه الغاية يتطلب من الاسلام نظرة جادّة واعية ، تحيط بكل ما يخدش وما يريب ، وبالأبواب التي تنفذ الى ذلك ، والذرائع التي تؤدي اليه ، ثم يتطلّب منه ــ بعد هذه الإحاطة ــ علاجاً حاسماً شاملاً ، يقي الأفراد ، ويوصد الابواب ، ويسدّ الذرائع .

عليه ان يقوم ــ أوّلاً ــ بتحديد جرثومة الداء ، وضبط مؤثّراتها ،

واسباب نموّها وانتشارها ، ويقوم – ثانياً – بدور الوقاية العاصمة ، التي تحصر الداء ، وتمنع العدوى ، وتكسب المناعة ، ثم بدور العــلاج الحاسم الذي يبيد الجرثومة ، ويجتثّ الأعراض ، ويضمن الصحة .

وكذلك صنع الاسلام ، والآيتان اللتان نريد التحدث عنهما تتكفّلان بناحية واحدة من تلك النواحي ، انهما تتكفلان بحسم الفساد الذي يصيب الآحاد ، ثم يطرق المجتمع من طريق النظرة الخائنة ، وما يمهد لها من بواعث ، وما يتبعها من أحوال وشؤون .

والنظرة الخائنة – بالمعنى الذي عناه الاسلام ، وأومأت اليه الآيتان الكريمتان – هي أوسع الابواب التي يتطرّق منها هــذا الوباء وينتشر ، وهي اشدّها خطراً ، وأقواها تأثيراً ، ولابدّ للمشرّع من أن يلاحظ كل اولئك بنظر الاعتبار ، فيتّخذ له أهبته ، ويضع للداء مايستأصله من الدواء.

والإجراء الأول الذي اتخذه الاسلام في هذا السبيل : هو حكمه على الرجال ، وعلى النساء بوجوب غض البصر : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ..... وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن) .

والغضّ في اللغة : النقص والخفض ، فيقولون : غضّ منه ، اذا انتقصه وخفض من قدره ، ويقولون : لاغضاضة في الأمر ، اي : لانقص ولا ضعة ، وفي سورة الحجرات : (ان الذين يغضون اصواتهم عنــد رسول الله) اي يخفضونها ، وعلى هــذا ، فمعنى الغضّ من البصر ان يخفضه الانسان ، فلا يمدّه الى مالا يحلّ له النظر اليه ، وفي عقيدتي ان معنى الجملة اوضح من أن يحتاج الى تفسير .

(قل للمؤمنين : يغضّوا من أبصارهم) ، فـلا ينظروا الى مالا يسوغ لهم النظر اليـه ، وستوضح لهم الآيتان من يجوز النظر اليـه من الأشخاص ومن لا يجوز ، وما يباح النظر اليه من مواقع النظر ومالا يباح .

(قل للمؤمنين : يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم) . واقتران هاتين الجملتين — وخصوصاً بملاحظة اقترانهما في كلتـا الآيتين — يوحي بصلة قريبة قوية ملحوظة في التشريع ما بين غض البصر وحفظ الفرج .

وحفظ الفرج عن التعدي والانزلاق في الرذيلة : هو الغاية المهمة المقصودة من الحكم بوجوب غض البصر ، والنظرة الخائنة : هي السبب الأوّل والأقوى الذي يمهّد لهذا الانزلاق ، فلعل الجملتين تشيران الى ذلك ، فهما توميان الى حكمة التشريع ، والصلة القريبة الملحوظة ما بين غض البصر وحفظ الفرج — على هذا التفسير — هي الصلة ما بين الوسيلة والغاية .

وفي الآثار الواردة عن اهل البيت (ع) : ان المراد بحفظ الفرج في هاتين الآيتين : هو صونه عن أن ينظر اليه ، وعلى هذا التفسير ، فالصلة ما بين مضموني الجملتين قريبة جداً ، فكلتاهما لتحديـد مواقع النظر ، ووجوب كفه عما لا يحل ، فيجب على كل مؤمن ان يغض بصره عن كل محرم ، وان يحفظ فرجـه عن كل ناظر ، عدا ما دلت النصوص الكريمة على استثنائه ، واذا وجب على كل مؤمن ، وعلى كل مؤمنة ، أن يصونا فرجها عن كل ناظر ، فقد وجب عليهما ان يحفظاه عن أي تعدّ وأي انزلاق .

(ذلك ازكى لهم) ازكى لنفوسهم وقلوبهم ، وأطـهر لمجتمعهم

وعلاقاتهم ، وأبعد لهم عن التواءات الغريزة ، وما تجرّ وراءها - اذا أثيرت- من مخازي يوجبها الانطلاق ، أو عقد ومتاعب نفسية يسببها الحرمان ، وهي حين تستثار بغير سبلها المشروعة ، فانها تنتهي الى إحدى النهايتين لا محالة .

(ذلك ازكى لهم) ومن أجل هذه الزكاة شرّع هذا الحكم ، ومن أجل هذه الزكاة شرّعت جميع احكام الحجاب .

(ان الله خبير بما يصنعون) ، وانها لرقابة شديدة محيطة ، لا يفلت من قبضتها سر ولاعلن ، ولا قول ولا عمل ، ولا اغضاء جفن ، ولا حركة لحظ ، ولا خاطرة قلب . رقابة الله الخبير بما يصنعون ، الحسيب على ما يسرّون وما يعلنون ، والعبد المؤمن يستشعرها عقيدة ثابتة ، تمتلىء بها مشاعره ويقوم عليها ايمانه ، فيكون - من أجلها - يقظان الحسّ ، يقظان الضمير ، دائم المراقبة لأعماله ، دائم المحاسبة لنفسه عليها .

وقد تنشز بالمرء احوال يتبلّد فيها ضميره ، أو يغفل ، أو ينخدع ، فلا يؤنب على مخالفة ، ولا يحاسب على تقصير ، والآيات القرآنية تذكّره برقابة الله العظيمة ، القادرة القاهرة ، ليكون دائم اليقظة ، دائم الحذر .

وتأتي الآية الثانية ، لتلقي الى النساء ذات الأمر الذي القته الآية الأولى الى الرجال ، ثم لتتبعه بالمهمّ الوافي من احكام الحجاب : (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن) قل لهن كما قلت للرجال المؤمنين من قبل : ليغضضن من ابصارهن ، فلا يمددنها الى اي محرّم ، وليصنّ فروجهنّ عن ايّ ناظر ، ثم عن ايّ تعد . قل للمؤمنين

وقل للمؤمنات : يصنعوا كذلك ، فالمؤمن أولى الناس جميعاً باطاعة أمر ربه ، وأحذرهم عن مساخطه ، ثم هو أشدهم محافظة على تزكية نفسه ومجتمعه ، وعلى اعلاء صفاته وأخلاقه .

وكلمة المؤمنين في مطلع الآية الأولى ، وكلمة المؤمنات في مطلع الآية الثانية ، بمثابة سياج حصين يبيّن حدود المجتمع الأسمى ، الذي تشرّع لصيانته هذه الأحكام .

وكلمة (ويحفظوا) - في مجالها الخاص من الآيتين - أدلّ على وجوب الصون وابتغاء العفّة الكاملة من أية لفظة سواها .

(ولا يبدين زينتهنّ الاّ ما ظهر منها) والزينة هي كلّ ما من شأنه ان يحّصل الجمال ، أو يظهره ، او يضاعف جاذبيته ، والتزيّن رغبة أصيلة في نفس كل أنثى ، لا تختلف مع المجتمعات ، ولا مع العصور ، وان اختلفت معها وسائل الزينة وطرائقها ، كما اختلفت معها مقاييس الجمال.

ومن حق المرأة ان تلبّي هذه الرغبة ما دامت فطرية أصلية في نفسها ومن حقّها ان تفنّن في تلبيتها ، اذا كانت الوسائل والطرائق التي تستخدمها لذلك مشروعة نظيفة ، ولكن ليس من حق المرأة أن تعرض زينتها على اي ناظر أرادت . ان هذا حق تنتهي شرعيته حيث تبـدأ الفتنة ، أو تتطرق الريبة ، فلا يباح للمرأة ان تبدي زينتها حين ذاك .

(ولا يبدين زينتهن) وجليّ انّ المراد : ولا يبدين مواضع الزينة من أجسادهن ، فان الزينة ذاتها - اذا لم تصحب شيئاً من اعضاء المرأة - لم يجب حجابها ، ولم يحرم على الأجنبي النظر اليها .

وجليّ كذلك : ان المراد : ولا يبدين مواضع الزينة من أجسادهن ، وان كانت تلك الاعضاء عاطلة من الزينة بالفعل ، والتعبير بزينتهن تجري الآية فيه مجرى الغالب ، ثم هي تلمّح الى انّ الزينة : هي مبعث الفتنة والإغراء ، فهي أحرى بان تستر وتصان ، وأن تكون من حق رجل واحد ، هو شريك المرأة في الحياة ، وان لا تُبدى لغيره من الرجال ، الا الذين تؤمن منهم الفتنة ، وتنعدم الريبة .

وجلي اخيراً : ان المراد : ولا يبدين من أجسادهن حتى المواضع الأخرى التي لم تجر العادة بوضع شيء من الزينة عليها ، وهذه كبعض الاعضاء الخفية من جسد المرأة ، ودلالة الآية الكريمة على وجوب سترها واضحة لا تخفى .

وبعد استيضاح هذه المعاني من الآية الكريمة ، فلابد وأن يكون المراد بقوله : (الا ما ظهر منها) : الا المواضع الظاهرة بذاتها من مواضع الزينة .

وقد اختلفت اقوال المفسرين والفقهاء في تحديد هذه المواضع المستثناة ، والذي يظهر لي من ملاحظة مجموع هذه الجملة ، ومن قوله تعالى في الجملة الآتية بعدها : (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) ، ومن ملاحظة الآثار الواردة عن الأئمة المعصومين (ع) في تفسير الآية الكريمة : الذي يظهر من ملاحظة ذلك ، ان المراد بما ظهر من مواضع الزينة : الوجه والكفان ، شريطة ان لا يكون في إبدائها فتنة ولا ريبة ، اما أذا اوجبت ذلك ، فان النظر اليها محرم بالاجماع ، وهي وغيرها من مواضع الزينة سواء بسواء

كما قلت في كتاب (العفاف بين السلب والايجاب) .

(وليضربن بخمرهن على جيوبهن) والخمار هو ما تغطّي به المرأة رأسها وشعرها ، والجيب فتحة الثوب مما يلي الصدر ، واذن فلابد لها من خمار ، او ما يفيد فائدته من ستر الرأس والشعر ، واذن فلابد من ستر شعر الرأس حتى ما احاط منه بالوجه ، وليس هو من الزينة التي استثنتها الآية الكريمة فأباحت ابداءهـا ، واذن فلابد من ستر الرقبة والصدر وما يتصل بهما .

هذا ما يجب على المرأة ستره عن كلّ أجنبي ، غير ما استثنته الآية: جسدها كلّه ، وجميع مواضع زينتها ، الا ما ظهر منهـا ، وما ظهر من مواضع الزينة انما يسوغ للأجنبي النظر اليه اذا لم يوجب فتنة ولا ريبة ، وقد عرفت المؤمنات في صدر الاسلام هذا المقدار من الحجاب ، وأخذن به على سبيل الوجوب ، والرواية التي اشرت اليها في كتابك – اذا صحت – فهي بعض الشواهد على ذلك : روايـة (فما منهن امرأة الا قامت الى مرطها المرجّل فاعتجرت به) ، واقول : اذا صحت ، لأنها لم ترو من طرقنا المعتمدة ، وقد اخرجت في سنن ابي داود ، وبمعناها رواية أخرى أخرجها البخاري .

عرفت المؤمنات في صدر الاسلام ذلك المقدار من الحجاب وأخذن به على سبيل الوجوب ، وعرف الكثير منهن النقاب ، وخصوصاً الشابات ومن يقاربهن في السن والجمال وأخذن به حـذراً من الوقوع في الريبة ، والنقاب ان تدير فضل خمارها على فمها وما يتصل به من محاسنها . وعرف

الكثير منهن الجلباب ، ولا سيما بعد نزول قوله تعالى في سورة الأحزاب: (ياايها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى ان يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً) وقد تحدثت حول هذه الآية الكريمة في الفصل ٢٥ من كتاب (العفاف بين السلب والايجاب) .

(ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن) والبعل هو صاحب الحق المطلق في الاستمتاع بزينة المرأة ، ما ظهر منها وما بطن ، ومن حقوقه على الزوجة: ان لا تقصد بزينتها احداً غيره ، ولا تبديها لناظر سواه ، عدا من تمّحي لديهم الفتنة ، ويبطل الإغراء ، وهم الذين ذكرتهم الآية ، والحقتهم في هذا الحكم بالأزواج .

على فارق كبير بين هؤلاء وبين الأزواج ، فالبعل يجوز له النظر الى اي عضو شاء من أعضاء المرأة ، ولا يباح ذلك لأحد من هؤلاء .

(ولا يبدين زينتهنّ الا لبعولتهنّ ، أو آبائهن ، أو آباء بعولتهنّ او أبنائهنّ ،او ابناء بعولتهنّ ، أو اخوانهنّ ، أو بني اخوانهنّ ، أو بني اخواتهنّ ، او نسائهنّ ، او ما ملكت ايمانهنّ ، او التابعين غير اولي الاربة من الرجال ، او الطفل الذين لم يظهروا على عورات النســاء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، وتوبوا الى الله جميعاً - ايها المؤمنون - لعلكم تفلحون) .

وأحسب ان معاني هذه الجمل من الآية الكريمة واضحة ، لا تحتاج الى تفسير ، ولا يتوقف عليها الجواب .

عزيزي : لقد طال الجواب ، وطال التأخير مني ، وطال الانتظار

منك ، لاسباب لا تجهل اكثرها ، فاليك معذرتي مع وافر شوقي ، وتحياتي الكثيرة لك ولمن يعز عليك ، واسلم .

تباشير . الشخصيـــة . تعريفها . الشخصية الاسلاميـــة المتكاملة . اساسها . مقوماتها . ابعادها . تثقيف الفتاة . معاهد التثقيف . الادوار الاجتماعية التي تقوم بهاالمرأة . العبودية البيولوجيةللمرأة . لاينكر الاسلامقابلية المرأة . الثقافة التي يريدها الاسلام للمرأة . علم الدين .

٣٣

بغداد – كلية الطب . ٢٠ شعبان سنة ١٣٨٧ .

ولدي الحبيب النجيب ٠٠٠٠٠ دمت في حفظ الله وأمنه من كل ما اخشاه عليك .

تحية الاسلام المباركة ، وأماني الأبوة الطيّبة ، وأحلام الحب المشرقة ، ومن الله سبحانه أسأل لك مزيداً من توفيقه ، ومدداً من رشده ، وقبساً من نوره يضيء لك كل ظلام ، ويكشف لك كل خفاء ، ويثبّتك عند كل اضطراب .

عزيزي ٠٠٠ : أسمعت نبأ ذلك الرجل الذي خرج من أهله ليقبس لهم ناراً ، فسافر عنهم سنة كاملة ، ثم عاد من سفره ، واقتبس في طريقه لهم ناراً ، وأقبل بها يعدو ، فسقط على وجهه ، وتبدّد الجمر من يده ، فقام مسرعاً وهو يقول : تعست العجلة .

لعلك تتذكّر هذا المثل ، حين تصلك رسالتي لتجيبك على سؤال أرسلته اليّ قبل عامين .

وقد تعجب كثيراً اذا قلت لك : عامين ، لان المدة لا تبلغ هـذا المدى في ما تظن ! .

نعم ، بعد عامين وأيام من التأريخ الهجري لرسالتك العزيزة .

وأرجو ان لا يعجلني طبع الرسائل ، فأبدّد المادة التي أريد تقديمها ، وأضطرّ الى سبّ العجلة ، كما صنع قائل المثل ، وعلى أي حال فانك قد خبرت من أحوالي وأعمالي ما يكفيني عن العذر ، فانا في سعة من ذلك .

ولدي : اتّصلت بك برهة ضاعفت لي الدّلالة على صحّة آمالي التي أمّلتها بك ، وأثبتت صواب مخطّطاتي التي كنت توسمّتهـا لمستقبلك ، ويضاعف مسرّتي أني اجد رغائبك وآمالك تنساق الى الإتجاه الذي أحببته لك ، والى القمّة التي رجوتك لها ، وأنّك من الغاية المأمولة جدّ قريب .

نعم جدّ قريب ، ولم تبق عليك غـير بضع خطوات في ميادين الشخصيّة ، تضعها باتّزان وتجتازها بحزم ، ونجاحك الذي أشرفت عليه في كلية الطب إحدى الخطوات ، أمّا الخطوات الباقية ، فكلها تعود الى نجاحك الكامل في تربيتك النفسيّة على ضوء مناهج الاسلام .

الشخصيّة الإسلامية المتكاملة ، التي تفتح لك المغالق ، وتذلل لك المصاعب ، وتنير لك السبل في متاهات هـذه الحياة ، وتجمع لك السعادة بكل أطرافها وبكل أبعادها .

الشخصيّة الإسلامية المتكاملة ، فهل تسمح لي أن أحدّثك عنهـا

بإيجاز ؟ .

وموضوع الشخصيّة الإسلامية يستدعي بحثاً مسهباً يحيط بمقوّمات الشخصية وسماتها ، وعطائها ، ومعطيّاتها .

يستدعي بحثاً مسهباً : لأهميّة الموضوع ذاته ، ويستدعي بحثاً مسهباً : لتعدّد جوانبه ، ولكنني سأتحدّث عنه بمقدار ما تتحمّله رسالة ، وبمقدار لا يزاحم جواب سؤالك فيها ، فما هي الشخصيّة ؟ .

مجموعة من السّمات والخصائص ، تجتمع فتكوّن للفرد هويّة خاصة تميّزه عن الأفراد الآخرين ، وبمقتضى علوّ تلك الصّفـات والخصائص وهبوطها ، واستقامتها وانحرافها ، يتعيّن مركز ذلك الفرد في مجتمعه ، علواً وهبوطاً ، واستقامة وانحرافاً ، وهي سّر نجاحه أو إخفاقه في الحياة ، وهي أساس قبوله أو رفضه لدى الآخرين .

هذه هي الشخصيّة ، فإذا تألف من تلك المجموعة نظام كامل مترابط سمّيت الشخصية متكاملة .

وتقابلها الشخصية المنحلّة المفكّكة : التي لا يكون بين مجموعـة صفاتها ترابط ، وتقابلها من وجه آخر الشخصية القلقة : التي تصطرع فيها عدّة من الصفات المختلفة النّزوع ، المتضادة الإتجاه .

والشخصيّة الإسلامية المتكاملة : هي التي تكون مجموعـة الصفات والخصائص فيها كلها من صنع الاسلام ومن إشعاعه ، ويكون التّرابط ما بينها على ضوء مناهجه وتربيته .

هي التي يصوغها الإسلام وفق مناهجه ، ويمدّها من قوّته ، ويوجّهها

الى غايته ، فلا ضعف ولا قلق ، ولا تفكّك ولا انحراف .

ومن أهداف الاسلام الأولى أنه يسعى ليصوغ أبناءه كافّة على الوجه الذي يريد ، ولكن الأبناء يرغبون - أو يعجزون - عن هذه الغاية ، فيبعّضون المنهج ، ويقبسون من الاسلام ومن سواه ، ويخرجون من هذا الخلط الشّائن بشخصيات مرقّعة ، لا تستطيع أن تحمل عبءاً ، ولا تستقيم على وجهة .

ولدي العزيز : والأساس الذي يقوم عليه بناء الشخصيّة ، وترتكز عليه ، وتستمدّ منه جميع مقوّماتها ، والمحرّك الذي يوحّد وجهتها ، ويدير حركتها ، هي العقيدة بالله :

بالعلّة التي أبدعت هذا الكون وأوجدت هذا الكائن ومدّتهما بالتدبير .

والنفس مولعة بالبحث عن مبدإها الذي عنه تكوّنت ، وموئلها الذي اليه تصير ، فاذا هي اعتقدت بخالقها وآمنت بوجوده ، استقرت وهدأت ، والاّ عاشت في حيرة مجهدة ، وقلق دائم ، فلا هدوء لها ولا قرار .

والعقيدة بالله هي الأصل الأعظم من أصول الاسلام ، فلا يثبت إسلام أحدٍ الاّ بها ، وهي انما تكون أساساً للشخصية وسبباً لتكاملها ، اذا استمكن الايمان بها في نفس الفرد ، بحيث عمّ جميع آفاقها ، واستبان أثره في جميع اتّجاهاتها .

إن الفرد ليؤمن بالله ، ويفكّر في لطفه به ، وجميل صنعه ، وعظيم تدبيره ، ومتواتر نعمه التي لا تنقطع ، وبرّه الذي لا ينتهي ، فيستشعر

في قلبه حب الله . . . . . . حباً عميقاً ذاتياً يأخذ عليه أقطار نفسه ، ويمتزج بقواه ومشاعره .

حباً ذاتياً ، جوهره تعلّق المعلول بعلّته ، وافتقار الموجود الى موجده .

وكيف لا يأخذ حبّ الله عليه أقطار نفسه ، وهو يعلم انّها بعض هباته ؟ ! ، وكيف لا يمتزج حب الله بقواه ومشاعره ، وهو يعلم انها جميعاً بعض عطاياه ، وهو يطلب منه المزيد والمدد فيها وفي سواها ؟ ! .

ويفكّر في رقابة الله العظيمة ، وعلمه المحيط بالسّر والعلانية والصغيرة والكبيرة ، وفي أخذه الشديد سيّيء العمل ، وعذابـــه الأليم على موبق الخطيئة ، فيستشعر الخوف من الله . خوفاً بالغاً يملك عليه ارادته ، ويوقظ ضميره ، ويؤدّب غرائزه وانفعالاته .

ويسيطر الايمان الراسخ بالله ، والحب العميق له والخوف الشديـــد منـــه على مشاعر ذلك الفرد ونزعاته ، فلا تنطلق الا حيث يريد الله ، ولا تسير إلاّ وفق رُخَصه وأوامره ، وكيف يتسامح في طاعة الله وهو يحبّه ذلك الحب العميق ؟ . وكيف يجترىء على معصية الله وهو يخافـــه ذلك الخوف الشديد ؟ ! .

وفي إشعاع الايمان بالله ، وفي ظلال حبه والرهبة منه يستكمل الفرد صفاته الوجدانية والخلقية والاجتماعية ، وتتحدّد صلاته بالأفراد الآخرين ومنزلته في المجتمع ، ومهامه فيه .

وفي اشعاع الايمان بالله ، وفي ظلال حبه والرهبة منه ، وبعطاء شريعة الله وأثر تربيتها الحكيمة ، تنمو الصّفات وتثمر وتترابط ، وتتكامل الشخصية

وتسمو منزلتها في المجتمع ، وتعظم مهمّاتها فيه .

وفي اشعاع الايمان ، وفي ظلال حب الله وعطاء شريعتـــه ، ترتفع الشخصية في جميع الميادين ، وترتفع حتى تصبح عبقريّة نادرة المثال .

ولدي : هذه المامة قصـــيرة توضح لك معالم الشخصيّة وأبعادها ومعطياتها في الاسلام ، الشخصية الحبيبة لكل نفس ، الرفيعة في كل مدى ، الفائزة في كل سبق ، المامة قصيرة تغنيني معك عن بحث طويل ، ولعلي أعود الى الحديث في رسالة أخرى قريبة ان شاء الله .

وبعد هذه المطارحة اعود الى رسالتك . الى سؤالك الثاني فيها .

وسؤالك هذا حول تثقيف المرأة وتعليمها .

قلت : ان الاسلام أمر بطلب العلم ، وجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وأمر كل ذكر وانثى بالتدبّر في حكمة الله ، ودلائل قدرته في صفحات الوجود ، واستخدام العقل والعــلم في ذلك ، وانكر على الفرد — ذكراً كان أو أنثى — ان يعيش في غياهب الجهل والخمول العقلي ، ثم قلت : ولكن الاسلام ـ الى جنب ذلك ـ يأمر المرأة بلزوم البيت وعدم مغادرته الا لضرورة .

وسألت : كيف يتسنى للمرأة التي تلزم البيت ولا تغـــادره : ان تطلب العلم ، وتحصل على الثقافة الصحيحة ، وكيف يتفتّح عقلها ، وينضج تفكيرها ، وتكتسب الخبرة في شؤون الحياة ، وهي رابضة في قعر دارها ، ولا تخرج الى معهد أو دار علم ، ولا تحتكّ بالمجتمع كي تصقل تجاربها ؟ .

والسؤال الذي تذكره ليس جديداً في التأريخ ، فهو أحـــد الوجوه

التي يحتجّ بها دعاة السفور على منع الحجاب ، يقولون : ان حجاب المرأة يمنعها عن التهذب والتعلم ، وكيف تهذب وكيف تتعلم ، وهي من وراء حجاب ؟ .

وممن سبق الى هذا القول وهـذا الاحتجاج من الادباء العرب ، الاستاذ قاسم امين في كتابه (المرأة الجديدة) .

هكذا يقولون ، وهكذا يحتجون ، كأن من شروط تحصيل العلم والثقافة ، وتفتح العقل ، ونضج التفكير ، واكتساب الخبرة في شؤون الحياة ، أن تختلط المرأة مع الرجال ! وكأن دور العلم ومعاهد التثقيف يجب ان تكون مختلطة ، فان سمحنا للانثى بدخولها ، والا فقد كتبنا عليها ان تبقى جاهلة خاملة !

لماذا لا نفتح لفتياتنا المدارس والمعاهد والكلّيات الخاصة بهن ، التي تصونهن عن الاختلاط ، وتبلّغ الفتاة الدرجة التي تتطلع اليها من الثقافة ، والفرع الذي ترغب الاختصاص به من العلم ؟ .

لماذا لا نفتح للفتيات المدارس والمعاهد العالية الخاصة بهن ، ونهيء لهن الاستاذات القديرات ذوات الكفاءة ، اللاتي يضمنّ لتلميذاتهن بلوغ الغاية في أي حقل من حقول الثقافة ، وفي اي فرع من فروع العلم ؟ .

أمّا أن نوصد في وجوه الفتيات أبواب التثقيف الا في المعاهد المختلطة ، ثم نقول للاسلام : عليك أن ترفع الحجاب عن المرأة وتسمح بدخولها هذه المعاهد ، والا فانك قد حرمتها حقها من الثقافة وطلب العلم . او انك قد تناقضت في تعاليمك ، كما تقتضيه عبارة السؤال .

أما ان نفعل نحن حسب مشتهياتنا ما نشاء ، ثم نحمّل الاسلام التبعة ، ونلقي عليه المسؤولية فهـذا هو المنطق الملتوي ، وعلى اي حال فالاسلام لا يقبل هذه المساومة .

بلى ، ان الاسلام يطب كل داء ، ويحل كل مشكلة ، ولكنه لا يتبنّى منتجات النظم والمبادىء الأخرى ، ولا يصحّح أخطاءها ، ولايقيل كبواتها ، ولا يتمم نقصانها ، وشأنه في هذه الظاهرة شأن المبادىء التي تحترم ذواتها ، وتأبى على مقرّراتها وقواعدها ان تتناقض أو تتعارض . انها لا تتبنّى منتجات سواها ولا تتحمل تبعاتها .

ان الاسلام أمر المرأة ان تحتجب عن غير المحارم والزوج من الرجال، وقد تعرضت لبعض وجوه الحكمة في هذا العلاج الاسلامي في رسالة سابقة، وامرها ان تلزم بيتها تمكيناً لهذا الحكم وتبعيداً لها عن الاختلاط ، ولكنه لم يمنعها ان تخرج الى معاهد التثقيف ودور العلم ، اذا كانت هذه المعاهد والدور مختصةّ بالاناث ، بعيدة عن الاختلاط ، ولم يمنعها أن تخرج لتقوم بوظيفة اجتماعية لا تؤدي الى الاختلاط ، كالتطبيب للنســاء والاطفال ، والتدريس الابتدائي او المتوسط أو العالي في معاهد الفتيات ، ولم يمنعها ان تبرز في اي ميدان من ميادين العــلم لتقوم بواجب علمي ، او واجب اجتماعي ، لا تختلط في ادائه مع الرجال .

لم يمنعها الاســلام ان تخرج من بيتها لتقوم بشيء من ذلك او ما يشبهه ، اذا هي لم تخالف في خروجها حكماً من احكام الشريعــة ، ولم تهدر حقاً من حقوق الزوج ، او واجباً من واجبات التربية للاطفال ،

الأمور التي كوّنت المرأة لها بحسب الطبيعة . وقد تحدثت عن هذا في كتابي (من اشعة القرآن) .

والمرأة التي تقوم بهذه الادوار المهمة الاجتماعية والعلميـــة ، ليست منفصلة عن المجتمع ، وان كانت من وراء حجاب ، ليست منفصلة عنه ابداً ، فيحصل لها من الاحتكاك الكافي به ، والاتّصال الدائم بمعطياته ، والتأثير والتأثّر بنتائجه مايصقل تجاربها ويضاعف خبرتها في شؤون الحياة .

والاخذ والردّ في الآراء والتفاعل في المشاعر لا يتوقّف على خلع الحجاب بين الرجل والمرأة ، اذا كانت المرأة مزوّدة بالثقافـــة الكاملة ، وبالفهم الصحيح للحقوق والواجبات والمبادىء والغايات .

واذا كثر في النساء من هذا الصنف المتيقّظ الوعي ، المتوسّط او العالي الثقافة ، كان لهن جوّ اجتماعي كامل يتبادل مع محيط الرجال الرأي ، ويتفاعل معه في النتائج ، ويتآزر معه على بلوغ الاهداف .

وقلت في رسالتك : ان بعض الكتّاب أومأ من بعيد الى عدم لزوم الخبرة والتجاريب في الحياة للمرأة ، فانها مستغنية عنها ، وهي انما تحتاج الى ما تدبّر به مملكتها الصغيرة : بيتها . زوجها . أطفالها .

ولا أدري ما يقصد هذا النفر من الكتّاب بعد ان كانت ايماءتـــه من بعيد .

لا تفتقر المرأة الى تجارب في الحياة ، ولا تفتقر الى خبرة في شؤونها ، ماذا يعني هذا القول ؟ ! والى أي حدّ ينتهي ؟ ! والنساء لسن على مستوى واحد ، ولا الى اتجاه واحد ، وحاجة بعض النساء الى الخبرة والتجربة لا

تقلّ عن حاجة الرجال .

ماذا تعمل التّاجرة التي ورثت عن أبيها أو قريبها تجارة كبـيرة متعدّدة الجوانب ، متّسعة الأقطار ، الا تفتقر الى تجارب وخبرة تدير بها تجارتها ، وتدبّر عمّالها ومعاملها وان كانت من وراء حجاب ؟! .

والمّلاكة التي انتقلت اليها بالوراثــة الشرعية وفرة من الاراضي والاملاك ، متباعدة الأمكنة مختلفة الانتاج ، الا تحتاج الى خبرة وتجارب تدبّر فلاحيها ووكلاءها وتستثمر أراضيها ، وان كانت لا تختلط بالرجال ؟! :

و . . . و . .

ومملكتها الصّغيرة : بيتها ، زوجها ، أطفالها ، أسرتها ، الا تفتقر في تدبيرها وحسن رعايتها الى خبرة واسعة وتجارب مضمونة ؟ ! .

لا أظنّ أن اولئك الكتّاب يجحدون ذلك ، ولقد بلغ مجتمعنا الرّاهن ما بلغ من ترهّل الأفراد ، ونقصان التربية ، وجحيم الأسرة ، ولجهــل المرأة وضعف تجاربها وقلّة خبرتها الأثر البالغ في كلّ اولئك !! .

أمّا العبودية البيولوجية للمرأة ، التي أشرت اليها في رسالتك ، وقلت : إن لها إسهاماً كبــيراً في نظرة اولئك الكتّاب ، فإنّها لا تتّفق وتعاليم الإسلام ، ولا يعوّل عليها كاتب اسلامي يعرف ما يقول .

وهي فكرة حديثة وضعها بعض المتطرّفين من أنصار حرّية المرأة ، ليبرّر بها ما يقول .

يقول هذا البعض : إن الرجل فرض سيطرته على المرأة ، وأوحى اليها أنّها لا تستطيع الإستقلال عنه ، وخضعت المرأة لسيطرته ، وأذعنت

لإيحائه ، وبتطاول الأزمان والعصور ، هيّأت الطبيعة أعضاء المرأة للعبودية ، وعدم الاستقلال . إقرأ كتاب (المرأة في عصر الديمقراطية) .

هي فكرة لا تقرّها قواعد الإسلام وتعاليمه ، ثم هي بعــدُ نظرة يعوزها السّند المثبت من العلم ، ومن التأريخ .

واختلاف المرأة عن الرّجــل لا يعود الى شكل الأعضاء وتركيبها فحسب ، بل يعود الى ما هو أدقّ من ذلك وأشمــل ، الى الخلايا التي يتألّف منها جسد المرأة وجسد الرجل ، والى إفرازات الغدد التي تبعث الحيوية وتوجّه النشاط ، والى الخليّة التّناسليّة الملقّحة التي خلقت منها الأنثى ، والأخرى التي خلق منها الذكر ، وفي كتاب (الانسان ... ذلك المجهول) بحوث نافعة في هذا المجال .

وذكرت قابليّة المرأة للنّبوغ ، والتفّوق الفكري في مختلف المجالات العلميّةوالفنّية ، وأشرت الى عدةمن الشّواهدعلى ذلك ، وأسهبت بعض الإسهاب فيه ، ثم قلت : الا يعدّ حجر المرأة في البيت تعطيلاً لقابلية فذة ، وقتلاً لمواهب لو أتيحت لها الفرصة لساهمت في خدمة البشريّة مساهمة فعّالة ؟ .

والإسلام — أيها العزيز — لا ينكر قابليّــة المرأة ، وهو دين الله الذي آتاها هذه القابلية ، والله لا يجحد ما وهب .

الإسلام لا ينكر قابلية المرأة ، ومن أجـل ذلك فرض عليها طلب العلم كما فرضه على الرّجل ، وفسح لها باب العمل كما فسحه للرّجــل ، ووعدها بالدّرجات الرفيعة والحياة الطيّبة — اذا عملت صالحاً — كما وعد الرجل ، سواءً بسواء ، ولا يهمّني الآن أن تكون قابليّتها الفكرية توازن

قابلية الرجل أو تنقص عنها ، كما يقول الأستاذ (دوفاريني) في (دائرة المعارف الكبرى) ، والأستاذ (محمّد فريد وجدي) في (دائرة معارف القرن العشرين) ، و الأستاذ (عباس محمود العقّاد) في كتابه (المرأة في القرآن) ، وهم ينقلون ذلك عن جماعة من علماء الفسلجة وعلماء الأحياء .

لا ينكر الاسلام قابلّية المرأة ، ولا يحجرها ، ولا يعطّل قابليّتها ، ولا يسوّغ قتل مواهبها ، ولكنه يأمرها بالحجاب عن الرّجال ، ولايسوّغ لها الاختلاط بهم ، فعلى المجتمع أن ينشيء لهـــا معاهد خاصّة بها تنمّي قابلّيتها ، وتفتّق مواهبها ، وتبلّغها الغاية التي تسمو اليها ، كما يصنع للبنين .

والاسلام لا يعيّن للمرأة نوعاً من الثّقافة ، ولا فرعاً من العـــلم ، فلها أن تختار ما تشاء منها ، وهو يحبّ لها أن تبرز وتتفـوّق في النوع الذي تختاره من الثقافة ، والفرع الذي تتخصّص به من العلم ، مع مراعاة حدودها الشرعيّة .

ولكن من الخير لهـــا وللمجتمع من ورائها ، أن تختار من فروع العلم ما تستطيع أن تساهم به في خدمة المجتمع ، مع ملاحظة أنها امرأة ربة بيت وذات حجاب ، وقد ذكرت ــ آنفاً ــ بعض الوظائف العالية التي تستطيع أن تقوم بها مع مراعاة حدودها .

هذه ماهيّة الثقافة التي يريدها الإســلام للمرأة ، وهذه أبعادها ، وهذه كيفيّة تلقّيها ، أمّا التوفيق بين ادارة البيت وبين التثقيف ، فأسسه (الامكانيات) الخاصّة التي تجتمع لها ، وهي تختلف من واحدة لأخرى ، كما تختلف في الذكور .

وأمّا علم الدين : علم ما يبيّن لها عقيدتها ، ويصحّح لها عملها ، فهو واجب عينيّ عليها ، كما هو واجب على الرجال ، والإزدياد منه على هذا المقدار واجب كفائي على الجميع ، وفي النساء من بلغن الدّرجات العالية في هذه الحقول ، وفي النساء المعاصرات من شهد كبّار المجتهدين لها ببلوغ درجة الاجتهاد ، وحصافة الرأي في الفقاهة .

ولدي : لقد طالت الرّسالة ، لأن النّواحي التي تعرّضت لها في السؤال تحتّم علي البسط في الجواب ، وطول الرسالة قد يوجب السّأم لك وللقرّاء الآخرين — يوم تقع بأيديهم — ، فلأختم حديثي عند هذا الحدّ ، لأبتدئه — ان شاء الله — في رسالة أخرى حول بقية سؤالك عن المرأة ، ومن الله التوفيق .

ولك جميل تحياتي ، وطيّب ثنائي .

الشخصية ايضاً . أبعادها . مقارنـة بين المرأة المسلمة والمرأة الأوربية . شروط المقارنة . نظرة الغرب في المرأة. حقائق مؤسفة . نظرة الاسلام في المرأة . علاقتها بالرجل. النزوع الجنسي . عوامل تجتمع للفتاة . أجدى السبل في ضمان حقها .

٣٤

بغداد – كلية الطب . ١٠ رمضان سنة ١٣٨٧ .

ولدي الزكي الأديب ..... دمت في مسّرة وغبطة .

سلام الله عليك ، وتحياته الزاكية ، ونعماؤه الموصولة ، ونظرته الواقية ، مع عاطفة ابيك ، وباسم أمله ، وخالص دعائـه ، ان يتمّ الله لك النور الذي مدّك به من الايمان ، ويضاعف العطيّة التي رفدك بها من المواهب .

عزيزي : كنت أرسلت إليك قبل أيّام رسالة مسهبـة تتضمّن الإجابة عن بعض سؤالاتك حول تثقيف المرأة في الاسلام ، وإسهاب الرسالة ألجأني لإرجاء بعض الحديث الى رسالة ثانيـة خشية الإملال ، وما أقلّ الجدوى في الحديث إذا أوجب السأم لطوله !.

وتحدّثت اليك في صدر الرسالة عن الشخصية في الاسلام ، كيف تنشأ ؟ وكيف تتكامل ؟ وممّ تتكوّن ؟ وعلى أيّ أساس تبتني ؟ .

الشخصيّة القويّة الثابتة ، التي لا تعرف الوهن في موقف ، ولا الذّبذبة في رأي ، ولا الميوعة ولا الترهّل في سلوك ، ولا الخفّة في مظهر ، ولا التردّد في عمل ، والتي تستمدّ قوّتها وثباتها من قوّة الإسلام وثباته ، ورصانة مناهجه ، ومضاء حجته ، ثم هي - على قوّتها وثباتها - متسامحة مرنة ، قد طبعتها مرونة الاسلام وتسامحه ، وروّضتها أخلاقه وآدابه ، فكانت مرونتها وتسامحها ودماثة أخلاقها من مظاهر قوّتها وثباتها .

الشخصيّة المحبوبة المؤثّرة ، التي جمع لها هذا الرصيد من الحبّ في قلوب الناس ، وهذه الجاذبية لهم ، وهذا الأثر البالغ في نفوسهم ومشاعرهم إخلاصها في النصيحة لهم ، وعملها الدائب لإسعادهم ، وابتغاؤها رضى الله والزلفة لديه بحبّهم ، وحب الخير لهم ، وتطبيق مناهج الله في مواساة فقيرهم ، وتعليم جاهلهم ، وإرشاد ضالّهم ، والأخذ بيد منكوبهم .

الشخصيّة العالمة المؤمنة ، التي رسّخ علمُها ايمانَها ، ودعّم ايمانُها علمَها ، وتساندا على تسديدها في هذي الحياة ، فلم تخط خطوة ، ولم تنهج نهجاً ، ولم تعمل عملاً ، الا عن علم وايمان .

العالمة المؤمنة ، ذات العلم النافع ، والايمان الراسخ البنّاء ، الذي يسري مع الابتسامة ، وينفذ مع الكلمة ، ويشعّ مع النظرة .

الشخصيّة المتفائلة ، التي توقن انّ الكون والطبيعة والحياة والعلم ، كلّها تسير في ركابها ، وتتجّه الى غايتها ، فكلّ حركة ، وكل خطوة تقرّبها من الهدف ، وكل ظاهرة تبشّرها ببلوغ الغاية .

امّا الحركات والخطوات المخالفة لها ، فانّها محدودة موقوتة ، مهما

بلغت من القوّة ، ومهما بلغت من العموم ، لانها تعاكس الإّتجاه الكوني العام ، فمصيرها ولا ريب الى الفناء .

المتفائلة ، التي يعلّمها الاسلام ان تبتسم وتتفاءل ، وينهاها ان تيأس وتقنط ، مهما جدّت الأمور وبلغت من الطغيـــان ، ويلقّنها أن الفرج والفتح روح الله ورحمته ، و (لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) (٨٧ : يوسف) ، (ومن يقنط من رحمـــة ربّه الا الضّالون) ، (٥٦ : الحجر) .

ثم هي الى تفاؤلها حازمة جادّة ، لا يقعد بها تفاؤلها عن الجـدّ ، ولا يسوقها جدّها الى الملل والقنوط ، بل يدعوها التفاؤل والشعور بالمسؤولية الى الجد والأخذ بالحزم .

الشخصيّة التي لا تهمّ إلاّ بالخير ، ولا تفكر الاّ فيه ، ولا تسعى الاّ له .

الخير للناس أجمعين ، حتى للاعـــداء الأبعدين ، وحتى في حربها إيّاهم ، ان الجرّاح حين يقطع العضو الموبوء لا يفكر إلا بسلامة المريض .

هذه الشخصية التي ستتكامل لك يوم تحرز الخطوات الباقية ، التي أشرت اليها في رسالتي تلك ، فأيّ طرف من أطراف السعادة ، وأيّ مدىً من آمادها لا يكون تحت متناول يدك ؟

سر – أيّها العزيز – سر ، فكل خطوة تخطوها تحرز لك مدىً ، وتضمن لك فوزاً .

سر ، فالله كفيل لك بالغاية ، وهو عونك في السعي ، ودليلك في السبيل .

وهذه هي الخطوط التي رسمتها لمستقبلك اوّل يوم راسلتني ، وأول يوم عقد الله هذه الصلة بينك وبيني ، والتي أشرت اليها في بعض رسائلي ، أضعها كاملة بين يديك اليوم ، لتعجب من حسن الإتّفاق ، بـل ومن حسن التّوفيق ، أمّا الغـد الذي ستذوق فيه أولى الثمرات ، وتحقّق لإسلامك فيه أولى الأمنيات فهو جدّ قريب .

ولدي : ذكرت في رسالتك حديثاً لبعض زملائك في كلّية الطب حول المرأة المسلمة ، والتصريح برغبتها في الجنس ، ومقارنتها في هـذه الناحية بالمرأة الأوربية .

قال : ان المرأة الاوربية تخرج الى الشارع ، وتندمج في المجتمع ، وتخالط كثيراً من الناس شبّاناً وشابّات ، وتخطّط في ذهنها صورة لفارس أحلامها ، وتبحث عنه ، فإذا وجدته صارحته بانّها تودّ الإقتران به ، فان وافقها في الرغبـة تزوّجا ، والاّ بحثت عن شخص آخر تتوفّر فيه الصفات التي تحبّها ، لتقترن به ، وبذلك تضمن حقّها الطبيعي في الزواج وإشباع الرغبة من طريقها المشروع .

هذا في الفتاة المستقيمة ، وفي الحالات غير الشاذّة ، ولا يهمنا ما يحدث بعد ذلك من الملابسات .

اما المرأة المسلمة فهي غير قادرة على ممارسة هذا الحقّ لسببين :

اوّلها : تربيتها الدّينية التي تفرض عليها الحياء والخفر ، وعـدم التلميح بأنّها تريد شيئاً ، فإن هى خالفت فلها الويل .

ويضّم الى هذا عدم ورود نصوص تدعو المرأة الى ذلك ، أو تفهم

الآباء بأنّ هذه المطالبة منها حقّ طبيعي ، فإنّ الأحاديث التي وردت في الحثّ على الزواج ، إنمّا اكّدت على دعوة الشاب اليــه ، وليس بينها حديث واحد يدعو الفتيات كما يدعو الفتيان .

والسبب الثاني : ركود المرأة في البيت ، وعدم خروجها الى المجتمع لتعرف الشبّان ، او – على الأقلّ – لتتعرّف على واحد تصارحه برغبتها :

ان الفتى اذا ألحّ عليه خاطر الجنس أعلن بصراحة : انه يريد زوجة، فإلى أيّ سبيل تلجأ الفتاة ؟ ، فهل تنتظر اليوم الذي يطلب يدها الخاطب ؟ وربمّا يطول الزمن دون جدوىً ، حتى تيأس من كلّ أمل لها في الحياة ، ومن هنا ينبع كثير من الأمراض النفسية والجسمية عند الفتيات .

هكذا يقول محدثك ، وقد توخّيت أن يكون السؤال بعبارته التي حرّرتها في رسالتك .

واودّ ان أقول لمحدثك – هذا – قبل أن ألج في صميم الجواب : إن المقارنة بين مبدأ ومبدأ في نتيجة من النتائج ، بل وبين أيّ شيء وشيء آخر في ظاهرة من الظواهر ، لابــدّ وأن ينظر فيها بعين الاعتبار الى الخصائص والسّمات التي يتصف بها كل واحد من المبدأين ، أو الشيئين اللّذين تراد المقارنة بينهما ، والملابسات الخاصة التي تحوط كلّاً منهما ، وتترتّب عليه .

أمّا أن ينظر الى النتيجتين مجرّدتين عن الخصائص والملابسات ، فهذا ما يبعد بالفكر عن الحكم الصحيح .

وللاسلام نظرته الخاصّة التي يقيم عليها أحكامه في الرجــل ، وفي

المرأة ، وفي المجتمع الذي يتقوّم منهما ، وفي علاقة أحدهما بالآخر ، وللمبادىء المادّية التي تسيطر على أوربّا ، وتسيّر المجتمعات والأوضاع فيها نظرتها الخاصة كذلك ، في الرجل والمرأة وفي علاقتهما ، ولكل من النظرتين شؤونها وتبعاتها ، ولا يصحّ لنا ان نسقط ذلك من الحساب ، اذا حاولنا المقارنة بين المرأة المسلمة والمرأة الأوربية في هذه الناحية التي تعرّض لها السؤال ، أو غيرها من النواحي التي حدّدها الاسلام .

وقد بسطت القول عن نظرة الغرب ، في الفصل الثامن ، والتاسع ، والعاشر ، والحادي عشر ، من كتاب (العفاف بين السلب والايجاب) ، « ص ٤١ – ٦٢ » ، وتحدثت عن نظرة الاسلام في الفصل الثاني عشر ، والثالث عشر منه ، « ص ٦٢ – ٦٨ » ، فليرجع اليه من يطلب التفصيل .

١ – قال الغرب بالحرّيـة للانسان ، وهتف بها ، وأمعن في الدعوة إليها .

والحرّية حقّ من حقوق الانسان الفطرية ، التي يجب ان تقرّر له : شريطة ان لا تزاحم حرّية أو حقاً لفرد آخر ، أو تزاحم حرّية أو حقاً للجماعة .

أما إذا أردنا ان نقرّر للانسان الحرية المطلقة في أعماله وتصرّفاته وشؤونه ، دون حدّ أو شرط ، فمعنى ذلك اننّا نقرّر الفوضى المطلقة التي تمزّق المجتمع ، وتبطل القوانين ، وهذا هو موطن الضعف في قولة الغرب أو – بالأحرى – في تحميل الغربيين لكلمة الحرّية اكثر مما تستحقّ .

٢ – وقال بمساواة الرجل والمرأة ، وهتف بها كذلك ، وبالغ في

الدعوة إليها .

ومساواة الرجل والمرأة كذلك حقّ يجب أن يقرّر وأن يحدّد : شريطة أن لا يصادم أمراً قرّرته الطبيعة ، ونفّذت حكمها فيه .

وقد رأينا الطبيعة اعدّت كيان الرجل وأعضاء جسده لحمل شطر من أعباء الحياة ، وأعدّت كيان المرأة وأعضاء جسدها لحمل شطرها الآخر ، ومعنى ذلك : أن الطّبيعة قد أعدّدتها لاشركة الحياة على هذا الوجه ، وعلى هذا التقسيم ، ووجدنا أثقال الحياة التي اعدّت لها المرأة لا يمكن أن يقوم بها أحد من الرجال ، ومن الظلم ان نحمّلها كلّاً من أعباء الرجال وأعباء النساء ، وهذا موطن الضعف في قولة الغرب التي هتف بها .

٣ – وقال بأن المادّة مبدأ كل شيء في عالم الطبيعة ، وهي غاية كلّ حركة فيها ، فلا أصل غير المادّة ولا غاية سواها ، وجحد ما وراء المادة مطلقاً ، فلا إله ، ولا دين ، ولا قيم ، ولا أخلاق .

هذه هي الركائز الثلاث لنظرة الغرب في المرأة ، وفي علاقتها بالرجل ، وفي المجتمع الذي يتألف منهما .

فاذا لم يكن غير المادة شيء ، ولم يكن دين ، ولا قيم ، ولا أخلاق ، وإذا كانت المرأة مساوية للرجل في كلّ شيء ، وفي كل حق ، وفي كل ميدان ، واذا كان المبدأ العام الذي يجب ان تنصاع له البشرية ، وتصاغ عليه قوانينها : هو الحرية التامة المطلقة ، للمرأة وللرجل على السواء ، فلا قيد ، ولا شرط ، ولا حدّ ، فماذا يربط المرأة بالرجل غير الرابطة الطبيعية العامة : غير الرابطة الجنسية ، التي تربط الأنثى من كلّ نوع بالذكر ؟ ، وعلى ذلك فلماذا

تتقيّد المرأة برجل معيّن ؟ ، أو يتقيّد الرجل بامرأة معيّنة ؟ ، وما شأن المواضعات والقيم والاخلاق والدين ، بعد أن نبذناهـا ، وجحدنا أسسها وتبعاتها ، لأنها غير مادية ؟ ، ثم ، ما شأنها وهي تصادم الحرية ، مبدأ البشرية العام ؟ ! .

والطلقت المرأة كما يؤمل لها تحت ظل هذه النظرة ، وانطلق الرجل كما يؤمل له ايضاً ، فان هذا هو منطق الغريزة المتحرّرة من القيود .

وأعان على ذلك الاختلاط المطلق العاري الخليع بين النساء والرجال ، وأعان عليه استقلال المرأة عن الرجل ، واستغناؤها الكامل عنه في شؤون المعاش ، وفي جميع تكاليف الحياة ، وأعان عليه التطوّر في مظاهر الزينة وأسباب التجمّل وفنون الفتنة والاغراء ، وأعان عليه أمور كثيرة أخرى متقاربة المنبع ، متّفقة الاتّجاه .

وماذا ينتظر من غريزة مشبوبـة ، تحدوها دفعة الشباب وعوامـل الإغراء ، وتمهّد لها السبل ، وترتفع دونها الحواجز ؟ ! .

نعم ، انطلقت المرأة الأوربية ، وانطلق الرجل الاوربي ، كما يؤمل لهما تحت ظل هذه النظرة ، وهما بعد لا يزالان منطلقين الى أبعـد حدّ ، وأحطّ غاية في هذا السبيل .

إنّها حقائق مرّة مؤسفة في تأريخ البشرية ، ولكنها — على أي حال — معلومة ثابتة ، ليس في ثبوتها جـدل ولامراء ، وقد أوردت عليها عدة شهادات موثوقة ، يؤديها جماعة من العلماء الغربيين ، فاقرأها في كتابي الآنف الذكر ، ثم هل تريد ان أردفها بشيء من مزيد ؟ .

يقول العالم الاجتماعي الكبير (بول بيرو) : (لم يقف الأمر عند المدن الكبيرة فحسب ، بل قـــد أصبح الشبان في القرى والأرياف ايضاً يعترفون بانه ليس لاحدهم حق في توخي العفة والبكارة في مخطوبته ، إذا كان هو نفسه لا يتصف بالعفاف) . انظر ص (٩٣) من كتاب (الحجاب) لابي الأعلى المودودي .

ويقول عميد كلية شهيرة في باريس لبول بيرو : (ان عامة الشباب يريدون بعقد النكاح استخدام بغي في بيتهم أيضـــاً ، ذلك أنهم يظلون مدة عشر سنين أو أكثر يهيمون في أودية الفجور أحرلراً طلقاء ، ثم يأتي عليهم حين من دهرهم يملون تلك الحياة الشريدة المتقلقلة ، فيتزوجون بامرأة بعينها ، حتى يجمعوا بين هدوء البيت وسكينته ، ولذة المخادنة الحرة خارج البيت) . أنظر ص (١١٦) من المصدر نفسه .

هذا بعض ما في فرنسا ، يكتبه عالم اجتماعي فرنسي شهير .

وفي أمريكا : يقول القاضي (بن لندسي) الأمريكي (رئيس محكمة جنايات الصبيان بهدنور) في كتابه (تمرد النشء الجديد) : (ان خمساً وأربعين في الماءة من فتيات المدارس يدنسن اعراضهن قبل خروجهن منها) . وترتفع هذه النسبة كثيراً في مراحل التعليم التالية . فيكتب : (إن طالباً في مدرسة ثانوية تكون عواطفه دون عواطف الطالبة شدة والتهاباً ، فالمصبية هي التي تقدم أبداً وتأمر ، وما يفعل الصبي إلا أن يتبع ويأتمر) . ثم هذا ليس غير باب نافــذ يفضي الى أبواب . انظر ص (١٢٨) من المصدر المتقدم .

وتقول جريدة (Free press) الامريكية ، التي تصدر بدترويت (Detroit) : (ان ما قد نشأ بيننا اليوم من قلّة الزواج ، وكـثرة الطلاق ، وتفاحش العلاقات غير المشروعة - الدائمة او العارضة - بين الرجال والنساء ، يدلّ على أننا راجعون القهقرى الى البهيميّة ، فالرغبة الطبيعية في النسل إلى التلاشي ، والجيل المولود ملقى حبله على غاربه ، والشّعور بكون تعمير الأسرة والبيت لازماً لبقاء المدنية والحكم المستقل يكاد ينتفي من النفوس ، وبخلاف ذلك ، أصبح الناس ينشأ فيهم الاغفال عن مآل المدنية والحكومة ، وعدم النصح لهما) ، ثم اقترحت الجريدة الآنفة الذكر حلّاً للمشكلة ، والحلّ الذي تقترحه : هو النكاح الاختباري : أن يعاشر الرجل المرأة ، على سبيل التجربة حيناً من الزمان ، بدون إجراء عقدٍ بينهما ، فان هما استقاما على الألفة بينهما تزوّجا ، والا افترقا ، وبحث كل واحد منهما عن زواج آخر . وهو حلّ عجيب ليس أقلّ ضرراً ولا خطراً من أصل المشكلة . أنظر ص (١٣٧) من المصدر المتقدّم .

وفي انكلترا . يقول المؤرخ الانجليزي (جورج رائيلي اسكات) في كتابه (تاريخ الفحشاء) : (ولا تزال تكثر النساء اللاتي يزاولن العلاقات الجنسية قبل الزواج من غير ما تحرّج ، وفي حكم النادر والشاذ وجود الابكار ، اللاتي يكنّ في الحقيقة والواقع ابكاراً ، عندما يعقدن النكاح - عقد الوفاء الأبدي - أمام منبر الكنيسة) : أنظر ص (١٤١) من المصدر المتقدّم .

ويقول في كتابه الآنف الذكر : (فالآن أصبحت الفتيات لا يخطر

بباهن الزواج ، أو الحياة العفيفة الكريمة ، حتى صار اللّهو والمجون الذي كان يطلبه في الزمان الغابر اوغاد الناس تطلبه كل فتـــاة اليوم ، وأمست البكارة والفتوة شيئاً من آثار الماضي ، يؤود حفظها فتاة العصر الجديد ، فليست متعة الحياة عندها إلا أن يعبّ المرء كأس اللذات الى صبابتها في الشباب ، فهي تسعى وراء تلك باللذات ، وتبحث عنها في المراقص والأندية الليلية والفنادق والمقاهي .) . . الى آخر ما يسجّله هذا المؤرخ في هذا الكتاب . أنظر ص (١٤٣) من المصدر ذاته .

هذه بعض الشهادات عن حال المرأة الأوربية والأمريكيـــة في هذه الأقطار الثلاثة ، بأقلام كتّاب وعلماء من أبنائها ، يقولون الحقيقة لا يواربون ولا يخادعون ، والأقطار الأوربية الأخرى لا تقصر عن هـــذه الأقطار الثلاثة في شيء من ذلك ان لم تزد عليها .

ولدي العزيز : وبعد هذا التقديم وهذا العرض الموجز ، لنرجع الى حديث زميلك الذي عقدت له السؤال ، لنقف منه – اولاً – على نقطتين .

لنقف على قوله : ان المرأة الأوربية تخرج ، وتندمج ، وتخالط ، وتخطّط في ذهنها صورة لفارس أحلامها وتبحث عنه ، .... الى نهاية ما يقول .

لنقف هنا ، ولنتساءل جادّين : كيف تخطّط الصّورة ، ومتى ؟ ، وهل لأحلامها فارس محدّد لتخطط له صورة معيّنة ، وهي تندفع هذه الاندفاعة العارمة المتمردة على الحدود ؟! ، ومتى يكون هذا التخطيط ؟ ، والانطلاقة تفاجئها قبل أوان نضوج الغريزة ، وهي صبية في الحادية عشرة

— كما يقول القاضي (بن لندسي) — ، أو في السابعة والثامنة — كما يقول الدكتور (أديث هوكر) في كتابه (القوانين الجنسية) — انظر ص (١٢٤) من المصدر نفسه .

انها فكرة شاب شرقي بعيد عن واقع الفتاة الأوربية ، وعن ملابساتها ومحيط حياتها ، فهو يظن خيراً ويسلسل أفكاره على ما يظن ، وما اكثر ما تتخلف الظنون ! .

لا ، لا — ايها العزيز — ، ان الأمر أسرع من ذلك ، وأكثر وضوحاً ولينظر صديقك أحد المصادر الأجنبية التي تتعرض لهذه الناحية كي يتضح له ذلك .

نعم ، قد تريد الفتاة الأوربية الاقتران برجل معيّن ، ولكن بعد تجوال طويل ، وتطواف مع الغريزة ، حتى ينالها السأم وتخلد الى السكون — كما يقول بعض شهادات الكتّاب الغربيين — . وهو اقتران لا يضمن به وفاء ، ولا تصح به مقارنة .

ثم لنقف على قوله : « ولا يهمّنا ما يحدث بعد ذلك من الملابسات » ولننظر : كيف يصحّ ذلك ونحن في موضع مقارنة بين مبدأين ، أو بين نظامين ؟! .

بلى ، قد يصح إغفال بعض الملابسات التي تحدث واسقاطها من الحساب ، إذا كانت نادرة قليلة الوقوع ، لأن النادر لا يقاس عليه ، ولا يخدش بقياس ، اذ لعل وقوع تلك الملابسات القليلة كان مجرد اتفاق ، أمّا اذا كانت هي الكثرة الكاثرة ، أو الظاهرة العامة ، فلا يمكن اغفالها أبداً ، ولا

يمكن الخلوص الى النتيجة الصحيحة مع التغاضي عنها ، وفي المنقولات السالفة ما يوضح الامر .

هذه نظرة الغرب في المرأة ، وعلاقتها بالرجل ، وهذه بعض تبعاتها .

وأما نظرة الاسلام في ذلك ، فتكفي لتحديدها والدلالة عليها هذه النصوص الكريمة : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيباً) . (١ : النساء) ، (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودّة ورحمة ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) . (٢١ : الروم)، (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) . (١٨٧ : البقرة) .

هذه هي المرأة في نظر الاسلام ، انسانة كاملة كالإنسان الذكر ، ولا فرق بينهما في ذلك ، (خلق منها زوجها) ، (خلق لكم من أنفسكم أزواجاً) ، والموانز الموجودة بينهما إنما هي توجيهات طبيعية في تكوين كلّ واحد منهما ، تعدّه لحمل نوع من الأعباء .

ثم هذه علاقة المرأة بالرّجل ، وعلاقة الرجل بالمرأة في الإسلام ، : سكن روحي وطبيعي يلجأ اليه كلّ من الزّوجين ، وعقد مودّة ورحمة ، يعقده الله الودود للرحيم بين قلبيهما ، أما النّزوع الجنسي فهو أحد الجهات التي تتكون منها هذة العلاقة ، وهو آخرها جميعاً في حساب الدين .

وحتى هذا النزوع الجنسي بين الزوجين ، لاتكون له صبغته الحيوالية الخالصة في رأي الاسلام وفي ظلّ نظرته ، واقرأ - اذا شئت - معي

قوله تعالى : (احلّ لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم ، هن لباس لكم ، وأنتم لباس لهن) ، هكذا يعبّر القرآن وهو يتحدّث عن الصلة الجنسية ،: (هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهن) ، كلّ منكما لباس لصاحبه يصونه عن التبذّل ، ويقيه عن لفح الغريزة وعادية الجنس ، ويتزّين بلبسه في الحياة .

ولدي الحبيب : والاسلام لا ينكر دفعة الغريزة ، ولا سيما في أوان المراهقة ، ولا يتنكّر لها ، فهي أمر طبيعي لا يمكن جحوده ولا التنكّر له ، ومن أجل ذلك حثّ الاسلام على التّزويج ، وأكّد في الدعوة اليه ، بل وأوجب التّزويج على الانسان اذا كان موسراً ، وخشي من نفسه أن يقع في المحرم اذا ترك التّزويج .

بني : وحثُّ الاسلام على التّزويج وتأكيده في الدّعوة اليه لا يختص بالذكور ، كما يقول زميلك في سؤاله ، أو – على الأصح – كما تقول أنت في تركيز سؤال ذلك الزميل .

لا يختصّ بالذكور ، فاكثر النّصوص الواردة في ذلك ، عامة أو مطلقة تشمل الرجال والنساء .

فقول الرّسول (ص) – مثلاً – : (النكاح سنّتي ، فمن رغب عن سنّتي فليس مني) ، عامّ لا يختصّ بالرجال وحدهم ، وكذلك قوله (ص) : (من تزوّج أحرز نصف دينه ، فليتّق الله في النّصف الآخر) ، الى أكثر النصوص التي تتحدّث عنها .

ان الاسلام لا ينكر دفعة الغريزة ولا يتنكّر لها ، ولكنه ينكر على

الذكر أو الأنثى أن تندفع معها ، وانّه ليعلم - حق العلم - أن (الجوعة الجنسية) لا تشبه (جوعة المعدة) ، فهي انما تستثار بالقصد ، وبالتفكير ، وبالتعرّض للمحرّضات والمغريات والمثيرات ، أمّا إذا لم يتعرّض الانسان لشيء من أولئك فهو بمأمن منها ومن عواديها ، وهذا واضح كل الوضوح .

ولكن فكر المراهقة نزق طائش ، لا يعي رشده ولا يحسن الاختيار ، وهو من أجل ذلك مفتقر الى مرشد حاذق أمين ، يبصّره السبيل ويقيه العثار ، والفتيات كالفتيان في كل اولئك .

ويضمّ الى فكر المراهقة الذي لا يحسن أن يختار وهو يمرّ بهذه المرحلة الدقيقة : أن الفتاة في الاسلام محجّبة لا تختلط بالرجال ، ولا تعرف أخلاقهم ولا أطوارهم .

وتضمّ الى ذلك :ظاهرة الحياء التي فطر عليها الانسان ، وكانت أحد مشاعره الفطرية الاصيلة ، العميقة الآثار والجذور . ظاهرة الحياء التي أودعتها الفطرة في طباع الانسان ، الذكر منه والانثى،وان كان حظ الانثى منه اكثر وأوفر :

وليست هذه الصفة وليدة تربية مخصوصة ، كما يفهم من عبارة السؤال ، ولكن التربية توجّه ذلك الشعور الفطري ، فتقوّيه أو تضعفه وتضاعفه أو تميته ، حسب توجيهها ، وحسب اقتضاء مناهجها ، ومناهج الاسلام التربوية تلتزم هذا الشعور - وكل شعور طبيعيّ آخر - فتوفّيه حقّه معتدلاً ، دون زيادة او نقصان .

والزيادة والنقصان عن الحد الصحيح في هذه الصفة ، وفي كل ناحية فطرية أخرى انحراف لابدّ من تقويمه ، وارجاعه الى الاعتدال ، والمضاعفات

التي تحصل في سلوك الانسان انما تنشأ من انحراف التّربية عن النهج القويم .

هذه أهمّ العوامل التي تجتمع للفتاة المحافظـة أبّان مراهقتها ، فاذا أضيف إلى ذلك قصور في تربيتها العامة ، وجهل بوجوه الاختيار ، فكيف يمكن أن يجعل زمام أمرها بيدها ؟ ، وهل ذلك الاّ إهدار لحقها الصحيح وتضييع لسعادتها المرجوّة ؟ ، وحقها الصحيح ليس هو إشبـاع رغبتها الجنسية ، وإنما هو تزويجها الزواج السعيد .

وأجدى السبل في هذا الموقف أنْ يوكل الأمر الى وليّها .

الى أقرب الناس إليها ، وأشدّهم محافظة على مصيرها .

الى أبيها الذي كدح لتنشئتها ، وجهد لإسعادها .

ان يوكل الأمر الى وليّها الرؤوف بها ، الحريص على هنائهـا ، وتفرض عليه شروط لهذه الولاية ، وتوضع له حدود لهـذا التصرّف ، ويحرّم عليه الإمتناع إذا طلب يدها الكفء من الرجال ، ثم تستأمر هي في النتيجة ، اذا كانت كاملة رشيدة ، فلا يبتّ في الأمر دون رضاها ، نعم ، وهذا هو السبيل الذي خطّه لها الاسلام .

أمّا المضاعفات التي قد تحصل لبعض الفتيات ، فيحرمن من الزواج حتى يعنسن وييأسن من كل أمل لهن في الحياة ، أمّا هـذه المضاعفات فسببها – في الأكثر – انحراف النـاس ، والآباء منهم بالخصوص ، عن تعاليم الاسلام ، وعن تربيته السوية ، فيميلون عنها نحو الإفراط أو التفريط ، ونتائج هذا الانحراف لا تصح نسبتها إلى الاسلام .

ولدي : لقد اكتفيت بالاشارة في جواب بعض النقاط التي تعرّض

لها السؤال ، وأرجو ان تكون الإشارة مفهمة ، ولو أني تعرّضت لجواب كل نقطة منها على وجه التفصيل ، لا حتجت الى ضعف هذه الرسالة ، فاليك معذرتي مع وافر تحياتي ، واسلم .

ان الاسلام ليستنصر . القلة التي تشعر بالمسؤولية وتقوم بالواجب . رجال التثقيف ورواسب النفوس . سيروا الى غايتكم . نصير الدين الطوسي في ركاب (هولاكو). مسخ الحقائق . شواهد تنطق . اعمال مشكورة . عين حارسة لحفظ الاسلام . مصادر . الثقافة الاسلامية والثقافة الرومانية والهيلينية . مصادر .

٣٥

البصرة – كلية الآداب : ٢٨ رجب سنة ١٣٨٧ :

ولدي المهذب النجيب .... دام في سرور .

تحية دائمة ، وسلاماً زكياً ، وثناء طيباً ، وأسأله سبحانه أن يبارك فيك ، ويلقّيك عقبى جهودك ثماراً يانعة ومساعي ناصعة ، وأن يحقق أمل الاسلام بك وبأمثالك من شبابه المؤمنين بدعوته ، الواعين لأهدافه الملبّين لصرخته .

أجل – ايها العزيز – إن الاسلام ليستصرخ ، ويستنصر ، وموقفه وهو في بلاده وبين أبنائه موقف الغريب الشريد ، الذي كثر واتره ، وعزّ ناصره ! .

إن الاسلام ليستصرخ ويستنصر ، فلا ريث ولا إبطاء ، وكلّ برهة يتأخرّ عنه حماته يتعرّض فيها لنكبة جديدة ، ولهدمٍ جديد ، والمسلمون لايشعرون ، والكثير منهم أحبّ الاحوال اليهم أنهم لا يشعرون !.

عزيزي : بين يدي رسالتك العارية عن التأريخ ، وقد وصلتني قبل أيام ، وسرّني جدّاً أن أجدك من القلّة التي شعرت بالمسؤولية لدينها ، وعرفت الواجب الملقى على عواتقها ، وتصدّت لدفع العاديات عن الاسلام قدر استطاعتها ، سرّني أن أجدك من هذه القلّة من شباب المسلمين ، الشاعرة بواجبها ، بين الكثرة الغافلة أو المستغفلة عما يراد بها .

سرّني أن تتصدّى قــدر وسعك لتذود الشبهات والافتراءات عن قدس الاسلام ، وعن حرمات علمائه ، أن تتصدى لذلك حتى بين جدران الجامعه ، وفي أثناء محاضراتها ، وعلى ألسنة محاضريها ، والأساتذة - ايها العزيز - رجال كالرجال ، يغفلون ويستغفلون .

وقد ينحرفون دون غفلة أو استغفال ، وخصوصاً في الآراء والنقول التي تعود الى المذهب ! ، ورجال العلم والتثقيف أجدر الناس كلّهم بالبعد عن هذه الرواسب ، ولكن بعض النفوس عصيّة على التهذب .

وما ضرّ القلّةالعاملة أن يكون المنحرف من أي صنف ومن أيّ وزن ؟ ، بعد أن كان منحرفاً عن الجادّة القويمة ، وبعد أن كانت تلك القلّة تعمل لله ، وتكدح في سبيله ، وتدافع عن حرماته ؟ .

سيروا الى غايتكم أيّها الميامين ، وأعدّوا لها ما استطعتم من قوّة العلم وقوة الايمان ، والله معكم في السبيل ، وهو دليلكم الى الغاية ، ومثبّت

أقدامكم في النصرة ، ومضاعف أجركم في العقبى .

ولدي : ذكرت أن أحد الأساتذة في كلية التربية كان يحاضر في موضوع تأريخ الشرق الأدنى ، فقال في محاضرته : (لما هجم (هولاكو) على بغداد عام (٦٥٦) هـ كان من جملة المساعدين له والعاملين معه من أجل الإطاحة بالحكم القائم آنذاك ، رجل من أفذاذ الشيعة ، وهو شيخ الطّائفة نصير الدين الطوسي) ، وقد آلمتك هذه الصورة المشوّهة للحقيقة ، والتعليل الماسخ للحوادث ! .

رجل من أفذاذ علماء الاسلام يعمل مع سلطان كافر للإطاحة بحكومة مسلمة ، ويتعاون مع جيش كافر على إراقة دماء مسلمة ، وتوطيد الأمر لحكومةٍ كافرة !! . أمور لا تتمشى مع بدهيّات العقول وأوّليات الفكر !.

ودافعت ما وسعك الدفاع ، وجادلت ما أمكنك الجدل ، ثم طلبت من الأستاذ أن تكتب تقريراً خاصاً حول الموضوع ، وقد وافقك على الطلب .

ولدي وعزيزي : وليس من العجيب أن تمسخ الحقائق وتشوّه نضارتها .

فهذا هو فعل التأريخ في أخبار أيّ طائفة أو فئة تعارض السياسة القائمة آنذاك ، وهذا هو دأب المؤرخين في حوادث أيّ فكرة أو شخصية تخالف مذهب المؤرخ ، والشواهد على ذلك كثيرة وفيرة ، وتأريخ الشيعة ، وتأريخ ائمتهم وعلمائهم من أنصع الشواهد عليه .

وكتاب (تأريخ الشعوب الاسلامية) تأليف المستشرق الألماني (كارل بروكلمان) المتوفى عام ١٩٥٦ م ، مليء بالأدوار التي تلعبها العقيدة في تلوين

الحقائق وفي تعليلها .

ليس من العجيب أن تمسخ الحقائق وتشوّه نضارتها ، ولكن موضع العجب أن ينظر ناقد مفكّر ، يوقن هو ، ويوقن الناس له بحصافة الرأي ونفوذ البصيرة ، أن ينظر هذا الناقد فيخفى عليه مسخ الحقائق ، وأعجب من ذلك أن يرى - ويصرّ على صحة رأيه - : ان تلك الحقائق المشوّهة الممسوخة تتمشى مع طبيعة الأشياء وطبيعة المواقف .

ومن يطّلع على أعمال المغول في زحفهم الاول أيام (جنكيزخان) ، وتدميرهم الحواضر الإسلامية ، وإبادتهم العدد الكبير من المسلمين وعلمائهم ، ووحشيّتهم التي أظهروها في زحفهم على مدينة نيسابور ، الآهلة بالعلماء ، العامرة بالمدارس والمساجد ، وفرار نصير الدين نفسه فيْ من فرّ من وجه الوحش الكاسر ، ونجاته العجيبة في من نجا من الظلم الكافر .

قلت : ومن يطّلع على هـــذه السلسلة من الحوادث ، وعلى فرار نصير الدين الطوسي ، ونجاته من الموت المحقّق ، يعلم علم اليقين أنّ نصير الدين لم يكن مختاراً ابداً في صحبته (لهولاكو) في زحف المغول الثاني ، وهجومه على بغداد ، وإطاحته بالحكم العباسي القائم .

ومن يعرف العدد الكبير الذي جمعه هذا الفيلسوف الاسلامي العظيم في مكتبة مراغة ، من الكتب التي نهبها الجنـــد المغولي ، من بغداد والشام والجزيرة ، ويعرف العدد الذي جمعــه حوله من علماء المسلمين وفلاسفتهم في مراغـــة ، وفي رصدها التأريخي المشهور ، وأذاقهم حلاوة الأمن بعد ذلك الخوف الشديد والنكال المبيد ، ويسّر لهم الحياة الهانئـــة

والمعيشة الرضيّة :

من يعرف هذه السلسلة من الجهود ، والأعمال العظيمة المشكورة ، يعلم – علم اليقين كذلك – أن نصير الدين كان عيناً حارسة ، تعمل في جيش (هولاكو) لحياطة الاسلام ، وحفظ معنويّاته وجمع منتشراته ، عيناً حارسة ساهرة ، تعمل ما أمكن العمل ، وتحوط ما وسعت الحياطة ، وتحفظ ما استطاعت الحفظ ، وتجمع ما قدرت على الجمع .

وفي العدد الثامن والتسعين من مجلة (العربي) بحث طريف حول الموضوع ، بقلم الاستاذ (السيد حسن الأمين) يمكنك الرجوع اليه ، والإفادة منه ، وعنوان البحث : (بطلان اسلاميّان) ، وانظر الجزء السادس والاربعين من كتاب (أعيان الشيعة) في ترجمة (محمد بن الحسن المعروف بنصير الدّين الطّوسي) ، من صحيفة (٤) الى ص (١٩) ، وانظر كتاب (فوات الوفيات) : الجزء الثاني ، ص (١٤٩ – ١٥٢) ، وانظر كتاب (البداية والنهاية) لابن كثير : الجزء الثالث عشر ، ص (٢٦٧ – ٢٧٨) وكتاب (السلوك) للمقريزي : الجزء الاول ، ص (٦١٤) .

وإذا أردت زيادة في الاطّلاع على المصادر فانظر كتاب (معجم المؤلفين) تأليف الاستاذ (رضا كحالة) : الجزء الحادي عشر ، ص (٢٠٧) :

ومن الله استمدّ لك التوفيق في سعيك ، والنفوذ في بصيرتك ، والثبات في ايمانك :

عزيزي : وذكرت أن لديك موضوعاً آخر تحاول أن تكتب فيه تقريراً كذلك ، وعنوان بحثك : (الثقافة الرّومانية والهيلينية ليستا أساساً

للثقافة الاسلامية) ، وأنت تستوضح مني خطوط البحث ، وتسترشد الى بعض المصادر .

ووفرة أعمالي – أيها العزيز – تمنعني أن أفيض في الحديث عن ذلك ، وحسبي أن أشير اشارة ، أعتمد فيها على فطنتك وذكائك .

والثقافة الاسلامية التي تبحث عنها ، قد تعني بها : فلسفة الاسلام وعلومه الخاصة ، النابعة من كتابه الكريم ، ومن سنّته المطّهرة وأقوال المعصومين من خلفاء الرسول (ص) ، قد تعني بها : فلسفة الاسلام وعلومه ، ومفاهيمه التي يفسّر بها الكون والطبيعة والحياة والإنسان ، وطرائقه التي يعلّل بها كلّ أولئك ، وقوانينه وشرائعه التي ينظّم بها الحياة ، ويوجّه بها الانسان في مختلف الحقول ، وشتى الميادين والمجالات ، وأصوله التي تبتني عليها تلك القوانين والشرائع .

قد تعني بالثقافة الاسلامية هذه المجموعة التي تتألف منها معارف الاسلام ، والتي تغني المسلمين – لو أنهم انفردوا اليها – عن أي ثقافة ، وتؤسّس لهم وللناس اجمعين معهم أسمى حضارة ، وواضح – كل الوضوح – أن ثقافة الاسلام هذه انما تستمدّ من وحي الله ، ومن ينابيع الاسلام الخاصّة به .

من كتاب الله العظيم ، ومن أقوال الرسول (ص) ، واقوال أوصيائه المطّهرين ، ولا صلة لها بأي ثقافة أخرى ، رومانية ، أو هيلينية ، أو غيرهما من الثقافات التي عرفها العالم ومرّ بها .

وقد تعني بالثقافة الاسلامية التي تبحث عنها : مجموع ما عرفه

المسلمون من دينهم ، وما اقتبسوه من علوم غيرهم وفنونهم ، لمّا احتكّوا بشتّى الثقافات ، وامتزجوا بشتّى المجتمعات ، وعرّبت لهم كتب الفلسفة ، وكتب المنطق ، والعلوم الإغريقية (الهيلينية) .

قد تعني بالثقافة الاسلاميـــة التي تبحث عنها : هذه المجموعة التي حصلت للمسلمين بعـــد أن امتزجوا بسواهم ، وأثروا وتأثّروا بالثقافات المنقولة ، والفلسفات والآراء المعرّبة ، وبدهي – أشدّ البداهة – ان الثقافة الهيلينية وبعض الرومانية لها تأثير لا ينكر فيها .

امّا المصادر ، فيمكنك الرجوع الى كتاب : (الفكر الاسلامي : منابعه وآثاره) للدكتور (أحمد شلبي) ، وكتاب : (خصائص التصور الاسلامي) ، للأستاذ (سيد قطب) ، وكتاب : (عبقرية العرب في العلم والفلسفة) للدكتور (عمر فروخ) ، والى شتى الكتب التي تتحدث عن الفكر الاسلامي .

ويمكنك الإفادة من كتب دوائر المعارف ، البريطانية ، والامريكية ، والفرنسية ، وغيرها ، وكتاب (قصة الحضارة) .

وختاماً ازجي لك تحياتي وتقديري ، واسلم .

هذه سلسلة من الرسائل تحتوي صورة من التحليل النفسي على ضوء تعاليم الاسلام ، والمشكلة التي تعني الرسائل بدرسها وعلاجها مشكلة شـاب مؤمن نقي السريرة ، أصابت أسرته بعض نكبات الدهر ، وكان أثر هذه النكبة عميقاً فى حياة هذا الشاب المؤمن ،وفي تلوين سلوكه ،ثم في تلوين أفكاره . وقد رأينا ذكر رسائله هنا مع أجوبتها تحديداً للمشكلة ، وإيضاحاً لطريقة علاجها .

شكوى

٣٦

البصرة . ١٠ / ٢/١٩٦٥

سماحة ...

سلام عليكم طبتم .

سيدي ابا ضياء : وهل لي عزيز غيرك ، وهـل لي أب سواك ، ستكتب الأيام لي ذلك ، وتشهد الليالي ، وأنا الصبيّ الذي انكفأت عليه فحننت عليه ، والشاب الذي تمرّست في الاهتمام به طويلاً ، فعشت واياكم ردحـاً من الزمن غير يسير ، وهل وجدتُ الاّ حنان الأب وشفقة العلم ، وهل وجدتني الا ذلك الولد العاصي ، الذي يتهرب من لقاء أبيه ، وهل لي عذر . أم هل هذا موطن العذر هنا ؟ ! ....

استاذي ومرشدي : يرجع المريض الى الطبيب المختصّ ، ويرجـع التلميذ الى معلمه ، وانا الى من ارجع اليوم ، حيث تنهال علي الأفكار والهواجس و . و . ، تغمر فكري وتشغل لبّي ، وتملأ حياتي ، ولاتفارقني ، ولو كنت قبالي لما تباطأت في شرح معالم هذه الأفكار التي ابثّها اليكم ، واشكوها نحوكم .

ومالي . ونزعات نفسي تريدني أن اضـلّ وأغوى ، أو أردّ إلى

الجاهلية أعمى ؟ ! .

ومالي ، وكلمّا أشبعت روحي بالايمان . باليقين ، مست علي وأوحشتني من المؤمنين الذين أحبّهم ؟ ! .

ومالي بعد هذا كله الا اتّباع نفسي ورغائبها ، أو اتّباع حديث روحي وسبحاتها .

ولكم لطمت وجهي كثيراً ؟ ولكم بكيت من خشية سوء المصير كثيراً أيضاً ؟ ولكم انا اليوم ثائر على أفكار نفسي كثيراً جداً ؟ وعلى أيّ حال فاني اليوم في مصيبة لا يكفيها كتاب فضلاً عن رسالة .

وعلمي بانكم ابي الروحي ، واستاذي الحريص على تأسيس شخصيتي تأسيساً اسلاميا ، لهذا لاذ قلبي اليكم ليخبركم بحال ولدكم . رهين لسوأ الأمراض وأرذل الأفكار ، وسجين آراء أخشى على ايماني منها من الانفلات .

وهل أول حديث أنقله أو أذكره لشخص سواكم ؟ فهل لهذا المريض من دواء ؟ وهل لهذه للعوادي من شفاء ؟.

وعلى اي حال سيدي ، فاني اليوم ، وكل يوم مضى علي ، اشكو الى الله واليكم نفسي التي بين جنبيّ ، فواهاً لها لما سوّلت لها ظنونها ومناها ، وتباً لها لجرأتها على سيدها ومولاها ، كما دعوت صباح هذا اليوم ، وكما قرأت الليلة عندما فتحت القرآن الكريم (. . . الاّ من أتى الله بقلب سليم ، وازلفت الجنة للمتقّين ، وبرّزت الجحيم للغاوين فكُبكبوا فيها هم والغاوون . . . . . وما اضلّنا الا المجرمون . فما انا من شافعين ، ولا صديق حميم . . . .) . (٨٩ - ١٠١ : الشعراء) .

وقد تعجب ، بل وقد تسخر حين ماأقول : إني لاأدري عن مصير كل هذه الهواجس ، ومبتدأ الظنون والأفكار التي شحنت فكري ! ! .

هل حدثت من دراستي لكتب نفسية ، تبحث في صراحة بالغة عن ذلك ؟ ، أم من عدم حسن تصرّفي وتبريري ؟ ، وقد يكون كلاهما ، وقد يكون أمر واحد بينهما ، أو شيء آخر يعرو الشاب في مثل سني . الاّ أنني استعجل الدواء كيلا يتفشّى الداء ، فلا زلت أراني : لي من الإرادة التي تستطيع أن تقسر وتبعد كل هذه الأفكار ، وتبدّدها : بعد جهد ليس بالقليل ، ولا بالوقت القليل .

وعلى اي صورة ، سأتركك – ياسيدي – على هذا الشاطىء الذي تلاطمت امواج كناياته وأوصافه ، وتبعثرت بين هنا وهناك زبى الحديث، فلا تخلني بذلك وان رأيت زبداً كثيراً فيه او قليلاً فانه سيذهب ، لان الزبد يذهب جفاءً بلا ريب ، ولي واياكم لقاء على محيط جوابكم ، أرجو ان أنال غاية رضاك وحبك وعطفك .

واتركـكم سيدي للقاء ، ولقائي معكم حبيب ، والسلام عليكم .

ولدكم

في ظل الايمان . ايمان أبعد من التهم . ان الله مع الذين اتقوا . الأفكار الشاذة تغزو فكر كل احد ولا حذر منها على الايمان . علاجها . مناهج ونصائح .

٣٧

النجف . ١٥ شوال سنة ١٣٨٤ .

ولدي ... رعاك الله وأخذ بيدك وكفاك الاسواء والأدواء .

تحية كريمة ، وشوقاً متجدداً ، ولهفة متزايدة ، وابتهالا الى الحقّ – سبحانه – أن يأخذ بعضدك ، ويشـد أزرك ، ويعصمك من المزالق والطوارق ، إنّه ارحم الراحمين .

عزيزي : وأظنّ ان الصلة القائمة بيني وبينك – تحت ظل الايمان – تخوّلني أن أناديك هذا النداء ، وانت تعلم صدقي فيه ، كما عرفت صدقك فيه حين حدثتني عنه في طرف من رسالتك :

التقيت بك أول مرّة في الحرم العلوي المطهر ، وكان الايمان هو الذي عرّف بين روحينا ، ثم كان الحب في ظلال هذا الايمان هو الذي ألف بين قلبينا ، نعم ، وشعرت على مرور الأيام - كلّما اجتمعت بك - : انني إنّما اتحدث الى ولدي ، وشعرت انك توقن انما تحدث أباً ، وانمـا

تصغي الى نصائح أب ، وأحسست ان يداً قوية طاهرة تدفعني اليك ، وتضمك اليّ ، حتى تلحفك عاطفتي ، وتبوئك أسمى المنازل من نفسي .
وسوّغ لي هذا التجاوب الايماني ما بين نفسينا ان اعبّر لك في بعض المواقف عن مشاعري تعبيراً ابويّاً ، يمتزج فيه الحب والتقدير :

والصلة حين تنشأ على الايمان بالله ، والتزام تقواه ، والسعي لرضاه ، لم تزدد على الأيام الا قوة ، ولم تنطف إلا براً وإلاّ طهراً .

وصلتني رسالتك ، ولا ادري كم تلوتها ، وكم صرفت في ذلك من الوقت ، ولكنني اعلم انها كانت من احب الساعات الي ، فقد كنت أصغي فيها الى احاديث ولدٍ حبيب .

قرأت رسالتك ... قرأت حروفها ، واصغيت الى الهمسات الرقيقة بين كلماتها ، وبين حروفها ، وفي جملها ومقاطعها ، وسمعت شكواك المبرّحة فيها ، وآلامك العاصفة التي حملتها إيّاها !! .

نعم ، وأصغيت الى قلب صغير ، في عمر الزهرة الناضرة ، يضطرب ويتلوّى ، وهو يوقع ألحان الشكوى لأبيه ، والى قلب حانٍ عاطف ، يخفق ويئنّ وهو يستمع هذه اللحون ، ويبصر هذا الشجى من ولده .

قرأت شكواك المبرّحة الشديدة ، من أفكار وهواجس تنازعتك في الآونة الأخيرة ، حتى خشيتها على ايمانك ، واعيذك بالله ، واعيذ ايمانك وقلبك ونفسك باسمه العظيم ، ودينه القويم ، من شر الوساوس والهواجس .

واعيذك من ان تتهّم نفسك الطاهرة المؤمنة بان تضلّ ، او تتهّم ايمانك القوي الواعي بان يضعف ويهن ، ومن لي بأن يكون ولدي الى

جنبي ، فأشعره بان ّ ايمانه اعظم ، ولقوى ، وأرسخ من أن يتزلزل ، او ينهار للهواجس التي يشكوها ، وان كانت حادّة عارمة .

لا . لا ، إن ايمانك ابعد من هذه التهمة ، وإن نفسك أرفع من هذه الضعة ، وان ارادتك أقوى من هذا الوهن .

لا . لا ، ان الله الذي اسلمت اليه وجهك ، وعمرت بحبه قلبك ، وأخلصت له دينك ، لن يسلمك ابداً لهاجسة ، ولن يكلك الى شيطان ، ولن يبعدك وانت تريد القرب منه .

ثق ان الله معك ابداً في جهادك هذا لنفسك ولهواجسك ، يأخذ بيدك ، ويشدّ على عضدك ، ومن كان الله نصيره فهو قوي عزيز .

إن هذه الافكار ـ وان طغت ـ لن تستطيع ان تفردك من ربك ، ولن تقوى ان تقطع مدده لك ، او تقلل من عونه اياك (ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) . (١٢٨ : النحل) .

والهواجس والأفكار الشاذة الملتوية لابدّ من غزوها فكر كل أحد ، وخصوصاً اذا كان شاباً في مثل سنك ، وخصوصاً اذا كان كثير القراءة لمختلف الآراء مثلك ، وخصوصاً اذا كان شديد الحرص على إبعاد هذه الأفكار عنه كما أتوسمه فيك :

انها حالة ليست غريبة ، ولا تدعو الى القلق ، واقرأ معي قوله تعالى في سورة الاعراف : (ان الذين اتقوا اذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا ، فاذا هم مبصرون . واخوانهم يمدّونهم في الغي ثم لا يقصرون) (٢٠١ ـ ٢٠٢ : الاعراف) .

أرأيت ؟ ، إن الطائف من الشيطان يمّس حتى الذين اتّقوا اذن فهو حالة ليست غريبة ، ولا غير طبيعيّة ، ولا يخشى منها على ايمان المؤمن ، اذا كان ثابت الأسس ، قوى الّدعائم .

وعلاجها لا يكون بمحاولة كبحها ، وصرفها عن الفكر ، أو صرف الفكر عنها ، لأنها تحاول التغلب على الفكر في كل فترة ، مهما حاول التهرب منها ، وطلب أخمادها ، ومهما اشتدّ تقزّزه منها ، فتوجب للانسان — بسبب ذلك — قلقاً يقض عليه مضجعه ، وينغّص عليه حياته ، وهذه هي الحال التي تشكوها — في ما أظنّ — :

ان علاجها لا يكون بهذه الطريقة السلبية ، لأنها تقسّم النفس ، وتضارب بين شطريها ، وتلقي العداء بين طرفيها ، وتؤدي الى نتائج غير محمودة ، وحتى اذا استطاع كبتها ، وصرف الفكر عنها ، فانها ترتدّ عقداً لا شعورية تكدر عليه عيشه .

ولكن علاجها الحكيم المجدي : هو أن يستقبل المؤمن هذه الأفكار بصورة ايجابية يقظة واعية ، حتى يتعرف الفكر ، أو الهاجس ، ويستبطن علته ودوافعه ، ثم ينعطف عليه — بعد ذلك — فينقض أسّه بالمنطق العقلي المتين ، ويبيد بذوره وجذوره بالملاحظة الفكرية الصحيحة ، واقرأ معي الآية الكريمة — مرة ثانية — ، لتعرف دلالتها على ذلك : (ان الذين اتقوا اذا مّسهم طائف من الشيطان) ، والشيطان مولع بالمتقين ، يحاول صرفهم عن سبيل التقوى ، فاذا مّسهم طائف منه ثبتوا ، وتذكروا مازّودهم به الفكر الواعي المستقيم من الادلة المتينة ، والمناهج القويمة ، التي رسخ عليها ايمانهم ،

ونشأت عليها تقواهم (تذكروا فاذا هم مبصرون) ، واذا بظلمـة ذلك الطائف عادت ضياءً ، واذا بعمل الشيطان ومحاولاته قد صارت هباءً :

هذا هو العلاج الحازم الحاسم ، الذي تصفه الآية الكريمة لهذا النوع من الأدواء ، ووراء ذلك العصمة التي يفيدها المؤمن من ايمانه ، والنصرة والمدد اللذان يتواتران عليه من ربّه : (والذين جاهدوا فينـا لنهدينّهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) . (٦٩ : العنكبوت) .

ولدي الزكي وتلميذي النجيب : أثبت لهذه الخواطر وهذه الافكار ، ولا تحذرها ، واستقبلها بوجهك المؤمن المشرق ، وبروحك المطمئنة الهادئة ، واستعرضها واحدة واحدة ، وفتش عن جذورها وعللها ، وناقشها مناقشة حرّة بمنطقك القوي ، ومناهجك الرشيدة ، ويمكنك أن تستعين في ذلك بمن تعتمد عليه . اصنع كذلك ، فان شعورك سيرفضها واحدة واحدة ، ولا يبقى إلا الإيمان الخالص ، وإلا أدلة الإيمان الصحيح الصريح ، وستعرف نصرة الله لك وسمعه شكواك ، وستعلم حقـاً انطباق الآية التي تلوتها في آخر رسالتك : (اما الزبد فيذهب جفاءً وأمّا ما ينفع الناس فيمكث) (١٧ : الرعد) .

ولدي : ان الله أشدّ رأفة بك من أبيك ، هـذا الذي يحدّثك ، ويودّ ان يشاركك وجدانك ، فتقعد به مسافات شاسعة تحول بين موضعك وموضعه ، وأشدّ رأفة بك من كل قريب ، فثق به ، والجأ اليه ، وأخلص له في ثقتك ولجوئك فستجده السميع المجيب .

ونصيحتي اليك – أولاً – : أن تترك القراءة والتلخيص اللذين

أخذت نفسك بها فترة وجيزة ، ريثما تطبق هذا المنهاج ، وتستوفي أدوار العلاج :

ونصيحتي – ثانياً – : ان تثق بنفسك ، وأن تثق بإيمانك ، فان عدم الثقة بالنفس يسبب لها الضعف ، ويسلمها الى القلق ، ويوصد عليها باب اليقين .

ونصيحتي – ثالثاً – : ان تكرر قراءة رسالتي هذه ، فتقرأها ولو مرة واحدة في كل يوم ، وستعرف أثر ذلك بعد حين .

ونصيحتي – أخيراً – : أن تكتم حديثك هذا ، حتى عن اقرب الناس اليك – ما وسعك الكتمان – . وأمنيتي لك طول البقاء ، ودوام الهناء ، وخلود النعمة ، ومزيد التوفيق .

أما بعد جميع ذلك ، فانا أنتظر ان تعرّفني عن كل ما يطرأ ، وأن تبوح لي بما تجد ، وان لا تبطىء عني في التعريف ، فان عاطفة الأبوة لا تحتمل الابطاء ، وأرجو ان تصل اليك رسالتي وانت متفتح الأمل ، وان يصلني جوابك وانت موفور السعادة .

وتقبل تحيات ابيك ، وبالغ شوقه ، ووافر سؤاله ، وجزيل دعائه :

نشأة الهواجس . صراع . أثر الرسالة . آمال .

٣٨

البصرة : ٩٦٥/٢/٢٧ :

سماحة . . .

تحية مشرقة بالنور والهدى ، وسـلام عابق بالأماني والاخلاص ، ودعاء حفيف كلما مسّ جسدي حرم الأطهار من آل الرسول (ص) : ان يضفي عليكم سعادة العاجلة والآجلة ، وان يديم اخلاصكم لهذا الاسلام ، فيشفى منه — شفاء العلل والأمراض ، وشفاء الضـلال والغواية — كثير من الناس .

وسلام بعد هذا لابي ضياء وأبي ، مرشدي في المحن ودليلي في الشجن ، ومنفس كربي في الضرّاء ، وحين الوحشة واليأس .

استاذنا الأمجد : علمتني نفسي ، وهي خير مدرسة في مسارب التجارب: أن الهواجس والأفكار والظنون تواكب النفس الانسانية مواكبة مضطردة ، تنمو معها وتكبر فيها وتزداد عتواً وشقاءً ، للنفس التي تلوذ نحو المغريات الطائشة والنزوات المبتذلة ، ولكن سرعان ما تذيل هيبة هـذه

النفس ، وسرعان ما يرخص ثمنها الغالي النفيس :

وتنمو الهواجس والأفكار – كأنه لابد من ذلك – تنمو وتكبر وتزداد عنفواناً وقوة كذلك في النفس التي تلوي على مراحم الحق والعدل والهدى الأزلي ، وحينما تلوي أيضاً على دين الله فتقعد متفهمة شامخة .

ومذعكفت – بجدّ – على هذا التدين .

ومذ قمت مقصراً ببعض الواجبات الدينية ، كأيّ فرد لا يرغب أن ينأى عن واجب دينه ، هامستني افكار ماكنت اصغي اليها أو أفهمها ، ولم اكن اتعرّف على قرارها ومستقرها ، ولم أدر أني سأقع فريسة لها ، الا من قريب ، حين نظرت الى نفسي واذا بي اراني متثاقلاً عن أداء بعض ما كنت قائماً به منذ قريب .

وكثيراً ، وصراحتي أقولها لمن حق علي ان أقول له صراحة نفسي : أجل وكثيراً ما عرقلتني ، وكثيراً ما أخرت اضطراد مسيري الايماني المتصل :

ولكنني على اي حال وبفعل الإرادة الاسلامية ،وبقوة الجماهيرية الايمانية ، كنت اندفع بوحي هذين لمجاراة سلك الهدى المتصل وسيله المتدفق العرم بين أرجاء هذا الوجود ، فقد هزتني قراءاتي ودراساتي للكتب الاسلامية المثيرة هزات عنيفة ، وقد لمت نفسي على وقوفي أو تفكيري به رويداً ، ولكنها ايضاً صيرتُها خامدة في حين وصيرتني خامداً في بعض الأحايين :

وبين هذا وذاك لا يعرف اي صديق لي هذا الاتجـاه المضطرب الأمواج .

هل انا ؟ : . أم هل تغيرت ؟! .

حتى اذا تدفق الايمان من حب زين الدين ارسلت كاهـل سفينتي على مرشدي اللبيب ليروي شاطئي وغديري الجاف بعنفوان رأفته وحبّه، وبدفقات اخلاصه ورشحات ارشاده ، ما يشير لهذا الحائر الخائر الى رحمة المسير ورحمة الهدى ورحمة الله العظمى .

أجل . لقد أوقعتم على اوتار نفسي ايقاعاً حساساً بنغمات صادحـة مكشوفة ، الا من الايمان ،وأمسكتم بحكمة واقتدار على نشازها وشتاتها !! . وبعد ذلك فقد لملمتم الشارد وايقظتم الحائر منها . فاصبحت مع ربيع الحياة وزهي النبات يانعاً غضاً . . من كـلّ جانب الا اللمم .

وبعد خلود نفسي ، وسكينتها ، تصفحت بارتعاش وخوف رسالتـكم الرشيدة . ارتعاش الحب الايماني الصادق . وخوف العتبى لما جرى علي وما مكث في فكري من هوس الافكار ونزع الآراء ، ولمـا يخامرني من زنافر الباطل ورداءة الغذا الفكري .

ولعجيب . . . وغير عجيب ايضاً أن أشاهـد متنمقاً تلك الطراوة الخفية فيها ، والتي كلما قرأتها لمست منها شيئاً جديداً ، لم اكن أحسّ به ولم استشعره من قبل .

وتذوقت بلهف حرارة الايمان وحلاوة الحب ، في كـلّ همسة وفي كل جانب من جوانبها الرشيقة المهيبة . . . حين علمت ان ذلك لا يدعو للقلق ، لأنها حالات ملازمة لهذا الكائن ، وعرفت مبرراته وانه يسري مع الانسان في أدوار حياته وشبابه ، وحتى حينما يتم عقله ويتركز فهمه ويكمل يقينه ، وتذهب عنه كل معوقات الايمان ومرديات الهوى وموجبات الغواية .

بعد ذلك ، ثم ابصرتني ذلك الشيطان العدو اللدود لهذه النفس حين يمس المتقين من الناس ويصب كـل همه عليهم ، فضلاً عن اخوانـه الذين يمدهم في الغي غياً وفي الضلال تمادياً .

ولم اتمالك على نفسي وأبي يصارحني بمثل هذه الصراحة ، وأنا أطوف مع رسالته الطائفة على فكري ونفسي وأجول معها ، حتى بكيت ، بكيت حيناً بعد أن أسـرتني ، وكم تبسمت وكم فرحت ، بل وضحكت أيضاً حتى خلت أن جلسائي سيهزؤون مني لهذا التصرف !! لولا لفتة من نظر عابرة اليهم بين كل حين وحين فأراهم في شأن غـير شأني فارجع الى حيث رشحاتها الرقيقة ورشفاتها الجميلة ودلالاتها الصائبة، وانهيت الخطاب الجسيم لكني ابتعدت جانباً قصد التدبر منها والنظر اليها ، واذا عيناي لم تبخلا بذرف الدموع خصوصاً لما قرأت نجواك الرشيف :

(ولدي الزكي وتلميذي النجيب : أثبت لهذه الخواطر وهذه الافكار ولا تحذرها واستقبلها بوجهك المؤمن المشرق وبروحك المطمئنة الهادئة ... وستعرف نصرة الله لك وسمعه شكواك) .

(ثق ان الله معك أبداً في جهادك هذا لنفسك ، يأخذ بيدك ويشد على عضدك) وبكيت خشية ايمانك هذا بولدك حين تقول له : (لا . لا ايها العزيز ان ايمانك ابعد من هذه للتهمة وان نفسك أرفع من هذه الضعة وإن ارادتك اقوى من هذا الوهن) .

وحين اودعت رسالتكم في جيبي ، وحين رددت أحاسيسها وهمساتها في شعوري صغر – بعد حين – ما كان يكبلني ، وضؤل بعد آخر ما كان يشقيني .

على اني الآن لا اقول اني وضعت صخرة صماء عليها جميعاً ولا أنها اقلّ بكثير مما مضى ، ولكن على رشاقة الآمال ، وحلاوة الايمان وصراحة الضمير وهدى النفس وبراءة الفطرة وسلامة الاخلاق وثقة النفس وغلبة الله للشيطان وتاثيره القوي منه على النفس، استطيع أن استنقذ روحي وأهيّىء تفكيري سليماً متجرداً – بعد حين – من الأمراض الباطنة والأفكار الممضة والتبعات الحادشة .

وبهذا وبذاك ، وبعد هذا فللتربية نصيب كبير في ذلك وتأثير فعال في صقل هذه النفس وتزكيتها وتطهيرها من أوضار الحياة وخنق المريبات وخدع الهواجس جميعاً ، بعد ذلك وبعد التربية على ايدي الاكفاء وبعاطفة التربية الشفيفة وباخلاص الإصلاح الرفيق ، وحفيف الحنان الرشيق يصاغ ولدكم على يد استاذه الأب ومربيه الأجل .... ولقد ربحت في تجارة نصائحكم الفريدة الثمينة ، وقد صرت اتلوها صباح كل يوم وارجع اليها عند الوهن وكلما خطر على فكري خطر .

وابتعدت عن المطالعة قليلاً . وإن عز علي ذلك .

ولي بعد ذلك من توطيد الثقة بالنفس والاعتماد على الله رصيد لازلت احنو نحوه وأمشي اليه .

ولقد كان خطابكم القيم وذكركم الثمين استقراراً لولدكم ، ولعلي احسد نفسي الآن بأني بحمده تعالى اوفق لمثل هـــذا الزين من هذا الدين في وقت عصيب ليرخي اعناداً قاسية ويصلب اعواداً راخية ناحلة خائرة . ولكن فقد يكون الحق كل الحق ان تشجعوا هـــذا الانسان اكثر وتدفعوه أشد

في السير في عزم واقدام في ظلال صلابة الحق وقوة الهدى وحسن البصيرة وبعدٍ - ايما بعد - عن مزالق الضلال ومفاتن الغواية ومرديات الهوى .....

اما انا فاني لأصيد توسلاتي الى الكبير المتعال الحق المبين أن يديم لي هذا الرواء الشفيف وهذا المنهل العذب وأن أبقى معه على صدق الاخلاص وضمان الايمان وولاء اليقين والحب بين نهارين من حياة اوليلين من خلود...

دمت سيدي في سعادة وارفة وصحة ناعمة ونعيم مزروع في كل واد .

خادمكم

سرني ان اصيب القصد . الايحاء بالضعف . مساوئه .
ثق بنفسك كل الثقة . الخطرات المنحرفة قد تكسب
المؤمن قوة في ايمانه . كبح الخواطر هو الذي نماها . خير
الايمان الباسم المتفائل .

٣٩

النجف . ٥ ذي القعدة سنة ١٣٨٤ .

ولدي العزيز المهذب الكامل ..... حرسه الله ووفقه ولقاه مايأمل وكفاه ما يحذر .

تحية زكية طيبة تسطع بنور الاسلام وعبق الايمان وأرج الهدى واخلاص الدعوة الى الله والاتباع لسبيله والتطلع الى مرضاته ، وشوقاً مكيناً . ودعاءً خالصاً أن يقيك الله العثار ويعصمك من الأخطار .

بني : وبعد ايام يعلم مبلغ طولها وأثرها الآباء المفارقون ، وصلتني رسالتك العزيزة تحمل الي انفاسك العطرة وتصور لي عاطفتك البارة .

أجل ، لقد شممت انفاسك تشيع على مقاطع الرسالة وتعبق في حروفها ، ولمست عاطفتك نحو ابيك ترق مع النجوى فتكون حباً وتضطرم مع الشكوى فتكون ناراً ، ولمحت روحك تنسكب في عبارات الرسالة واشاراتها ، وفي همسة الحب وفي زفرة الشكوى ، ووجدتك المؤمن البار تتمائل لتسّر أباك وتتفاءل لتبهجه ، وقد حمدت الله الذي حقق لك أملي وأجاب فيك دعوتي ،

ونسأله ان يتم لنا فضله ويواتر علينا نعمه ويبلّغنا رضاه ، ويلزمنا تقواه .

لقد سرني – ولله الفضل علي وعليك – أن أصيب القصد في رسالتي الأولى ، فأفلح في تشخيص الداء ثم أوفق في وصف الدواء وان استقبل البشرى منك بهذا الفوز ، وآمل ان تتوالى علي البشريات منك قريباً جداً ، وان تبلغ الغاية المحمودة بعد قليل ، وبعد جهد ضئيل ، وكل ذلك بمدد الله وعونه ونصره الذي أعز به المؤمنين ، وحبه الذي وعد به المتقين .

والشيء الذي لم ارتضــه من رسالتك ايها العزيز : هو أن تصف نفسك فيها بالحائر الخائر ، وبمـا يشبهها من النعوت التي توحي للنفس بالضعف ، وتؤكد فيها عدم الثقة ، وتولد فيها الشعور بالنقص ، وتكبلها أخيراً بالشعور بالاستقذار !!

. والايحاء الذاتي من اشـد المؤثرات على نفس الانسان التي تولد فيها القوة أو الضعف والرفعة أو الضعة .

ان من ابتدر الى أمر – مهما كان ثقيلاً باهضاً – وهو يوقن بقدرته عليه ، سهل عليه ذلك الأمر وخفّت أعباؤه ، ومن أقدم على شيء – وان كان صغيراً خفيفاً – وهو يشعر بضعفه عنه ارتعشت دونه قواه وخارت أعضاؤه .

ثق بنفسك كل الثقة ، ولا تشعرها بالضعف ابداً ولاتوح اليها بالخور ، فان الثقة بالنفس هي ذخيرتك الأولى لجهادك لها ، وأشعرها بحبك اياها وتكريمك لها ، فان الحب المعتدل للنفس هو القوة الكبرى المسيطرة عليها .

وثق بربك وبتوفيقه ونصره ، فان الثقة بالله مصدر قوتك في الجهاد

ومصباح هداك في المسير ومبعث طمأنينتك عند اضطراب القدم (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب)(٢٨:الرعد) .

لا . لا ياعزيزي : لست بحائر ولا خائر وأؤكد ذلك لك واستطيع أن أبسط عليه ألف دليل ودليل .

لست بحائر ولا خائر ، ولكنك تريد ايمانك نقياً من هذه الغشاوة الصفيقة التي تثيرها الأوهام ، وهذا ما ستبلغه ان شاء الله بعد قليل ، جد قليل ، اذا استمررت في تناول العلاج وتطبيق المنهاج .

وقد ذكرت لك في رسالتي السابقة ان هذه الخطرات التي تعرض لهذا الكائن ليست غريبـــة ولا غير طبيعيّة ما دام له ذهن ينتقل ووهم يتخيل وفكر يتقلب ، وخطورها في الفكر لا يضر بالايمان شيئاً ولا ينقص منه فتيلاً ، الا اذا استمسك بها الانسان ولوّن بها عقيدته أو تأثر بها حتى ولى العقيدة ظهره .

ولدي : والمؤمن الواعي قد يكسب من وراء هذه الخطرات المنحرفة قوة جديدة في ايمانه ويقظة في ضميره ، ذلك ان هـــذه الطّوائف حين تمس المؤمن لتلبس عليه دينه ، وحين يرجع – بعد ان يمّسه ذلك الطائف من الشيطان – الى ما في قلبه من نور يبدد تلك الظلمة ، والى ما في عقيدته من يقين ينفي ذلك الشك ، والى ما في فكره من برهان يحطم تلك الشبهة ، وحين يرجع الى الله خالقه ومدبره ، الذي يؤمن به ويلجأ اليه ويجده مـلء قلبه ونفسه وفكره وملء جميع آفاقه ، والذي يمّده بالنور واليقين والبرهان والطمأنينة ، أقول : وحين يرجع المؤمن من ايمانه الى هذا الرصيد العظيم ،

يوقن حق اليقين ان لديه عاصماً لن يمّس ولن يخدش ولن يقام له بسبيل ، ويفيد من هذه التجربة قوة مضاعفة في ايمانه ويقظة واعية في ضميره ، واقرأ معي آية الاعراف مرة ثالثة ، ليستبين لك بعض آفاقها على ضوء هذا التشريح : (ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكّروا فاذا هم مبصرون) .

ولدي العزيز : ماشأن هذه العوادي ، وما قدرتها ، بل وما قيمتها، لتكون أنت او لتفكر بأن تكون فريسة لها ؟! .

عد اليها بجأش ثابت بالله وقلب مطمئن بنصره وعزيمة واثقة بقوته ، فستجد الفتح من أول نظرة ، وعند أول مقابلة ، نعم ، وسترى عين اليقين : ان العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

وابدأ بالأفكار السحيقة التي اعترضت سبيلك أول مرة ، والهواجس القوية التي هزمتك في أول معركة ، أبدأ بها أولاً فأولاً ، وواحدة فواحدة ، وتحسس مواطن الضعف فيها ، وسلّط عليها النور الكاشف من الايمان، والبرهان الهادي من العقل ، فسينكشف الظلام لأنه لا يملك ان يواجه النور ، وسيزول الريب لأنه لا يقوى ان يقابل البرهان ، وسيذهب الباطل لأنه لا يشجع أن يصابر الحق ، وستكون هزيمة الخاطر الأول تمهيداً لهزيمة الهاجس الاخير .

انه الكبح ايها العزيز ، نعم ، انه الكبح لهذه الخواطر هو الذي نمّاها فصيّرها قوية عارمة ، وانه الخوف الشديد منها والتهرب من ملاقاتها هو الذي شجّعها فجعلها عادية مهاجمة ، أما غير ذلك فانما هي أخيلة لا قوة

فيها ولا مدد لها ولا ثبات لأمرهـــا ، فلماذا يخشاها الإنسان وهو يتسلح بالايمان ؟ !.

وكيف يحذر كيد عدوه الضعيف ، وهو يلجأ الى ربه القوي ، ويأوي الى ركنه الشديد ؟ ! .

ولست أراني بحاجة الى تكرار نصائحي السابقة بعد ان استبنت رشدها ولمست بعض آثارها ، ولا الى التاكيد على ان يكون سبيل رسالة ابيك هذه سبيل رسالته الأولى .

وسّر ذلك انك في هذه الأدوار تفتقر الى قلب مؤمن يسندك ، كما تفتقر الى ذهن نيّر يرشدك .

ولدي النجيب الحبيب .... ثم ماذا أقول ؟ .

هل تملك رسائلي أن تقوم بما أريد ؟ ! .

هل تؤدي عني بعض مهمات الأبوة لولدي ، وهو في ساعات احتياجه الى حدب أبيه ورشده ؟ ! .

هل تفي الرسائل بذلك . وخصوصـــاً وأنا أعزم – ولله المشيئة – سفراً الى البحرين ، ولعل الفرصة هناك لا تتيح لي ان افكر كما أشاء وأن اكتب كما أريد ؟ ! .

وأرجو من الله سبحانه العون حتى لا يصدّني واجب عن واجب ولا يصرفني حق عن حق .

وآمل ان لايثبّطك هذا عن مواصلة كفاحك ، ولا يمنعك عن تعريفي بنتائجك ، وانتظر أن يصلني جواب هذه الرسالة قبل سفري ، وهو على

ما يبدو لا يكون قبل يوم الثلاثاء القادم ومن الله التيسير وبيده التقدير ، وله الأمر من قبل ومن بعد .

تفاءل ايها العزيز ، فخير الايمان الباسم المشرق المتفائل .

ابتسم فكل ما حولك من ظواهر هذا الوجود وقوانينه واشيائه وأحيائه مؤمن قانت مثلك ، يشـد على كفك ، ويبتسم معك ويبارك لك ايمانك ويذود معك الشبهات عنه .

وبعد كل ذلك فأرجو أن تفتح سجلاً شاملاً لهـذه الخواطر التي تخامرك أو تضايقك ، وأن تكون دقيقاً في تصويرها جريئاً في التعبير عنها، وان ترسل الي منه نسخة ولو الى البحرين ، والله اعلم ان هذا العزم وحده سيذهب باكثر من نصف هذه الخواطر ، وأؤكد ان تصلني رسالتك قبل سفري .

واغتنم دعاء الأبوة وامانيها الطيبة وآمالها الكبيرة .

طلب . قصة حياة وقصة ايمان . امعان في عالم الروح .
تناقض . في المعترك .

٤٠

البصرة . ١٨ ذي القعدة سنة ١٣٨٤ .

سماحة ....

سلام عليكم طبتم :

وسلام لحوح . وتحية ممزوجة بالأماني ومعطرة بالأشواق ....

أي والدي : بغير عذر يتقدم اليكم ولدكم ، ويحمله قرطاسه من بعيد يمليه بايحائه القاصر بعد مضي أيام كانت طويلة ، وبغير عذر أيضاً يدخل بابكم. ولكني ان شاء الله الج اليكم وكلي شوق ولهف واكبار ، وآمل أن تتلقوني كذلك بالشوق واللّهف ، وحسبي من هذا الطول ، وربما هذا الجفاء اني أردت ان اتعرف نتائج علاجكم الشافي ، واتحصف أكثر من آرائكم السديدة ونصحكم الجميل ، لتمضي فترة واناسابت العلاج . ولتمضي فترة لتكهن النتائج . فحييت سيدي في مستقركم الجديد كما آمل لكم طيب الإقامة وحسن الصحة ووفرة الابتهاج .

وهذي رسالتكم المليئة بالآمال المكلسة بالأفراح العابقة بالأنوار ، وأنا أتناول بشوق جرعاتها الهنيئة رغم أن الآلام لازالت مرخية سدولها والأفكار الشعواء لازالت مقضضة أنيابها علي .

ويقف الآن بياني ليصوّر حالاتي المزدلفة ويصور هالاتي الفكرية ، ويقف ليصوّر انتصاراتي وخيباتي بين حين وأحيان ، ويقف ليصوّر أخيراً موقف الشريد الذي لم يعثر - الاعن قريب - على من يداويه طول مدة ألمه ، ولا من يوقظه حيال رقاده ، ولا من يمسك شخصه وهو في غياهب سكرته ، وكم طلبت أن اتتلمذ على يد طبيب ، نعم ولكني وددت ايضاً ان يكون هذا الطبيب عارفاً ايما معرفة بجراحة هذا البدن ، يعرف كيف يدخل للأفكار فيعالجها، ويعرف مرابضها ومهماتها ونتائجها ، ويدخل الى الهواجس ثم يعلل وجودها ونتائجها وأدواءها ، وبدون جدوى لم أر في الكتب ما يدلني عليه !! ولا في الرجال من أتعرف عليه ، وحين المت في ميدان الرجال - الماهرين بحسابي - الفيت شخصي قبالهم ، ثم ما لبثت أن فوجئت بالطرد الأدبي أو الاعتذار الوقتي والانهزام الديني !! بقصد الاشتغال وكـثرة المهام وبقصد آخر ، وكم حنوت ، وكم فشلت ، حتى قررت أن ابسط ذراعي وسيط من احتمل انه سيرشدني وسيلتزم حياة هذا الانسان ، ولبنة هذا الأسلام .

ثم عرفت بعد تجربة ليست بالقصيرة انني وغيري ان حرمنا من رجال العلم او من العلم، فمعناه اننا كتبنا على نفوسنا البؤس والشقاء والحِيرة وان بدا - في زحمة المدنية ومفاتنها واشواق الدنيا ورغائبها - اننا - . منتصرون اننا تقدميون . اننا مثقفون !! .

ولكنني ما استسلمت يوماً للظنون الفارغـة ، وما اقتنعت بجدوى النشوة الذليلة ، والإنتصارة الزائفة ، وانما اردت صياغة نفسي متوازناً من

هيبة العلم متوازناً من رشح الاخلاص متوازناً من قوة المادة وقوة الرّوح ، ولي في هذا التوازن حديث سأتعرض له .

وعلى اي صورة فقد استدرجت لنفسي قرار الايمان بعدالة هـــذا الدّين وصدق دعوته وحقانية منهجه ،حتى ألفيت نفسي لابد من أن أصونها من عثرات الهوى وبطش الغواية وحيرة العمى ، أن ألج في سلك الهداة الى الله ودينه والمعترفين على طاعته ورضوانه .

واستقررت بعد هذا كله على نصاب لليقين وعرش الإيمان، كما استقر ايماني الخارجي ، ولم أبل بعرض أياً كان شكل نوعه ، وفي ظلال يقيني وايماني سرت كما لابد لي من ذلك ، وطفقت أخصف من العبر ما يمدّ اعداداً زاهراً لمستقبلي المخيّب ، واستّر ما سلف من عيوب ونقائص، حتى هزتني الحياة هزات عنيفة وعمري لا يربو على التاسعة عشرة .

ثم أضاف القدر اليها عبراً زاخرة بالأوضار وثكلات موجعة وآلاماً مقرحة وزفرات رمضاء محرقة واثقالاً باهضة ، كلها وقفت بجانبي . وفي تّو بكر انطلاقة حياتي ... وكلها صدمات عنيفة لم تزد على هزة الحياة الا تردداً ، ولا من عبرها - في حسابي - الا اكثاراً ، ولا مني الا إيقاظاً وتفطناً وتحرزاً وتحذراً .

ثم اشار القدر الي بحمل كل هذه الأرزاء ، وضربني ضربات فادحة كانت بدايتها ان انهار والدي في عمله وخسر خسراناً مبيناً في تجارته ، وكان تبع ذلك ان انهارت حياتنا ومعائشنا ، ومرت الأيام ولكنها لم تعطنا شيئاً يستحق الذكر فضلاً عن ارهاقنا بالديون الكثيرة الشديدة التي لاتعدّ

إلاّ بعداد الآلاف .

ولا تعجب سيدي ، فلست مبالغاً بل هو الحق والصدق من واقع ما عاشه ويعيشه ولدك الذي طلبت اليه ان يفاتحك بسجل ، وستكون رسائلنا هذه بمثابة سجل حافل مكتوم مغلق عن نظرات الآخرين .

وطبيعي مثل كل ما مر ذكره ان يربك حياتي وان يشجــع هيام الأفكار السّوداء اللاذعة في دماغي ، وانا في مثل ذلك السن الذي لايزداد يوماً الاّ تزيده الحياة هموماً ولأرزاءً وآلاماً . في وقت لازال يصعد بانفاس محرقة لاهبة لمن السن المذكور من ربيع العمر الوجيه .

ومن عوز المال الى عوز الاعداد للمستقبل ، ثم عوز الناصح المرشيد الذي يجب ان يوقظ النفس ويعدّها إعداداً ثابتاً مرناً .

وقد تقول ما لـ . . . وهذه ؟ انها حالة كل أحد .

اننا يا أبتاه عشنا فترة غير وجيزة ولا قصيرة ، فترة تقلبنا فيها في غمرات النعمة والمال تفوق الاذهان ، اما الآن فحسرة النعمة السابقة ولذتها تموج على الخاطر وتمرّ مر الاحلام بعــد اليقظة ، ولو اردت ان اشرح هذا لسماحتكم لطال المقال ولخرجت ايضاً عما يجب ذكره .

وطبيعي ايضاً مثل هذا أن يزيد تأجج الأفكار السوداء وعيشها طويلاً في فكري ، ليكون لأمر قلعها ليس سهلاً ميسوراً ، طالما تحققت التربة والبيئة والغذاء والشيطان !! . ثم سادني رعب طويل وانا اتقلب في ظلم الكوارث ومعضلاتها الى ظلم الحرمان والفاقة كانسان وكشاب .

أفلا تكون واحدة من هذه كلها بقادرة على خلق انسان خائر حائر ؟

حتى أمسي في عباب عتابكم! وعتبكم تربية وتعليم ، ولم ترضهمني : . كلا ...
فاني خائر حائر لهذه الأسباب حيال القوى التي لا قدرة لي عليها . وليس
لضعف آخر . فقوة الإيمان ورساخة الثبات وشدة اليقين صمدتني للخطوب
ومنحتني جدة وجلداً في الحياة ، وخشونة وعبراً زاكية . يمكنني بعد أن
ألمح بصيصاً من نور الحق ان أسير متمرس العبر ومتمرس الفهم لهذه الحياة :
سيدي : وصبر نفسك الطّاهرة الخيرة معي وعلى احتمال شجواي وأذاي »
وهل سمحت لي الآن أن أعيد الخطاب ؟ وأن استأذن مرة أخرى رغم
علمي أن وقتكم ثمين وثمين جداً ، ولكن حسب المربّين العظماء والأطباء
الحكماء أن يعلموا كينونات تلاميذهم كما يعلم الفلاح طبيعة أرضه ليزرعها
أي صنف او زرع أراد .

ثم جاء دور الإيمان معقباً كل هذه الأحداث . جاء الإيمان ليبسط
ذراعيه وسط خضم من أمواج تتضارب بشدة وتتخاصم بعنف في حومة
الصراع بلا رادع ولا مانــع !! . جاء وسبيله لذلك أن يدخل الى قلبي
فيشغله بتهاليل وتسابيح وتقاديس بدل أهوال وأوجاع وأوضار .

أجل دخل الإيمان ، وانطلقت روحي مرفرفة بقدومه ومرحبة بمجيئه
ثم سبحت في لجه غير ناظرة لشيء سواه ، وكأن قــد غمرتها نشوة من
نوم عميق أو سبات شديد ، تعانقا طويلاً وتمازجا وتحابا على روح الوداعة
والصدق والأمانــة والإخلاص والصبر والعزم والاتكال على الله واحتمال
الأذى في سبيله وعلى روح الايمان المتاخمة لكل اولئك .

وأطلقت لكياني الروحي عنان سبحاته ورشحاته وقداسته ، وتناسيت

كياني الجسدي المادي في اكثر صفاته وأغلب متطلباته ، ونسيت معه أيضاً كل شيء لا يخص روحي واستعداد جسدي للموت والبلى والعدم ، ونسيت اني في الدنيا ، ونسيت اني محاسب على ذلك التيه لنفسي . وطبيعي فقد حرم جسدي كثيراً من راحاته في الصيف أو في الشتاء ، ومن جملة من حقوقه في اكثر الأحايين طالما يزيد نماءً لروحي .

وعلى أثر هذا التناقض ، بل هـــذا التبادل شحن فكري باصناف الهواجس وألوان الأفكار ، وهنا لج التلاطم واحتدم الصراع حينما أبصرت شخصي بعيداً عن مادية الدنيا ومتطلباتها ، حتى عبت على الناس أن يقوموا بأي نشاط حيوي ، وحتى عبت على نفسي أن تذهب الى عملها ، وخشية من سوء المصير وسوء العاقبة اندفع بغير شوق لبقية أعمالي وواجباتي الدنيوية ، حتى أني لا ادري أية عناية لأهلي وبيتي بل ونفسي ايضاً ، وهنـــا بذور محنتي التي تعرضت اليها في رسالتين وأطيل ذكرها هنا .

وحين رأيت بعض الناس لهم اهتمامات خاصة بدنياهم ، اهتمامات لا يحتقرها الاسلام نفسه ، وواجبات لا يمنع قيامها الايمان ، ورأيت نفسي تلوي على روحانية لا أصل لها في هذا الكون . لا أدري هل ندمت؟.. بل لا . وانما عرفت ذلك وتفطنت اليه ،وعرفت ايضاً البون الشاسع بيني وما يجمعني من الآخرين ، أردت اخيراً أن أسوي قضاياي بشخصي دون أن أخبر أحداً ودون أن أعلم فرداً قريباً أو بعيـــداً ، ومنذ زمن وانا في مثل هذا الاعـــداد واغراض التوازن ، ولا زلت حتى أفرطت في بعض مهمات الدنيا وحاجاتها قصد الاسراع في التوازن والهيمنة الكليـة المستوية

في الطريق الوسط .

ذلك هو عدم توازن مطالب جسدي بسبحات روحي وعدم التوازن هذا أضناني مقصدي وأناخني رهين الهواجس الظلماء والأفكار الخشناء ، ولذلك كله أدرجت عضال مرضي في رسالتين موجزاً ، وها أنا ذا اصرح اليكم ما وسعني التصريح وأضع النقاط على حروفها الملساء عساني انتقل من عتم الأفكار الى منار الحياة المشرقة واستقامة المقصود وعظمة المراد .

وبعد ذلك ياأبتي فاني اعتقد قد اوضحت القصد وعبّرتُ بما يجب بغير تلميح ولا تكتم . وبلا تلميح وبغير تكتم اشـير أيضاً الى قوة السّر التي افصحتم عنها مع أني انا الذي أكابد فاقتها وأعيش مضاضتها وضناها حين أوجزتم صادعين : (وسّر ذلك انك في هـذه الأدوار تفتقر الى قلب مؤمن يسندك كما تفتقر الى ذهن نيّر يرشدك) .

أجل والله . . . . !! ولست انا فحسب بل كل انسان على وجه الأرض .

فقد جاءت النغمة أشد صدىً وأشد صدىً وأوقع حسـاً . . .

أجل وغير بعيد عليكم –مربي النفوس– أن تعلموا ذلك . وغير بعيد علي أيضاً وانا اتضوى مرارة الفكرة بفاقتي اللهيفة الى قلب مؤمن وذهن نير ! ! .

ولكن من لي وانا بمثل هذه الظروف العصيبة التي تتناوش فكري كما تتناوش صحتي وحياتي أن ادل على طريق راشـد صائب وقلب مؤمن طاهر ؟ !! .

كلا . وطريقي صعب مستصعب ، وانا أدري أن أمامي سبلاً ثلاثة

ليس بينها رابع . اما التزواج حالياً ومعناه الخلاص من كل فكر موحش والشفاء من كل هاجس أو رجس ، واما النزول الى حياض دنس الحيوالية ، وهذا معناه الافلات بالروحي والانهزام الايماني ، الى جانب الخسائر الكبرى التي تفادحني والمعضلات العظمى التي يأباها ضميري وعقلي وديني ، واما الكبت الذي تحدثتم عنه في أواخر رسائلكم .

أما الأول فمحال الآن . نعم محال وبكل تأكيد حالياً ، واما الثاني فقد وقفت على نتائجه قباله ، واما الآخر فمعنـــاه استئناف كل مر بمر وكل فكر بآخر وكل هاجسة بلونها .

اما انا اليوم فحقا لفي معترك صاخب بين عقلي وهواي ، بين ايماني وما يدعو لنفيه . ولئن كان حقا هذا فحق كذلك اني لا . . ولن اصارح شخصاً آخر بمثل هذا الا أن اتعرف النتائج واستيقن من الطريق الثابت في غد المستقبل !! ....

كما واني وان اوحشت هذه السبل الثلاثة أمامي فاني كنت ولا ازال أتضرع بيد الاخلاص والايمان الى ربي الرؤوف الرحيم أن يرأف بعبـــده الضرير في هذه السبل ويخلّصه من فتن الأفكار السافيات وهوج الهواجس المرديات .

وعلمي يقين بأن هذه فتنة . وهذه فترة بلية ، ضمت الى جملة فتن وبلايا حياتنا ، ولكنها ليست في ذات وقتها .

فماذا يصنع الاسلام في أمثال هذه البلايا والفتن . . ولله في كل واقعة حكم ؟.

واني وان كنت استرضع من لبان المعرفة قليلاً واسترزق من كنز العلم ضئيلاً ، فاني آمل من سماحتكم أن تفيضوا وتخففوا عني وبال امري العضال ، كما وسترى انني لازلت كاتم حديثي عن كل أحد ، وستعلم أن ولدكم لازال ناهجاً منهاجكم ، وستراه ولداً باراً يكن تقديراً فائقاً وتكريماً نبيلا اليكم لتكونوا على مداد الايمان وحب الاسلام أباً رحيماً ورؤوفاً ، أباً لا يستوحش من ابنه لتيهه وضلاله ولا ينفر منه للذنوبه حتى يدله على معالم الطريق الرحب والنهج المستقيم .

ولدكم

عتاب .

٤١

البحرين . ٧ محرم سنة ١٣٨٥ .

سماحة . . . . .

سلام عليكم ، ودموع هامرة أغلف بها تحياتي ، وأربط معها تقديري وتمنياتي ، متوسلاً الى ذي القوة والجبروت أن يحفظكم لما فيه السعادة والسؤدد ، ويسدّد خطاكم لخير هذه الأمة ، المحتاجة الى امثالكم ، المقتاتة على جهودكم وصبركم وأعمالكم النبيلة .

سلام يشقّ أجواء النجف والعراق ويهبط في البحرين ، ثم يقع متواضعاً ، أمله الوحيد أن يردّ عليه بنحو من الأنحاء المتعارفة ، فقد صفّق هذا القلب واضطرم في لجّة ، بخضمّ دمائه الموّاجة ، ثم ما عتم أن اسودّ وما لبث أن تغيّر ، لما جرى عليه من إعراض أبيه ، وجفائه له ، وبعده اللاذع .

قصدتكم - يامولاي - برسالة حسبتها أزعجتكم ، وظننتها آلمتكم ، وانتم محتاجون الى الراحة ، وما أدري ، وهذه نفسي وقعت من حيرتها في صلب راحتها ، وشدّة وحشتها ، وأغرب وقت يمرّ بها ، وأعصف ليل حالك يمرّ عليها، وما أدري وانتم مجشّمتموني على الكتابة اليكم ، والإفصاح التام عما يخالج

شعوري من هواجس ، ومـــا يخامر نفسي من آصار ، حتىّ اذا كادت هذه الهواجس أن تعمل حدة في غضب ، وشدّة في شيء ، الحت لهذه النفس بالثّبات ، وطلبت منها الهدوء في وقت ثورتها ، والسكون في شدة أزمتها ، فعتمت راضية او مكرهة ، ولبت النداء في ظلال رسالتين تفيأت بهما ، ورجعت اليهما رجوع الطفل الى حلم أمـــه أو الذّ . . . وذرفت دموعي ذرف دموع الطفل على بعد والدته أو أكثر . ومع كل حالة ربط الله على قلب ولدك بما أراد ، ونبّهه الى سبيله ، وذكّره لخطر الطوائف العاتية الضارية ، التي تجعل من الانسان حيواناً بهيماً ، ليس له من حياته إلاّ ما يضرّه : جنسه ومعدته ورغابه .

وقصدتكم – يا أبتاه – ببطاقة معايدة لعيد الأضحى المبارك . وبعد مهلة الايام وبطء الجواب ، حسبت ان الأب تنحى عن ولده ، وظننت ان المربي ترك ربيبه ، وما حسبي انا الا ان اكتب وأكتب واكتب ، حتى لو طردني الأب الرؤوف ، أو جفاني المربي العطوف ، ويقيني أنكم مشغولون باشغال عامة كثيرة ، كما حدثتني عنها في ختام آخر رسالة قرّت عيناي بها ، وكما فهمت من . . . . : إن أبناء البحرين يقصدونكم صباح مساء ، ولم لا ؟ ، فشيمكم فشت في مختلف أوساط الناس ، فمـــا رأيت مكاناً ذكر اسمك فيه ، إلاّ وتحرّكت شفاه المتكلمين مدحاً وحباً وإكباراً وإعجاباً ، فأعجب انا بنفسي ، أن الله عرفني بين يدي كتابه ، في بقعة فاضلة طاهرة من ارضه ، أن التقيت بعظيم كبير . . . . .

أأبا ضياء : مريض يداويه طبيب ، هل له ان يتركه لمجرّد أنـــه

أعطاه للعلاج ، وحسبه انه شفي من مرضه ؟! وما يدريه ، لعل علاجه لم يجده نفعاً الا اللمم ؟! فكيف بعوارض هذا الانسان كليمك ، هل يترك أياماً فشهوراً ؟ ! ، واذا قيل للطبيب : إن مريضك قد مات ، فماذا يفيده الاسف ؟ وماذا ينجعه بعدها من علاج ؟.

على اني أعترف أنني نثرت بعض بذور يائسة في رسالتي السابقة ، ومع أني أردت ان أقول الحقيقة ، لكي أستخلص دواءً شافيـاً ، وأقف صحيح البدن ، صحيح الفكر ، صحيح النفس ، معافىً على يد لمهر طبيب ، تدقّ الأيام جرسها المنتصر اليه ، وتهلّل القلوب اليه اكباراً .

وربما تكون هذه العتبى شديدة ، الا أنه كلام ولد ، ولسان مريض ، واني لأرجـع الى نفسي فأقول : علّ رسالتي وبطاقتي لم يوفّق لها ان تحلّا في البحرين وتهطلا عليها ، طالما ماء البحرين يكفي فما أحسب هذه السحابة الضعيفة تقوى على شيء ، لتزيد أو لتثمر !! .

وانتم – يامعاشر العلماء – رشـح من أنبياء الله الأطبّاء ، جئتم لتداووا النفوس العليلة والبصائر المدخولة ، وهؤلا أطبّاء الأبدان فتحت عياداتهم ليلاً ونهاراً ، فلا تغلقوا أبواب طبّكم ، وسداد لبابكم ، وحصافة آرائكم عن هذا الانسان ، وهـذا المجتمع ، المملوء بمثل هذا الانسان المريض .

والمرضى لاطباء الابدان يهرعون اليهم ، وينتظرون بألم وصبر ومضض على باب الطبيب حتى يحل وقتهم ، وأما مرضى النفوس ، وعليلو الأفكار فلا يأتون الى اطبّاء الأفكار ومداوي النفوس فضلاً عن الانتظار ، فحسبكم

ان تهلّلوا بنا وتنتهزوا فرصة إقبالنا ، وتشبعوا آمالنـــا بالرحب والسداد والخير والأمل العريض .

لقد ثقّفتني في رسالتين لم ألف موجودهما في كتب كثيرة ، وهذا واقع حفظتني ايّاه .

وأما شأن العلاج ، فلا زلت أتناول بعض جرعاته ، فقـــد كففت نفسي عن مطالعة الكتب ، رغم اني وجدت ميلاً لمطالعة الكتب القصصية والحكمية والأدبية بصورة عامـــة ، ذلك انك تعلم اني ميّال الى المطالعة طالما شرعت شراع سفينتي على ذلك ، وصارت في لجّ الحياة مائجة ، ويراد منها أن تثمر ، وان تسدّد لهدف ، ومع أن ذلك لا يخلو من فائدة تسقيني بها خبرة ومعرفة وقوّة أدبية مضاءة ....

وكما أوصيتني في أول رسالة فقد طرحت التلخيص أرضاً .

سيدي : لا تسدلوا ستارة دكناء علينا ، واقتربوا الينـــا بإعدادكم ونصحكم ، وأضفوا علينا قوة في ايمان ، وصلابة في حق ، ورسوخاً في ثبات ، وشجاعة في جهاد ، وحباً في تقوى .....

دم – سيدي – تكتنفك رعاية الله حتى ترجع الى   ولدك

اعتذار . الصلة القائمة على الايمان لن ترث . الخطوب
تصوغ الرجال . لاخير في رجل لم تنضجه نار الاحداث .
بقي دور النتائج .

٤٢

النجف : ١٥ محرم سنة ١٣٨٥ .

ولدي المهذب الأديب النجيب ...... دمت في رعاية الله وكلاءته

سلام الله عليك ورحمته وبركاته ، مع عظيم أشواقي ، وكثير سؤالي ، وجزيل دعواتي : أن يحقّق الله أمانيّ لك ، ويبلّغك آمالي فيك ، ويكفيك ما أحذره عليك .

ولدي . وائذن لأبيك – قبل أي قول – أن يقدّم لك بعض عواطف الأبوة ، وأن يبثك من لواعج الفراق ، وصلتني رسالتك الأولى بعد أن تأخّرت في البريد مدة تقرب من شهر ، ثم وصلتني بطاقة المعايدة في أواخر شهر ذي الحجة ، ثم وصلتني رسالتك الأخيرة العاتبة الغاضبة بالأمس ، ولم أراسلك كل هذه المدّة ، ولم أعرّفك بوصول رسائلك اليّ – على أدنى التقادير – فما معنى ذلك ؟ .

قد تقول : ان أباك سلا ولده بعد أن تمادى به الفراق ، وقد تظنّ أنه سها واجبه نحوه ، أو تغافل عنه وقد تركه في أشدّ المآزق ، قد تقول هذا أو ما يقرب منه في شأن أبيك ، وائذن لي – مرة أخرى – أن أعبّر عن بعض عواطفي قبل أن أقول : يسامحك الله على هذه الظنون.

هل تعلم أنني لم أستطع أن أقرأ رسالتك الأولى غير مرّة واحدة في هذه المدة ، على ان الرسالة بين يدّي في اكثر الاوقات ؟ وإذا كان هذا شأني مع الرسالة ، فكيف يمكنني أن أفكّر في مناحيها التفكير الكافي ، ثم أضع في جوابها العلاج الشافي ؟ !.

إنّ الواجبات تتراكم ، والحقوق تتزاحم ، ومن الله العون على حمل الاعباء ، وهو المؤمّل لتسديد الخطا .

لا . لا : إنّ أباك لم ينسك لحظة ، ولن ترثّ صلته بك – ان شاء الله – ما دامت قائمة على أساس الايمان ، ومستمّدة من روح القرآن ، ولن يتركك – بعون الله – للهواجس والوساوس ، ولكنها الظروف – يابني – كما يقولون تحكم وتتحكّم ، ثم هو قصور الانسان المحدود القوة ، إذا توالت عليه الضغوط ، ورسالتك تتضمّن ثبتاً لابدّ من دراسته ، ووزن الأحداث المذكورة فيه ، لمن يريد أن يصف العلاج المجدي ، وأرجو منه – سبحانه – أن يهيّء لي الفرصة الكافية لذلك .

لا . لا – ايها العزيز – : لم تزعجني رسالتك أبداً ، والطبيب الذي يطلب من مريضه أن يفصح له عن دائه ، لا يألم منه اذا حدّثه ببعض ما يجد .

لم تزعجني رسالتك أبداً ، ولكن أزعجني وآلمني جدا ان تنصبّ هذه الأحداث كلّها على قلب صغير في مثل (عمر البرعمة) . . !.

على قلب يبتسم أوّل ابتسامة للحياة . . . وهو يأمل أن يلقى نظير تلك الإبتسامة منها !.

وأزعجني إبطائي أنا في وصف العلاج ، فلعلي – والعون من الله وحده – أوفّق الى أن أضع به حلاً للمشكلة .

لا . لا – ايها العزيز – : لاتبك فإنني لا أحاول إبكاءك ، وإنما أصف ما أزعج أباك .

لا . لا – أيها النجيب – ، فقسوة الأيام ، وشدّة الخطوب ، هي التي تصوغ الرجال الجديرين بحمل الأثقال .

إي وعينيك ، ولا خير في رجل لم تنضج رجولته نار الأحداث ، ولم تعجم عوده كفّ الغِيَر ، ولم تلقّح ثقافتــه تجارب الدّهر ، أقول هذا لا مسلّياً ، بل أصف حقيقة لامراء فيها ، واطمح ببصرك نحو التاريخ الرفيع ، وانظر أيّ الرجال العظماء لم تخلقه الأحداث ؟ ! .

اما الكبت الذي أشرت اليه في رسالتك ، فسأقول لك – ان شاء الله تعالى – : إنه ليس من الكبت في شيء ، ولكنّه من التسامي ، وأمّا الحرمان فانه بعض الدروس التي ستدرك عظم نتائجها يوم تستكمل درجة التسامي ، وما هي منك ببعيد .

أجل وما هي منك ببعيد ، أقولها بوثوق كامــل ، ونفس مطمئنة للنتائج الأخيرة .

لقد انقضت أدوار التجربة ، ولم يبق الا ّ دور واحد ، هو دور النتائج ، ولا أنكرك – ياعزيزي – : انها دروس قاسية ، تتطلب رجولة وبطولة ، وتخلق الرجولة والبطولة ، ولكن الثمار شهية رضيّة ، تذهب بجميع الأتعاب .

ولا أطيل هنا ، فلست أجيب الآن عن رسالتك الأولى ، ولكنّني

أشير ، وأترك التفصيل الى رسالة أخرى ، أرجو من الله أن يسهّل لي تحريرها في وقت قريب .

نعم ، لا خير في رجل لا تنضج رجولته نار الأحداث ولا تعجم عوده أكف الغِيَر ، وقد كان لأبيك من هذه الدروس الحظ الكبير ، وقد عرفت – أخيراً – أنها من نعم الله العظمى علي ، وان توهمت في دور الطفولة العقلية أنّها من نوع آخر .

وأخيراً أزفّ اليك وافر تحياتي ، وكثير اشواقي .

الثقة بالله أولا . أفكار تهاجم الايمان في آفاقه العملية . هكذا اتكن قراءتك الرسالة . السجل المدهش . حول الله وقوته . ايمان فطرة . شذوذ عاطفي . شعور بالتناقض. الكبت والكبح . حرمـــان وتسامي . نشوز عاطفي . الهواجس الغريبة . استعراض واستنتاج .

٤٣

النجف . ٢٤ صفر سنة ١٣٨٥ :

ولدي المهذب المؤدب النجيب . . . . نظرك الله بعينه ، وآواك الى ركنه .

سلام الله عليك ، ورحمته الدائمة ، ونعمته الموفورة ، وتوفيقه الشامل ، ونظرته الكالئة ، ورعايته الحارسة ، مع أشواق الأبوّة الحانية ، وأمانيها الرقيقة العالية . وأعذار المحبّ الهاجر ، الذي لا يَدَ له في هجرانـــه ، ولا مشيئة له في تجافيه ، والذي يعلم – حق العلم – بالآثار التي يتركها هجره في قلب ولده الحبيب ، والصدوع التي يخلّفها تجافيه عنه أيّاماً وشهوراً ، وهو في ظروفه القلقة ، وفي رمضائه المحرقة !! .

ولدي : لست بهاجر ولا بمتجافٍ ، وقد ألمحت في رسالتي التي ارسلتها اليك من البحرين الى وجوه من معاذيري ، ولست إخالني هنا محتاجاً الى تكرارها ، والذي أتمنّاه على ولدي أن لا يعدّ هذا التأخير صدمة في وجه العلاج ،

وسيعرف – بعد هذا – سر هذه الأمنّية من أبيه .

وصلت البصرة ، فكان جوابك أول شيء فكّرتُ فيه ، وقرأت رسالتك التي أرسلتها الي قبل ثلاثة شهور ، وأمعنت النّظر طويلاً في التّثبت الذي انطوت عليــه ، ومن الله – سبحانه – أسال لي ولك التسديد في المنهج ، والتذليل للصعاب ، والفوز بالغاية .

ولنثق معاً – أيها العزيز – أن الله معنا ، ما دام هو غايتنا ، وما فتئنا نسعى لرضاه ، ونجهد لتقواه . ما دمت أنا مخاصاً في الوصف ، وما برحت أنت صادقاً ومخلصاً في التطبيق ، وهذا العنصر أهّم العناصر التي يفتقر اليها العلاج الدّيني لأمراض النفوس .

وسأكتفي في جوابي بالاشارة المفهمة الى ما تضمنته رسالتك العزيزة، فأنا أعتقد أنّك تحتفظ بصورة منها ، وإنّما أصنــع كذلك نظراً لطول الرسالة ، فذكر عباراتها كاملة ثم الجواب عنها تفصيلاً مما يطيل سير العلاج .

وأودّ أن اكون صريحاً مع ولدي في تبيين النتائج ، كما كان صريحاً في وصف الداء ، وانا أحمد له صراحته الموضّحة ، وأرجو أن يحمد لي أختها .

والواقع أن رسالتك قد خفّفت قسطاً من المهمة ، فقد كنت فهمت من بعض رسائلك المتقدّمة أن الأفكار والهواجس التي تشكوها ، من النوع الذي يعرض لذات العقيدة ، ولأسّ الإيمان ، ومن أجل ذلك ، نصحت لك بترك المطالعات والتلخيصات ، للكتب الإسلامية فترة العلاج .

ذلك أنه لا جدوى في شحن الفكر بالمفاهيم الكثيرة ، ولا نفع في

إجهاده بالبحث المعنت عنها ، ما دامت صمّامات الإيمان مفتقرة الى الإحكام، وما دامت ركائز العقيـــدة مهدّدة بالأوهام ، فكانت الخطوة الأولى هي التفرّغ للعلاج ، وقد ذكرتها لك في رسالتي الأولى .

ورأيت أن العلاج الكامل : أن تستقبل الأفكار الوافدة واحدة واحدة ، فتستعرضها بالنقد الصحيح ، المبتني على أسس المنطق ، ومناهج التدليل والتعليل ، وأن تبدأ بالأفكار القديمة التي هاجمتك أوّل مرّة ، فكلّ ما بعدها أصداء لها ، وقد أوضحت لك هذا في رسالتي الثانية .

ولكن رسالتك هذه أثبتت لي ، أن الأفكار التي تشكوها ليست من النوع التي توهّمته ، وإنما هي من النّوع الذي يهاجم الإيمان في آفاقــه العملية ، وأملي من الله أن يكون المنهاج في هذه أيسر ، وأن تكون أنت على مراعاته وتطبيقه أقدر .

ولنبدأ آلان باستعراض المقدمات ، وايضاح النتائج .

باستعراض المقدمات كما ذكرت ، وأودّ ان تكون رسالتك المشار اليها بين يديك ، فأنا معتقد بأنك تحتفظ لك بصورة منها ، وأرغب أن تكون منفرداً انفراداً كاملاً لقراءة رسالتك أولاً ، ثم قراءة رسالتي بعدها مرة ومرة ، وما شئت .

واذا استطعت أن تكون قراءة الرسالتين بصوت مسموع .

واذا استطعت أن لا تحبس عاطفتك عنـــد عبارات الرقة من كلتا الرسالتين ، فاذا طغت العاطفة عليك عند قراءة ما يثيرها - وهذا ماأعتقد به جازماً - فأطلق لها عنانها إطلاقاً كاملاً ، بعد التأكّد من انفرادك عن

أي سامع وأي ناظر ، إلاّ من ربك الذي أنت بعينه .

أطلق لها عنانها إطلاقاً كاملاً ، فسيخفّ عنك ضغطها ، ويتقاصر الحاحها ، وتضعف قوّتها ، بعد قراءة أو قراءتين أو أكثر — على فترات — ، ثم تعود للقراءة الهادئة المفكّرة الواعية بعد ذلك . وهذا أوّل الفوز .

بني : وهذا موضع حاجتك الى قلب مؤمن يسندك ، كما قلت لك في إحدى رسائلي : الى قلب كبير مؤمن يسندك بحبّه ، ويلحفك عاطفته ويشعرك دفأه ، ويشاركك وجدانه ، فلا تشعر — وأنت في ظلّه — بغربة ، ولا تحذر من ريبة ، ولا تخشى خيبة .

أمّا الذهن النير الذي يرشدك ، فانت مفتقر اليه في كلّ خطواتك .

حبيبي . وأود أن تعرج معي الى آفاق هذا النداء ، التي تملأ النفس ثقة ، وتمـــلأ القلب رضىً ، وتتصل آخر النّهايات بالله العظيم ، الذي أمر بإقامة الصّلات بين المؤمنين على حبّه ، وتأسيسها على تقواه :

ذكرت لي في رسالتك سجلاً مدهشاً من الحوادث والكوارث ، التي ألمّت بك وبأسرتك ، والتي أشارت اليك المقـــادير بحملها ، والرّزوح تحت ثقلها . .

واست أعلّق على ذلك هنا بأكثر من قوله سبحانه : (إنّا لله وانا اليه راجعون) ، و : (لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم) .

أجل . وأيّ قوّة تنجي من هـــذه الكوارث غير حول الله العلي العظيم ؟ ، وأيّ سبب يجدي غير أن يشعر الإنسان ، ثم يثق ويطمئن بأنّه — بسبب إيمانه وعقيدته — موصول بمعدن القوة التي لا تهن ولا تضعف

ولا ترام ، وبمصدر العزّة التي لا تذل ولا تخضع ولا تضام ؟ ، كما يتصل المصباح المعتم والأدوات الجامدة بمصدر القوة الكهربيـة ، بسبب سلك دقيق ، فتفيض نوراً ، وتفيض حركـة ودفءاً ، وتفيض برداً ونعيماً ، ما دامت القوة فائضة ، وما دامت الصلة قائمة ، وما دامت الأدوات الموصولة صالحة للإقتباس والاستمداد .

فقوّة الله وعزّته وحوله ومـدده ، هي التي تقي المؤمن الكوارث والحوادث ، وأرغب أن نقيم على هذا التشريح معنى قوله سبحانه : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) (٨ : المنافقون) .

نعم ، وأؤكد لولدي ان ذلك ليس أمراً معنوياً فحسب ، ولا خيالياً يقوم في محض التصور ، بل هو حقيقة شاخصة ماثلة ، يعيها المؤمن ويعيشها ويشاهد آثارها وامدادها .

ولكنها تتوقف على أمر هو من صنع الانسان نفسـه ، ومن عمله باختياره .

على إحكام صلته بمصدر القوة العظيمة التي يريد أن يعتصم بها ويلجأ الى ركنها .

وهو من صنع الانسان نفسه لأنـه عقيدة ، وهي أمر يقوم على الاختيار ، وهو من صنع الانسان نفسه ، لانه ايمان ، وهو أمر يقوم على الاختيار كذلك وهو من صنع الانسان نفسه ، لانه رسوخ في العقيـدة والإيمان ، وهو نتيجة للتفهم الكامل الواعي لمعنى العقيدة ومعنى الايمان ، وللحقائق المضيئة الواضحة التي آمن بها ، ولحقيقة الحقائق ومبدأ المبادىء ،

الذي أسلم اليه وجهه ، وفوض اليه أمره ، وأخلص له دينه .

ثم هي بعد ذلك توفيق ومدد من الله لا يمنعه من أوى اليه مخلصاً وتوكّل عليه معتصماً .

إن عصمة الله ومنعته لعبده حقيقة ماثلة وآثارها مشاهدة محسوسة ، ولكن هذه شرائطها ومؤهلاتها ، وهي جدّ قريبة منك بلطف الله ، وليس مقامي منك هاهنا مقام إطراء وثناء ، والحوادث والكوارث ذاتها مما تزيد شعور الإنسان بعلاقته بالله ولجوئه اليه ، فليس عليه — بعد ذلك — الا أن يستكمل الأسباب .

ولدي : قف على رسالتي هذه وقوفاً مستقصياً مستوعباً ، فلكلّ حرف منها مدلوله ، ولكل كلمة جدواها ، وحتى هـذه الوصيّة اليك باستيعاب الرسالة واستقصاء ما فيها ، لها مدلولها ولها جدواها ، وأقول هذا لتكون دقيقاً في تناول العلاج واستيفاء المنهاج .

ذكرت لي في رسالتك هذا السجلّ المدهش الذي بكر عليك وأنت في ربيع العمر ومستهل الحياة ، وقلت بعد ذلك ، والعبارة لك : (ثم جاء دور الايمان معقباً كلّ هذه الأحداث ، جاء الإيمان ليبسط ذراعيه وسط خضم من أمواج تتضارب بشدة وتتخاصم بعنف في حومة الصّراع بلا رادع ولا مانع !! ... جاء وسبيله لذلك أن يدخل الى قلبي فيشغله بتهاليل وتسابيح وتقاديس بدل أهوال وأوجاع وأوضار) .

ولدي : لنقف قليلاً بين يدي هذا الايمان الذي جاء معقّباً على هذه الأحداث لنتعرّف ما جوهره ، وما حدوده ، وما سماته .

ليس من النَّصَف ولا من الحق مطلقاً أن نقول كما يقول البعض: إنه ايمان العاطفة المكبوحة المحرومة ، التي تُمنع رغائبها من جانب، فتبتغي لها عوضاً ومتنفَّساً من جانب آخر ، وأن التهاليل والتسابيح التي لجأت اليها مظاهر لهذا التنفيس .

ليس من النَّصَف مطلقاً ولا من الحقّ أن نقول كذلك ، فهو قول من يجهل ركيزة الإيمان في فطرة الانسان .

انها الفطرة السّليمة المستقيمـــة ، التي تشدّ الانسان بربه ، وتشعره بهيمنته وتدبــيره ، وهي لدى الوقوع في المآزق والمضائق ، تكون أبين حكماً وأصرح تعبيراً . انها الفطرة التي لا تلتوي ولا تنحرف عند الشدائد وان التوى الإنسان عنها في أحوال أخرى ، والايمان الذي يستنـــد اليها ويستمد منها ايمان مكين رصين ، لا قصور فيه ولا اضطراب .

ولكن من الفضيلة أن نعترف ، بأن العاطفة المكبوحة قد توّجه هذا الأيمان الفطري وجهتها التي تبتغي ، وتضرب عليــه حدوداً ، تقصر أو تبعد به عن حدوده الصحيحة ، فتنصرف به الى ناحية الرّوح وحدها مثلاً حين تحرم رغائبها من المادة .

وهذه هي حالة ايمانك الباكر ايها العزيز ، ومن أجل ذلك انصرفت انصرافاً كاملاً الى الرّوح ، (وانطلقت روحك - كما تقول - مرفرفة بقدومه ومرّحبة بمجيئه ... ثم سبحت في لجّه غــير ناظرة الى شيء سواه ... وتناسيت كيانك الجسدي المادي في أكثر صفاتــه وأغلب متطلباته ...) الى آخر ما قلت في هذا الشأن .

فالعاطفة المحرومة الممنوعة هي التي وجّهت إيمانك الفطري هذا الوجه المنحرف ، وشدّة انغماسك فيها - أو بالأحرى - في الايمان الذي رسمت هي لك حدوده ووضعت سمانه ، هي التي صيّرتك تعيب على النّاس أن يقوموا بأيّ نشاط في الحياة ، وتعيب على نفسك أن تذهب الى عملها .

ولما خشيت سوء المصير لتركك الأعمال والواجبات الدنيوية ، واندفعت الى مزاولتها بغير شوق ، أوجبت لك شعوراً بالتناقض والإستقذار ، لانك توقن أنمزوالة تلك الأعمال تناقض الإيمان .

وأقول : العاطفة والرّغائب المحرومة الممنوعة هي التي أوجبت ذلك ، ولا أقول المكبوتة ، لأنها كانت موجودة ماثلة في شعورك ، وأنت تحسّ بها احساساً كاملاً وتشعر بالحاحها ، ولكنّك فيالوقت ذاته تسعى لقمعها والتّعويض عنها .

ولا تكون الرغبة أو العاطفة مكبوتة حتى يمنع ظهورها في الشعور ، وتختفي في منطقة اللّاشعور ، ثم تطفو في شكل عقدٍ أو أحلام أو أمراض .

هذا هو الكبت ، وأنت بعيد منه بفضل الله ، أما الذي تشكو منه فانه الحرمان ، وأما الذي كنت تسعى اليه في إيمانك الباكر فهو التسامي ، وإن كان سعيك اليه بطريقة ملتوية ، وسأعود الى توضيح هذه النّقاط إن شاء الله عند الحديث في العلاج .

وحين تنبّهت الى واقع الايمان الصحيح ، وواقع ايمانك الذي كنت تلوي عليه ، وعرفت الفارق الكبير ما بين الواقعين ، وأردت أن تتلافى الأمر بنفسك ، لا باستشارة خبير ، تدخّلت العاطفة والرّغائب المقموعة

– مرة ثانية – في أمرك ، ولكن تدخّلها في هذه المرّة كان بطريقة لا شعورية ، فاقترحت على الفكر بالتزام الإفراط في الملهيات الماديّة ، بحجّة أن يتم لك التوازن بين مطالب الجسد ومطالب الرّوح بصورة سريعة ، وهكذا كان .

وكلا السّلوكين نشوز عاطفي لا يتمّ به توازن أبداً ، وان طال السير وطال ، وكلا الحكمين إرضاء للعاطفة في حال غضبها وفي حال رضاها ، وقد كان حكمها في المرة الأولى التّعويض عمّا فاته بحكم الحوادث التي جرت عليك ، اما حكمها في المرة الثانية فهو للسّرف في استيفاء مطالبها باسم الاعتدال ، وضمّ شذوذ الى شذوذ لا ينتج توازناً ، ووصل خطّ منحرف بخطّ منحرف لا يؤلّف خطاً مستقيماً :

ولدي العزيز : وعلى ضوء هذا التحليل ، فيمكن لي أن أتنبّأ بنوع هذه الأفكار والهواجس الغريبة التي تنهال عليك وتضايقك وتنغّص عليك حياتك ، وتقضّ مضجعك .

فالأحداث القاسية التي حلّت بك وبأسرتك وأنت في ربيع الحياة ، من شأنها أن تملأ نحن الناشىء – الذي لم يزوّد برصيد من المعرفة – بنوع من أحلام اليقظة ، : بأمانٍ واسعة النطاق : ان تقوم له اليد الغيبية العليا بسدّ العوز وصدّ الأحداث وازالة الكوارث عنه وعن أسرته ، وبإرجاع السّعادة المفقودة بأوفى من نصابها الأول ، أن تقوم اليد الغيبيّة له بذلك بصورة غيبية كذلك ، وتشتدّ هذه الأماني ويشتدّ تعلّق الناشىء بها اذا كان قلبه ينطوي على ايمان مكين .

فاذا ألحف بالأماني وألحّ في الطّلب والدّعاء ، ولم يسعف بالإجابة ولم تخفّ عنه الأزمة ، ساورته الظّنون بعدالة اليد الغيبيّة ، أو بقدرتها على كشف ما به .

ويبدأ هو بخنق تلك الظّنون وصرف تلك الخطرات عن فكره احتفاظاً بإيمانه العزيز عليه ، واعتزازاً بقوّته التي التجأ اليها ، وخشية من غضب الإله عليه ، ولا يزال مع هذه الهواجس في كرّ وفر وأخذ وردّ ، حتى ينتصر هو عليها ، اذا منّ الله عليه بامداد من المعرفة ومن الإيمان الصحيح ، أو تنتصر هي عليه اذا كان الأمر على الضّدّ من ذلك ، أو تبقى الحال على ما هي عليه ، فإلى القلق والاضطراب والحياة المعذّبة .

والرّغبات المحرومة والغرائز المقموعة ذاتها تلحّ على الناشىء إلحاحاً شديداً ، وتجهد أن تعبّر عن ذاتها تعبيراً قوياً ، ولا سيما اذا كان النّاشىء في أدوار المراهقة أو قريباً منها ، في أدوار بروز الطّاقة واتّقاد الغريزة ، فاذا أراد النّاشىء أن يقمع هذه النوازع من نفسه باسم الايمان واسم التطّهر ، واذا نظر اليها نظرة الدّنس الذي يجب أن يتأثم منه ولا يسوغ له التفكير فيه ، ازداد الحاح الغريزة وارتفع صوتها ، وتنوّع احتجاجها ، وتدخّل العقل في أمرها فهي تطالب بحقّ ، ومددها الطبيعي المتزايد يزيد الموقف حراجة .

فاذا أصرّ الناشىء على قمعها باسم الايمان توّجهت التّهمة من العاطفة ومن العقل الى عدالة هذا الايمان الذي يمنع الحقوق وظنّت به الظنون ، واستمّرت الحال كذلك بين كرّ وفرّ ، والنتيجة في ذلك هي النتيجة السّابقة .

ولدي : هذه نتائج أقررها وأكاد ألمسها من المقدّمات السابقــة ، ولكن ماذا وراء ذلك ؟ ه

إنّك لم تكسب ايمانك الباكر من عاطفة ، وانما كسبتـه من دلالة الفطرة ، فهو ايمان رصين مكين ولا ريب .

والعاطفة هي التي وجهّته الى الرّوح وحدها ، فهو خطأ عاطفي لا خطأ فطري ، وليس لوثة في الايمان ذاته ، ولكنه قصور في المدارك التي خضعت للعاطفة في تحديد الايمان .

والتّهم للتي توجّهت من النفس والعقل – بعد ذلك – الى عدالة الايمان ، انما تنصّب على هذه الحدود المخطئة التي قرّرتها العاطفة ، أما ايمانك الفطري بحدوده الصحيحة فهو نقيّ بريء ، لأنك انمــا تؤمن بالإسلام ، والاسلام بحدوده الصحيحة يعترف لكل من الجســد والرّوح بحقّها المشروع ، فهو بريء من تلك التّهم بعيد عنها .

وأنت لمّا استبان لك أن الاسلام لا يختص بالرّوح ، فأفرطت في تناول الأمور المادية بقصد الإسراع في تحصيل التّوازن بين مطالب الجسد ومطالب الروح ، لم تقصد الإفراط ، بل والمظنون أو المتيقّن من حالك أنّك لم تفرط بالفعل ، فان معنى الإفراط هو التعدّي عمــا سوّغه لك الشارع من المباحات ، وأنا موقن بأنك لم تتعمّد ذلك .

وافراطك إنما تعني به : أنك انهمكت في مباحات الدنيا ، على وجه لم تعهده من نفسك في أدوارك الأولى ، واذن فــلا ضير ، ولا حرج ، ولا تعدّي ولا افراط ، مادمت لم تكتسب شيئاً من المحرمات ، فان هذا

هو الحدّ الفاصل في حكم الشريعة الاسلامية المطّهرة بين الاعتدال والافراط .

وعلى وجه الاجمال فلا قصور في ايمانك يوم قبسته من الفطرة ، ثم لا قصور فيه يوم ركّزته على الفكرة ، نعم أخطأت في شأنه خطأً عاطفياً يوم قصرته على ناحية الرّوح وحدها ، والتهم التي توّجهها الغريزة المقموعة والرغائب الممنوعة والعقل المتصر لها يوم قمعتها باسم الايمان ، انما تتوّجه الى الايمان الذي قصرته على ناحية الرّوح .

فإذا تزوّدتَ بعد ذلك من المعرفة الكاملة : ان الاســلام لا يهدر حقاً من حقوق الجسد ، ولا يظــلم ضرورة من ضرورات الّروح ، ولا يسوّغ للمؤمن أن يحيف على جانب منها ، بــل يوفي لكّل من الجانبين حقّه غير ممنوع ولا منكود ، اقول : فاذا تزوّدت هذا من المعرفة الكاملة بمناهج الاسلام ارتفع ذلك الخطأ العاطفي القديم ، وزالت نتائجه وعقابيله من الشعور ، واذا كان بعضها لا يزال راسباً في منطقة الّلاشعور ، فلابد وأن يزول على مرور الأيام بعد زوال سببه ، وارتفاع ما ينميه ويغذّيه ، ويمكنك العمل على تذكّره وازالته بدون عناء .

وأما التّهم التي يوجّهها ذهن الناشىء الى عدالة اليد الغيبية اذا لم تحقّق له أحلامه ، أما هذه التهم وتبعاتها فانها تزول يوم يستكمل معرفة وإيقاناً : بأن الله لا يمدّ معونته وإجابته لأحدٍ من الناس من وراء حجب الغيب ، فقد شاءت حكمته ان يجري الأشياء بأسبابها ، وأن ينيطها بآجالها وأوقاتها .

هذه دراسة شبه مستوعبة للثّبت الذي احتوت عليه رسالتك ، وأرجو

من الله أن أكون فيها موفقاً ، أمّا بقية النتائج ومنهاج العلاج فقد رأيت أن أفردها في رسالة ثانية قريبة ان شاء الله .

وتقبل تحيات ابيك وعواطفه وأشواقه الكثيرة ، واسلم.

استعراض وتركيز . العلاج . مراحله . شروطـه .
الحرمان . التسامي . غريزة الجنس يثيرها التفكير .

٤٤

النجف . ٢ ربيع الاول سنة ١٣٨٥ .

ولدي الزكي الأديب ... ... دمت في عصمة الله ومنعته مما أخافه عليك وأحذره .

سلام الله عليك ورحمته ، وبركته وتحيته ، مع وافر شوقي ، وبالغ تقديري ، ومنه أسال لي ولك تحقيق الأمل وصلاح العمل ، ونظرة الرّضا في الآخرة والأولى :

أرسلت اليك قبل هذه رسالة طويلة ، وقفت فيها مليًّا على الأحداث العاصفـة التي المّت بك في بكر شبابك ، وكادت أن تلوّن فكرك كما لوّنت حياتك ،.وضمّنتها دراسة شبـه مستوعبة ، أرجو أن تصل اليك وتجتني ثمارها شهيّة رضيّة ، وأن يصلني كتابك قريباً يُطمئِن قلب الأبوة الخافق .

وأنا واثق أيّها العزيز بأن الله لن يسلمك ضحيّة مهدورة للأفكار العاتية ، بعد إخلاصك له ، وجهادك لابتغاء مرضاته ، فهل لولدي أن يشاركني هذا الوثوق ؟ ، والله عند حسن ظنّ عبده المؤمن .

قلت لك في رسالتي المتقدمة : إنك بحمد الله لم تصب بكبت من

جرّاء رغائبك ومطالب جسدك التي حرمت منها لتلك الكوارث ، والتي أصررت بعد ذلك على أن تمنع نفسك منها باسم التطّهر والزّهد والانصراف عن ملاذّ الدنيا وضرورات الحياة ، حين أوحت اليك العواطف المحرومة : أنّ الإيمان انما هو تهذيب الرّوح وإعلاؤها ، وإهدار حقوق الجسد ، والعزوف عن شؤون المادّة وعلائقها .

لم تصب بكبت من جرّاء ذلك ، وانما أصبت بالحرمان ، وقد تعرضت للفارق الإصطلاحي بين معنى الكبت ومعنى الحرمان .

فالكبت الذي يعرفه علماء النفس ، ويحذّرون منه ، ويذكرون له المحاذير ، والعواقب السّيئة الشّديدة ، هو أن تُقمع الرغبة ، ويشدّد الحصار عليها حتى تستكين وتخضع ، ويمنع من ظهورها في منطقة الشعور ، وتختفي مقسورة في منطقة الّلاشعور ، فتكون حين هذا مكبوتة ، وتسبّب للانسان عقداً وأحلاماً وعُصاباً وأمراضاً نفسية أخرى .

انك لم تصب بكبت ، ودليل ذلك : ان الرغائب والضرورات المادية التي منعت منها ، ثم أصررت أنت على الامتناع عنها باسم الايمان ، لم تكن محجوبة عن شعورك أبداً ، وهي لا تزال ملء شعورك وتصوّرك الى الآن ، فهي ليست مكبوتة في منطقة الّلاشعور ، وانما هي ممنوعة التحقّق محرومة الإستجابة ، وللمنع والحرمان آثار غير محمودة ، ولكنّها ممكنة التحمّل يسيرة العلاج ، وسأعود الى الحديث عن هذا ان شاء الله.

وقلت عن ايمانك الباكر : انه ايمان مكين لا قصور فيه يوم قبسته من الفطرة ، ولا يوم ركّزته على الفكرة ، وأما قصره على جانب الرّوح

وحدها ، فهو خطأ أوقعتك به العاطفة المحرومة ، والنّفس الإنسانية تعمل مثل هذا العمل كثيراً ، فاذا حرمت رغائبها من جانب ، ركنت الى الجانب الثاني وأفرطت فيه ، بدافع الاحتجاج عن ذلك الحرمان ، أو بدافع التعويض عنه .

وعلى أي حال فهو لا يخدش ايمانك الفطري ، ولا ينال من قيمته ، وهذا الخطأ العاطفي لابدّ وأن يكون قد زال بعد أن اطّلعت على حدود الاسلام الحقيقية ، وعلى مناهجه القيمة . لابد وأن يكون قد زال وانطوت معه عقابيله ، وزالت بتبع ذلك التّهم التي وجّهتها الرغائب المحرومة الى الايمان ، يوم كانت تزعم أن تلك هي حدوده .

والإفراط الذي ركبته في مطاليب الجسد بعد ذلك خطأ عاطفي كذلك ، لم يخدش الايمان ولم يقلّل من جدواه ، بـــل وأنت موقن حتى في تلك الحال : انه ليس من حدود الايمان ، وانما ركبته بعد الافراط في ناحية الرّوح طلباً لحصول التّوازن السريع ، فلابدّ وأن يكون هذا الخطأ العاطفي الثّاني قد زال كما زال سابقه ، ولم تُبق لك المعرفة بمناهج الاسلام الحقيقية إلاّ الايمان بحدوده الصحيحة .

واذن فماذا بعد ذلك ، وما مثار هذه الأفكار التي يشكوها ولدي العزيز ؟ .

هنا الصدمة العنيفة ، التي صدمته وهو لا يزال في بكور الحياة ، دون اي إعداد ودون أيّ تجربة ، ودون أيّ مران على مصاولة الأحداث .

هنا هذه الصّدمة القويّة الشّديدة ، التي امتدّت وتلوّلت واتّسعت دائرتها ، وتعددت جهاتها ، وعمقت آثارها ، والصّدمة اذا كانت مفاجئة

دون إعداد ودون مران لابدّ وأن تخل بتوازن ، ولا سيما اذا كانت في أثر نعمة موفورة وحياة مرفّهة ، ومن أجل هذه الصدمـة كنت تذهب بإيمانك وبسلوكك ذات اليمين وذات اليسار :

ويبدو أنّ الله سبحانه قد رؤف بك قبل ايجادك ، فأعدّ تكوينك النفسي لمقابلة هذه العواصف ، فزوّدك بفطرة قويّة ثابتة حملتك على الايمان حملاً وأنت في أشدّ الأزمات وأضيق المضائق ، ولولا هذه الفطرة القويّة الحكيمة ، ولولا هذا المرسى الثّابت من الإيمان الفطري الذي ألجأتك اليه، وبالأحرى لولا لطف ربك الرؤوف بك العليم بأمرك ، الذي أعـدّ لك هذا الدّليل برحمته ، وآواك الى هذا الحصن برأفته ، لكنت ضحيّة ممزّقة بأيدي الكوارث وأنيابها .

وحتى العاطفة المحرومة التي قلت لك : إنها أوقعتك في خطأ عاطفيّ يوم انصرفت بإيمانك الى ناحية الرّوح ، إنها مخطئة في هذا التحديد الذي جعلته للايمان ما في ذلك شك ، ولكنها كانت حكيمة الى حدٍ ما ، فلولا هذا الميل بك – باسم الايمـان – الى ناحية الرّوح ، لما صمدتَ للأحداث ، ولما ثبتّ للعاصفة ، أقول هذا محلّلاً ومذكّراً لك بنعمة الله عليك ، ورأفته بك ، ولنظرته لك ، وفي الامثال السائرة (ربّ شرٍ في باطنه خير) .

هذه فطرتك ، وهذه عاطفتك المحرومة ، وهذا إيمانك الفطري الباكر ، كلّها من نعم الله الخفية عليك ! . والصّدمة التي تحدّثنا عنها واستهولنا وقعها ، انما هي صدمة وهائلة في أول حدوثها ، أما بعد ذلك فلا تكون

صدمة وإن استمرّت بعض آثارها ، واستمرّت مضايقاتها وتبعاتها :

وهنا الأفكار السوداء ، والخواطر القلقة ، والهواجس المختلفة الملوّنة، التي تنهال على فكر الناشيء أيام أزمته وشدّته ، فيستريح الى بعضها، ولا يمكنه التخلّص من بعضها ، وتتّخذ فكره مسرحاً لها ، هادئاً مرة وثائراً مراراً ، ومتقلباً بين شتى الخواطر وشتى الانفعالات في أكثر الحالات .

ويمكّن لهذه الوساوس المختلفة : أن لا يكون للناشيء – في أحواله تلك – ناصح رشيد موثوق ، يأخذ بيده ويسدّد فكرته . ويغذّيها وينميها أن لا يكون له قلب مواس يشاركه وجدانه ويبثّه أحزانه ، وهذه هي الأعراض التي تشكو ضّرها أيها العزيز .

وعلاج هذه الأعراض يسير بمدد الله ، ولكنه يفتقر الى مصابرة ومجاهدة في الله ولجوء اليه .

وأولى مراحل العلاج : أن تُشعر نفسك بأنها قادرة على التخلص من هذه الأوباء ، والارتفاع عن هذه الأخطاء ، وقد أعدّ لك الإيمان والإطّلاع على مناهج الاسلام والقراءة الواعية لمختلف الآراء ولشتّى الثقافات ، قد أعدّت لك نفساً رفيعة طيّبة ، جديرة بهذه الصفة التي توحيها اليها .

وليكن ايحاؤك هذا الى نفسك قويّاً مفهماً ، ومتواصلاً مستمراً برهة العلاج كلّها .

ولتعلم حق العلم : أنّ هذه الأفكار من صنع نفسك ، وان تسبّبت لها الحوادث وهيأت لها الظروف ومكّنت لها الملابسات ، انها من صنع

نفسك ، فلن تكون أقوى من نفسك أبداً ، إنّها من صنع نفسك فهي التي أوجدتها ، وكل مـا هنالك أن الحوادث والملابسات وجّهت نفسك اليها توجيهاً ، وحتمت عليها أن تكوّنها ، ثم مرنت النفس ومرنت الإرادة عليها ، حتى أصبحت تعملها بطريقة تشبه أن تكون لا شعورية .

وهذا المران سيخفّ تدريجاً ، ثم يزول تماماً بارتفاع النّفس وتنبّهها، وتوجيه الإرادة ، والوقوف الصامد في وجه هذه الأفكار السوداء ، ولا سيا بعـد أن أدركت النفس مغبّة هذه الأفكار ، وعاقبتها السوآى التي تحيق بالمرء ، وتُظلم حياته ، وما تجرّه عليه من وبال .

نعم لقد مرنت النفس عليهـا ومرنت الإرادة ومرن الفكر ، ومن أجل هذا الاعتياد افتقر علاجها الى مصابرة ومجاهدة في الله ، ولكنّه على أي حال أمر يسير .

ولابد لك من قطع الخطّ أمام هذه الأفكار ، بافهام النّفس إفهاماً صريحاً كاملاً أنها بلطف الله قد أصبحت أرفع من هذه المنحدرات .

ولست ضعيف النفس ، ولا ضعيف الفكر ، ولا ضعيف الإرادة ، ولو كنت كذلك لما ثبتّ أمام الحوادث والكوارث وأمام هذه الأفكار المعتمة السوداء طيلة هذه المدة .

ولدي : وأيسر السبل بعد ذلك ، وأحراها بسرعـة الانتاج : أن تشغل بالك بالافكار الصائبة ، الكثيرة الجدوى ، المتسلسلة ، بحيث لا تذر مجالاً ولو صغيراً لشيء من الأفـكار الأولى ، وإن تطفّل منها شيء في وقت من الأوقات فلابدّ من إقصائه وطرده طرداً مبعداً .

أشغل ذهنك بالأفكار الصحيحة المضيئـــة التي تضادّ تلك الأفكار الأولى وترتفع عنها ، ولتكن الأفكار التي تشغل ذهنك بها من الأفكار المحبوبة لك ، الأثيرة في نفسك :

وأرغب أن يكون من بين تلك الأعمال التي تُشغَل بها : أن تدوّن مأساتك التي واجهتها في الحياة قصةّ مستوفية الحلقات ، دقيقة العرض ، رشيقة الأسلوب ، خيالية الأشخاص ، وتودعها جميع آلامك وشجونك ، وأرى أن تأليفك لمثل هذه الرّواية سيقوم لك باذن الله بثلثي العلاج ، ان لم يقم لك بالعلاج كلّه .

ويمكنك أن تضمنّها ألواناً من النّقد التربوي ، والتوجيه الاسلامي في هذه الحقول ، فتضيف الى الهدايات الاسلامية قصة واقعية هادفة موجّهة ، مؤلمة الحوادث ، رفيعة الأهداف .

وأنا أعلم أن قيامك بهذه الفكرة سيشغلك طويـــلاً ، نعم وهذا ما أرومه لك بالفعل ، وأعتقد أن النجاح يتوقّف عليه الى أمدٍ بعيد ، وتمكنك الاستشارة بعد هذا في بعض النواحي التي تتعلّق بالمطلوب :

وهنا الحرمان الذي كتبته الحوادث على رغائبك ومطاليب جسدك : الحرمان المطلق من حقوقها المشروعة العادلة ، وحتى من بعض الضّرورات التي يتطلّبها انتظام الحياة . الحرمان الذي كتبته الأحداث عليك أول مرة ، ثم أصررت أنت على وجوب مواصلته باسم التطهّر والترفّع عن مطاليب الجسد وملاذّ الدنيا .

الحرمان الذي يؤدّي الى حرب مستعرة دائمة ، بين الرّغائب الكثيرة

القوية المقموعة ، وبين الدوافع المذلك الحرمان ، ولا سيما اذا وقع الحرمان أيام المراهقة وما بعدها ، ايام تنبّه الغرائز ، وابتداء النشاط في بعض الأجهزة ، وقوة التجدد والاحتراق في مختلف الخلايا ، ولا سيما اذا وقع الحرمان بعد نعمة ميسورة وسعادة موفورة .

وآثار هذا الحرمان كثيرة في الانسان في مختلف نواحيه ، ومن شديدها الأفكار المختلفة الملّحة ، والمطالبة الطبيعيّة القويّة بحقوق الغريزة ، المطالبة الطبيعية التي لا تفتر ، ولا تهادن ، ما دام لها مدد من الطاقة ، ومنبّه من الطبيعة ، والضغوط الشديدة على مختلف الأجهزة التي قد تؤدّي الى ارهاق الأعصاب ، وبلبلة الفكر ، وايحاش الحياة ، ولا سيما اذا صاحبت الحرمان نظرة استقذار واستنكار لهذا الشعور .

وهذا بعض الأعراض التي تشكوها .

والزواج الشرعي هو الحلّ الكامل الذي تنتهي به المعضلة كما قلت في رسالتك ، ولكن :

اذا لم يكن القران الشرعي ممكناً ، للعوز الذي أطبق على حياتك بعد تلك النكبات ، فهل يكون السبيل هو الكبت ومواصلة مرّ ؟؟ أو الإرتكاس في حمأة الرذيلة ؟ !.

لا ، لا أيّها الحبيب ، ان الله سبحانه حين قال في كتابه الكريم : (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله) لم يأمر هؤلاء بالكبت ، ولكنه أمرهم بالتسامي والاستعفاف .

التسامي عن سقطة الخزي ، والاستعفاف عن حمأة الهون .

والتّسامي والاستعفاف تطلّع بالغريزة الى الوجوه النبيلة التي يعترف بها دين الله ، وحبس لها عن الانهيار والانحدار ، وهو غير انكار حقّها الشرعي حتى ترتدّ مكبوتة الى منطقة اللّاشعور .

انه الاستعفاف والاصطبار ، وفي الصّبر شدّة ، وفيه مضاضة ، ولكنّ في اللّجوء الى الله عوناً ، وفي فضل الله غنىً ، وفي الاعتصام بتقوى الله ضماناً ، وفي التّفكير الجادّ بما يجب على الانسان لربّه ، ولدينه ، وللنواحي الكثيرة الأخرى من حياته صارفاً ، فانّها الطّاقة الحيويّة في الانسان اذا صرفها في ناحية خفّت في نواحيه الأخرى ، وهذا معنى قول الرسول (ص) : « يامعشر الشباب عليكم بالباءة ، فمن لم يستطع فعليه بالصّوم فانه له وجاء » .

إنها الطّاقة الحيويّة العجيبة في هذا الكائن تولّدها أجهزته بحكمة وعلى قدر ، فاذا توجّه به الاهتمام الى ناحية أو نواحي معيّنة ، وصرف فيها مقداراً كبيراً من الطاقة ، قلّ نشاطه في نواحيه الأخرى ، وخفّ ضغطها .

ومن أهم ما يعين على التّسامي والاستعفاف قلّة التّفكير في ناحية الجنس ، وعدم التعرّض لمثيرات الغريزة ، ومكمن الخطأ والخطر أن يفكّر الرّجل في هذه الناحية أو يتعرّض لمثيراتها ، فاذا هاجت واضطرمت طلب إخمادها بوجوه غير طبيعية أو غير شرعية .

وللإنسان ضرورات كثيرة يتوقّف عليها بقاؤه أو بقاء نوعه ، والكثير من هذه الضرورات ـ كالطعام والشراب ـ يشعر الانسان بالحاجة اليه

شعوراً تنقائياً ، ولا يتوقّف على سابق تفكير ، وغريزة الجنس هي الضرورة الوحيدة التي لا يعلن صوتها ولا يغلب أمرها الا بعد التفكير ، وهذا أحد صّمامات الأمن التي وضعتها الحكمة الخالقة لهذه الغريزة ، كيلا تنطلق دون حق ، أو في موضع تتعذّر فيه الاستجابة لها ، فتتحقّق المحاذير الطبيعية وغير الّطبيعية .

ولدي : لقد أطلت وأطلت ، وأرجو أن تجد من هذه الاطالة خيراً كثيراً وبلغة كبيرة ، وأن يصلني كتابك قريبـاً ينفس بعض هموم أبيك الذي لا ينساك ، كما أرجو أن التقي بك قريباً فأرى مظاهر الصحة الكاملة والنعمة الشاملة تطفح على أساريرك ، وترتسم على كيانك وتشرق مع ايمانك .

وازف اليك وافر تحياتي وعظيم اشواقي وبالـغ تقديري ، ومن الله أسأل لي ولك تسديد الخطا ، والعون في جميع الأمور ، واسلم .

قصة . اشراف على بؤرة . انتعاشة وتهاثل لشفاء .

٤٥

البصرة .

وبعث بهذه الرسالة بتاريخ ١٦ / ٦ / ٦٥ ،
وقبل وصول الرسالتين السابقتين اليه .

سماحة . . . .

سلام للأب ، وتحيّة الطاعة : بخشوع الايمان ، وقوة الثّبات ونفوذ الارادة .

ومن جلال الصبر ، وعظمة المدى ، وصحّة العزم ، أقبّل يد الأبوة الناصعة الشافعة .

ومن روح العدل ، وشفقة الحق ، وحصافه الرّجولة ، وعبق الأنفاس الحرّا بالأخلاص والنبل والشهامة أضع متواضعاً ابتها لاني وأمانيّ . . وسلاماً عقيب سلام ، وحناناً فياضاً ، ومحبة نامية ، ودعاءً حاراً مستمراً . . . .

فياأيها الأب الحنون ، وياايها الكبير الصّابر على هذا الكليم الصغير النحيف ، توغل في قولتي سيدي ، ولا تنبذ إفراط شجوي ، فقد ألفيتك ملاذاً ، فليكن كتفك آمناً كائماً كما عهدته منذ أوقفت آمالي في صراطه ، فلقد تنكبت القضيّة اليوم أعلاها ، وهزأت قواي من أرجاس المواجس

وفاعلية الوساوس ، وعادت حياتي اليوم تنبذ الشرّ نبذاً ، ومن قبل كانت تنبذه سلبياً ، وفي اليوم وقبل اليوم بقليلٍ صارت تنبذه ايجابياً .

وعدت بعدما مرّ رهن الهزّة العرضيـــة ، التي نابتني في الأسبوع الأول من الشهر ، عندما قادني من لم يقلنى بالأمس . . . . آه عندما قادني . . . . لـكي أزرع الشوك الدّامي ، بأناملي التي خطّت مختلف موحيات الإيمان والهدى ، أمام عبقرية الايمان ، وسراج التقوى الّلاهب !! .:

وتعثرتُ . . . وتلعثمتُ قبل أن يحل المرون ، وقبل أن أضلّ الطريق . . . . وقبل أن يجعلني القدر عبرة المتكلّمين وحديث المتأسفين ..

وأراد الله سبحانه أن يجعل نهاية لمأساة إنسان مؤمن ، وأراد تعالى أن يحول بين الهوى والإيمان ، بين المجون والحصافة ، بين الطيش والتأرجح ، والصمود والثبات ، فكانت الرّعدة الإيمانية والرّجة العقليـــة ، ثم كانت بعدها البصيرة النافذة والصحوة الشاملة .

أجل ، إنها لبصيرة ، وانها لصحوة ، وليست صحوة موت ، فإن صحوتي بفضل الله صحبها حياة . . . حياة . . . حياة .

ثم سألت الحياة بضعف ومسكنة : أن تديم لي العبرة الكامنة في شفق الحدث ، وتريني إياها ثابتة على صفحة الوجود ، كلما زاورت الشمس مطالعها علينا ذات الشمال وذات اليمين : وأكبرت جرمي القاتم لـكي يزيغ عن يومه المعتم . وأسررت نهايتي لبطولتكم :

فما أراني الآن عصبياً شده الألم وقوّض معناه الجرم ، وأضناه المرض، فعاش ثلاثاً تحت رداء الجوى ، وعلى بساط الضنى ، ومـــا عرفت عيناه

الكرى ، الا الجزع لهموم كتبت على غرة ناصعة ، سارت مرفرفة العلم ، شفافة الطلعة ، ريانة الربوع ، تبتهل بضراعة وبراءة الى بارئها المتعال بين وقت ووقت ، ليحفظ هـــذه البراءة الشابّة من بصائر المدخولين ، ومن أوهاق الذنوب والمذنبين .

ثم تألّبت المحنة ، وعُصفت الإرادة ، ووهنت القوة ، وييبس عود النماء ، فجاءت الرّياح بقواها العاتية عليها ، وهي بين يمنة الانحدار ويسرة الإنكسار ، وتهشّمت الريح – بفضل الله – قبــل ان تهشم النّبتة التي سقاها ماهر وعزقها مدرّب وهذّبها معلّم كفء .

ولما قيّض الله لهذا الماهر المدرّب المعلّم أن ينآى عن نبتته طفقت الرياح لها ، ودلفت اليها مسرعة ، فابتدرتها تهزّها هزاً ، وتعصف بها عصفاً ، كأن لها معها عداءً مستتراً وشراً كميناً .

والمهمّ . . . والمهمّ ، لقد انكسرت تلك النّبتـــة أو كادت ، ووقعت على الأرض شأن الضعاف اللّاتي لا يقوين على مقاومة ريح وصدّ تيار ! .

وحسبت حسابهــا فكانت أضعف من هلك ، ولكنها لم تهلك ، فسرعان ما اكبرت فتوّتها وعلّت هبوطها القليـــل السريع ، وأعدّت للمستقبل ألف عده وعدة ، وما كان أسرع من أن استمدت القوة القاهرة بعد أن عرفت كيف تصدّ الرّياح وما علل هبوبها عاصفـــة ، وكيف تضعف قواها ، كما عرفت مكامن ضعفها ومواضع هزالها ، فلاحت لنفسها أنها ثابتة ، وتأبطت قوة ، وتأطّرت نشاطاً ، وبفضل آخر من حاورها

وعرّفها حقيقتها ، فاذا ما جاء هاتف الرياح يزمجر رسخت ثابتة ، واستمرت صامدة .

والنّبتة مجموعة خلايا ، منها الغضّ الشفيف ، ومنها الصلب القويّ العنيد ، والتي ارتّخت لحظــة وناءت ولكنّها لم تمس بتاتاً أرض القذى والدّنس أبداً ، قامت بأسرع من لمح البصر ، وهي بدلاً من أن تقوم في ليل ترصدها الكواكب والنجوم ، قامت في نهار ترصدها النّظار والعيون ! وهذا موقع الألم والجوى .

ومن يدري ، وقد تكون هنا الحكمة بالغة ، بل قد تكون هنا العبرة كامنة ناصبة ؟ ! ومن يدري لولاها لما استمدّت من روحها الرّعدة ، والرجة ، والبصيرة ، والصّحوة . ؟ ! . وربّ شرّ في باطنه خــير ، وعند اليأس يتحقّق النصر .

فالنظّار والعيون الباصرة الشاخصة اليها من يقول ، ولعلّها امدّت تلك النبتة عزماً أرفع وقوة أشد ، تضاهي قوتها الأولى ، وتكــبر عزمها الكمين ، وكما حصل فعلاً .

تلك هي قوة الثّبات للمستقبل ، والعدّة القويمة له فضلاً عن الصمود أمام القولة والمتقوّلين من الجهلاء ، الذين يدركون أو لا يدركون : ان الضعف قد يستولي على هذا الكائن في لحظة من اللحظات ، فيهوي به ليس على الأرض فحسب ، بل في أبعد هوة وأعمق حفيرة ، فكيف بها وهي لم تمسّ الأرض مساً ولم تقارب عودها شيئاً بتاً بتاً .

وبسرعة القوى الطبيعية الهائلة ، وبنصر الله استعادت تلك النبتة قواها

المحافظة ، وصمدت في وجه كل مضادد ومعاند ، والكفأت تستعيد أوليات نشاطها ، ومهمّات إيمانها بعزم يصعد السلم بخفاء وعلن ، ويتسلّق جدلو الايمان باصالة واقدام وجرأة ، اعتماداً منها على هذه التجربة القاسيـــة ، وعلى رشد ماهرها ومدّربها ومعلّمها من جديد .

سيدي : هذه شبه قصّة تبدو سيماها على ملامح كاتبها ، فلا تستغرق في التفكير ، طالما أنا جادّ باخبارك بكل ما يطرأ على فكري وكياني ، روحي وجسدي ، وطالما أنا أنكر المنكر بقلبي ولساني ، وحين يصل الأمر الى يدي فلا أراني مقصراً فيها ، قلمـــاً او سيفاً ، أقول لا تستغرق في التفكير : من هو المقصود بالنبتة ، وما الأرض المذكورة في القصـــة ، بقدر ما أودّ ان تعلم انّ القصة حقيقية لها مساس واقعي .

ادرس هذه الرّسالة واطّلع على مخبّأ ما مضى من قبلها وعلّل أو وجاهد على أن تسرع الي في الجواب ، كما فعلت جزاك الله أحسن جزاء المجاهدين ، ولست اليوم بحاجة الى شيء ، إلاّ ان أرجع رجوع النبتة الى ماهرها ومدّربها فهل من قبول ؟ .

سيدي والعذر لا يفي بقدره والشكر لا يؤدّي مهمته ، فلعلي أطلت المكوث وسببّت ما لا ترضاه ، وعلمي بوقتـــكم أحرص وأثمن من تلاوة رسالة من لم يتطبّب في علاج مضى ، ومع كل هـــذا فاسمح لولدك أن يطفيء سراجه الضئيل قصد اضاءته عند هبوط رسالتكم ، وقد أحتاج لهذا أبداً ، فشروق الشمس معناه اطفاء الأنوار ، لتبقى وحدها زاهية وسيط الحياة والكون والانسان . . . .

رسائلي وتحياتي تدلكم على تعلقي اللطيف بكم واستمتاع روحي بكيانكم ويلفعكم لاخلاص .

ولدكم

وصف حال . صحوة ايمانية . تعليق وتصديق . مخاوف واعترافات . إشعاعات طبيب . شكر وتقدير .

٤٦

البصرة .

ثم عقب بهذه الرسالة بتأريخ ١١ / ٧ / ٦٥ ، وبعد ان وصلت اليه الرسالتان السابقتان .

سماحة . . . .

سلام عليكم طبتم .

سلام الربيع للحياة . . للازهار .

سلام الابن المطيع ، تبهرجه يفاعة الاخلاص ، وتكلّله براعة الصغر ، وتبسم اليه شفتا النور والحق ، وترمقه مقلتا الرأفـة والرقّة ، فيُبتنى على تبيان وحكمـة ، ويدرأ من شبهات أو غلظة ، فحيّا الله لي هذا الأب العظيم ، وأجلّه وأكبره عندي طول حياتي ، وجزاه عني عظيم جزاء .

أبي في ذات الله والاسلام : في وقت المحنة ، وحنق الأزمة ، ووقوع المشاكسات العقلية ، وانعكاسات الآلام على صفحة الفكر ومسرح الانسان ، وتضّرم مياهه واضطرام مجاريه ، وتبدل ألوانه وانعدم مراسيمه .

في وقت انعدام الطاقة والقابلية على احتمال الأذى ، الأذى الشديد الذي يلهب الانسان من نيرانه ، والذي يفغرفاه من هيجانه . . . . في

هذا الوقت العاصف بالرّمال العاتية والرياح السافية ، وهجومها دفعة واحدة على العاطفة الشابة ، نائرة مكامنها ومبدّدة أوصالها ومرعبة مناحيها ، حين تثور وحين تعصف بالفكر ، وتطيش بالعقل ، فيفعل الانسان فعلته متناسياً بعض انسانيته ، ومتنكراً بشعور أو بلا شعور لبعض مناهجه ، فيهفو . او يموت ! ! .

وبين الهفوة والموت طريق ملؤه عذاب ووبال وضيم .

والذي يتمنى الموت ثم يقع فيه ، أفضـــل عندي من الذي يقع في الهفوة . في الهاوية ثم لا يقوم ، او يقوم فلا يبّرا آي للآخرين أنه قائم ، ثم تبقى الهفوة عالقة على جبينه ، ومرتسمة على غـرّته ، جاثمة أشباحها في مخيّلته ، عالقة اشتاتها في ذهنه . وهذا للمؤمن والمعتبر .

اما سواهما فلا مقارنة عنده بين الموت والهفوة ، ولا تفرقة ولا ميزة لديه بين لذة دنسة أو مكـرّمة ، ولا بين فضيلة ورذيلة . . . . .

وعلى اي حال فلسنا بعون الله من هذا النمط اللاإنساني ، كما أرجوه تعالى داعياً بكل عزم ودأب : أن لا يجعلنا منهم يوماً من الأيام .

أقول في ذلك الوقت العاصف ، هبّت ريح باردة على فترتين تحمل نسيم الصبّا البارد مرة ، ومغـلّفة بندى الحياة مرة أخرى ، فأحنت على الفكر الّلاهب بنداوتها كما هبت بنسيمها الجميل ، فهدأته ببردها وأنعشته بنداها ، وأبعدت عنه تلك الحماوة اللاهبة والهجير الهاجسي الّلافح ، بعـد طول سبات وقوة وطيس .

أجل . أقول هذا بفعل الرجّة العقلية والصّحوة الايمانية التي ذكرتها

في رسالتي السابقة ، وأقول هذا بفعل تأثير الرسالتين المطوّلتين المفصّلتين اللتين ذقتم فيهما آلام الشجى ، وتحملتم من أجلهما شيئاً من الأذى .

واذا كانت هناك مزيّة للانعاب ونتيجة للإرهاق ، فليكن هذا الثمر الذي بدأ يتكامل على وضح الحياة الجديدة ، والنّماء الشعوري المتكامـــل على وفق السرد المتتابع فيهما .

وبعد هذا فالنتائـج ستكون حتماً مشعّة بالنجاح ومكلّلة بالفوز ، ما دام هناك إخلاص من باعث الألم وباعث الدواء ، وما دام هنا ايضاً استعداد لتقبل العلاج واستعداد لنماء الوصف والعلاج .

وأخيراً ، وكلمتي الأخيرة سأردّدها دون فتور أو عجز : أن اسمح لابنك حين يستوقفك على آلامه لتتألم ، فما أعزّك حين يعرض لك وينصح اليك بكل شيء فلا ترشقه بكلمة ، ولا تضربه بحزمة من التأنيب والزجر ، ولا تنظره النظرة النافرة الشازرة الغاضبة !! .

ما اكبرك فينا وما أعظمك علينا ! .

لم أدر – حقاً – انك تبسط عظمتك قبال حيران خجلان ، كما لم أدر كيف دخلت ، وكيف استوعبت ، وكيف عالجت ؟ إلاّ انني – على اي حال – رأيت افكارك تنثال وتنهال بشدة ورقّة ، بموضوعية وحكمة ، بعاطفة وحزم ، بقوة وعزم ، فأدركت أن عندك سمة تفوق ما عند الآخرين منها ، وهم اليك بفاقة ، كما أن كثيرين يفتقرون الى مثل هـذا العلاج ، واليه بعوز وفاقة ، واذا تمنّيت شيئاً فانما أرغب طرح ما جرى في كتابكم القيّم الخاص بالرسائل ، ليطلع الشباب على مكامن العــلاج ، فينقذ من

وهدات الضلال ، وهوّات الهوى . . . . ووصفات الأطباء واختيارهم للدواء يختلف من طبيب الى طبيب . . . .

وهذا عون سديد منه سبحانه لنا جاء في وقته وفي مناسبته ، مبتهلاً اليه بان يوفقني للمران على العلاج وتطبيقه ، بحكم العقل وسداد الضمير ، واتجاه الايمان دون نظرة ليمنة أو يسرة حيث لا حاجة اليها . . . . .

ثم أشاركك وثوقك الآمن بكل حروفه ، وبكل تصرفاته : بعون الله ومدده وحفاظه ورعايته انه ولي التوفيق . . . .

والشيء الذي وددت ان تطّلع عليه ، لتزداد وثوقاً فيما ذكرت في رسالتي من حيث افراطي في الناحية المادية : ان ذلك لا يتعدّى حدود المأكل والملبس ، فلم أتعدّ قط الى ما حرّم مطلقـــاً ولم اتجاوز حدوده المخطّطة على لوح الإيمان إلا اللّمم ، وان النفس لأمارة بالسّوء الا ما رحم ربي ، فلتستمد سيدي ثقتك اكثر وليكن اعتزازك بولدك أشدّ ، أما اللمم الذي ذكرته فهو هذا التفكير العارض والهواجس الممضّة .

أما المعركة الحامية الوطيس ، البعيدة المناكب الطويلة الشجار ، بين الرغبات المحرومة والغرائز المقموعة وبين العقل والايمان ، فانها ملازمــة ومتواصلة وقائمة على قدم وأصابع وساق ، مادام الفراغ لم يسدّ والشاغر لم يتلاف !! .

وليس الا الصبر مفزعاً ، ومن يدري فقد استلهم من الصّبر لذة تفوق كلّ لذة ، وأجد من المرارة حلاوة تكون بهجتها أعظم من كل بهجة ، وأهنأ من كل هناء .

ايها الاستاذ العظيم : وقصور الإدراك ثلمـــة في الفكر الانساني ، وأعني قصور الادراك للأشياء التي تنتاب الانسان ، بلا فرق بين كبـــير وصغير ، وبطوء معرفتها وضعف آلات فحصها له وعرفان ماهيتها ونتائجها مرة واحدة ، وخصوصاً للعاطفة الشابة .

فإذا كوفحت وأدمغ مفعولها الأسود القاتم ، وأشير الى مواضع الضعف ومراكز الفشل والخيبة باشارات حمراء ، أمست ذليلة حاسرة لا تملك اي قوة ، ولا يخاف منها مهما كان عتادها الذي تمتلكه ، ومفعولها السحري الذي يتراآى له ولغيره أنه . وأنه ، وهكذا تذوب الشحوم لأقل تيّار حراري أو ناري يتعرض لها .

والذي يخاف منه أن تكون الحرارة طفيفة لا تنتج مفعولها ، والنار ضئيلة لا تتجاوز بصيصاً ، فعندها تتبرز الشحوم غـــير حافلة بذلك الأثر الضئيل من ذوب واسخان لا يتعدى حدود السطح .

هذه واحدة . وثانية الأثافي المماهلة الطويلة . وللمماهلة الطويلة نتائجها غير المرضية عبر مدة من الزمن ، في موضع ينبغي فيـــه الحزم والضبط والإرادة القوية .

وليست بناكر بعد طول تصريح وابانة : اني اردت امهال الهواجس القانية الحمرة مدة من الزمن كيما أرى مفعولها ومؤدّاها ونتائجها ، وفي مدة المماهلة المذكورة لم أعمل أي عمل يثير العجب ، بقدر ما ازددت كل لون بعشرة ، وكلّ ضرر باكثر ، فازدحم فكري ازدحاماً ، ثم فكّرت أن أبث اليك شكواي وشجوي ، فما أسرع ما نمقت كلامي مثبتـــاً بعض

الطوارىء ، وما اسرع ما انهال الجواب وبان العلاج .

لست انكر هذا ، ولكني بحمد الله املك قوة من الايمان رادعة لكل سوء ، مبنية على سعة التفكير وحصافة الرأي ، خاصة ومدلولي عليكم يفيض عليّ الرأي السديد والتفكير الناصح السليم .

وأعرف كل المعرفة ، وقد كنت اقول لنفسي يومذاك : ان امهال هذه الأفكار المعتمة السوداء معناه اسبال ذراعيها لتسيطر بكلّ عنف ، برغبة أو بدونها على أفق الفكر ، وتغطّي على شمس العقل وتحجبها بركام غمامها الكثيف ، فتقوم وتنهض وتعمل وتنشط .

لقد كنت أعلم بخطورة الامهال ، ولكني أردت ذلك للحيلولة دون الايمان وحماسته اللاهبة ، وقوته الغضة اليافعـــة البكر ، وبقصد معرفتها ونتائجها شاركتموني الرأي في ذلك في رسالتكم الأولى ، فقد قلتم : (ولكنّ علاجها الحكيم هو أن يستقبل المؤمن هذه الافكار بصورة ايجابية يقظة واعية ، حتى يتعرّف الفكر أو الهاجس ، ويستبطن علّته ودوافعه ، ثم ينعطف عليه بعد ذلك فينقض أسه بالمنطق العقلي المتين ، ويبيـــد بذوره وجذوره بالملاحظة الفكرية الصحيحة) ، وذكرتم ايضاً والعبارة لكم : (واستعرضها واحدة واحدة وفتش عن جذورها وعللها وناقشها مناقشة حرّة) ، وحين تطلق الحرّية للسجناء ، وينطلق الظلام الى النور ، تظهر القوى الخفيـــة وتنتهز فرصة انطلاقها ، وخوفاً من أن تعود الى حالتها ترجع هاجمة على سجنها ، وتغير عليه غارات ، شانّة اياها بكل ما لديها من وسائـــل عنف وتهديم وتنكيل ، ومثل ما فعل أصحاب الباستيل بفرنسا تريد الافكار المعتقلة بعقال

الايمان والهدى والصلاح أن تفعل ، لا لأجل أن تنطلق فحسب ، بل لأن تعشّش هي بدلها وتهدم ما سواها وتبني أخيلتها في عروش دماغ الانسان .

وبمثل هذا الاعتراف الصّريح ، أعترف بهجوم قويّ قصف الفكر ، وخلخل ضوابطه وأشاح ببعض ستائره ، وأراد الفعلة التي خطّطها ، وحال الله بينهما فكان من المغرقين بسيلكم العرم ، والقوة الواقعية التي ضمنتموها رسالتيكم ، فأفصحتم عن دور السبات والحياة والممات والنهاية للهواجس ، لجميع الهواجس والأفكار المعتمة التي تراود أخيلة ابن آدم .

والآن لو تقلّبني في السّاجــدين ، لرأيتني من الشاكرين لله العظيم الكبير المتعال ممزوجاً بشكري اليك .

واسمح لي أن اقول شكري ۰ ۰ ۰ فليس هــذا سوى لفظ يحمل أربعه أحرف ، ذات مدلول واحد ، وكلمة واحدة ، أما معناها فلست بمسرف إذا أعطيتك شكر العمر وعرفان الجميل ، وفيه ايضاً بعض التقصير .

سيدي المبجل المكرم : الآن تغذّيت من لدنكم ، وتعطّرت من عابق أنفاسكم ، فازددت عمراً . . ويالهفي أي عمر تتجلّى فيه الخطورة بمثل ما يشب فيه الايمان ، ويصعد منبره خير الأفكار ومنير الآرآء ، ثم أخذت الستارة تنسدل تدريجاً على طائفة الأفكار المريبة والوساوس الخبيثة .

وفي اثناء الانسدال ، وقبل أن يلتحم طريق الستارة ثم تبقى الأفكار وحدها تموج وتضطرم ، لتموت وحدها بلا حافل : لازلت أرى هيجان العاصفة عتياً ومرور التيار قويــاً ، وهزّات النّفس واضطرابها ودوارها المريض . لازلت أكابد شقاءه وأعيش مضضه ، رغم أن تأثيره أضعف

مما مضى وأوهن مما سلف ، كما لست أدري عما اذا كانت هـــذه ضجعة الموت على سرير الفكر ، أم أن لها مطمحاً آخر وعملاً آخر وطريقاً آخر ؟!.

نعم ان تأثيره يضعف تارة ، ويشتد ، اذا هاجت أمواج الفكر الماضي ، واضطرمت مياهه الفائرة .

ورغم بعدي عن المفاتن المثيرة ، فلا زالت هناك صبابة في كأس أفكاري ، ستهرق في وقتها المناسب ، ان لم تهرق الآن . لااكتمك هذا أبداً ، طالما قد دخلت أفكاري وحللت منها محلاً علياً ، وجلست منها جلوس الطبيب على رأس المريض وبجانبه ، فاذا عسر الألم وازدادت الحمى ، كانت اشعاعات الطبيب تبعث التفاؤل وتجدد الحياة ، واذا تكرم بابتسامة اثناء تطببه فمعناه أنه قد أعطى لمريضه الحياة ، ووهب اليه الخلود وأعطاه غاية الأمل !! .

وأحمد الله انك استطعت أن تفهم المغيرات العاتية ، والأسباب الكمينة في درجاتها ، وأنها (من النوع الذي يهاجم الايمان في آفاقه العملية) وإنها لقدرة فائقة انبعثت من قوة الايمان وصميم الاخلاص ، ثم من شيمة التواضع الرفيع ، ولولا هذا التواضع لما استطعنا ان نتراسل ، ولم استطع أن أنبس ببنت شفة تخص هذا الموضوع الشائك .....

وكانت نصائحك هي الراشدة الصالحـــة ، وعباراتك كلها دواء ، فقد قلّمت أظافر الشر وأضعفت من الحدة العاطفية : بيد القوة والشجاعة والاقدام .

وأيم الواقع وكما أنني لم أشهد من قبل سورة الجرأة تنبعث في التحليل ،

إلاّ أنني رأيت يداً تلملم أوصال رسائلي وتضعها قبالها ثم تقدّم التحليل فكان غايته ، وللفحص فكان في تمامه ، مستوعبة جميع الأعراض والطوارىء ، حتى كان علاجها شاملاً شافياً قالعاً الآثار بلا عودة اليها .

وفي الوقت الذي ابتدىء فيه بجرع صباباتها المخزونة في كؤوس الأمل والتجدد والرّجاء والحياة ، استوثقك مرة أخرى على لزوم العلاج حتى أبرأ بعونه تعالى ، مبتهلاً الى ذي الرعاية امداد العون والنصرة على النفس وهواها الجامح ميداننا الأول في مرحلة الكفاح اللّاهب ، الذي يرتفع فيه قوم وينتكس في حمأته آخرون .

والرفعة والتسامي والطهارة من الدنس وصفاء الايمان والقلب والضمير ، كل اولئك هو غاية ما افكر لأجله وأعمل لتحقيقه ، وانها العظمة الروحية الماثلة والنقاوة الغضة التي لا يشوبها اثم أو تفكير ، أو سخط ضمير أو تناقض دعوى مع عمل ، حين أراها فأدنو ممن هو أقرب الي من حبل الوريد لأكلمه . نعم أكلّمه بما أملك من قوة الكلام وسلاسة البيان ، ليكون دعائي غير مقرون بدنس أو اثم وهو طهر متطهر ، ودعائي حفيف بالطهارة ومبرأ من الأعمال اللّاأخلاقية . عندها عظمة التدين وعظمة الايمان ، حين ما يقف المؤمن بين يدي ربه ليدعوه ولا حائل بينهما ، ولا شيء يصدّ أحدهما عن الآخر !! . وليتحقق رضا الله وهو أعظم من رضا الناس .

وأقول ذلك لا لأرضيك أو أعجبك . بل ان دفقات قلبي تزداد تدفقاً ، لتوقع هي على هذه المشاعر التي آمنت بها فيه ، واضطجعت على أوردته

وشرايينه وقبعت في وسطه اتوقع بدل يدي رغم الاستحالة . . . . .

وانها لرغبة ساورتني منذ أمد يزيـد على نصف سنة ، أن اكتب قصة أو رواية ، كانت هذه تسرح في عالم الخيال والفكر لدن مخيلتي ، أما وقد نالت رغبتكم فسأكون طيّعاً كما تأملون ، وسأقوم بترتيب أدوارها ، وموادّها وفصولها وشخصيّاتها الخيالية ، كما ستكون ناجحة المطلب ، سلسة التعبير بعيدة الغور حكيمة المنهج ، حين تكتسب مطالعتكم لها ، ويثبت فيها شيء من تعليماتكم الفنّية الحيوية الرفيعه ، وتغسل بعض الزوائد منها وغير الصالح للكتابة فيها ، ثم تنسيقها بامدادكم المنهجي الرسالي الباعث المجّدد ، الذي يخرج بين العلوم الدينية والآراء القرآنية ، فيبعثها بالروح المتجددة ، يتذوّقها كل أحد ويطلبها كل ذي لب وأدب . . . . ثم اسمح لولدك ما بدا منه من سوء ، وما راود فكره مما بثه اليك فحملك أسىً وشجىً ، فقاسيت ما لا حاجة لك به ، في وقت أقدّر ان احتياجك فيه للّراحـة اكثر منه للتعب .

ثم اسمح له ثانياً ليقبّل أنامل الايمان التاعبة على هذا الكليم ، والكاتبة علاج الشفاء وقوة السداد ، واذا بقي هناك شيء ينتظر فليس هو الاّ صفحكم الذي أناله محتاج ، واحسانكم الذي انا لشكره مفتقر . .

لتبق تكلأك رعاية السماء وتكللك براقم الاخلاص .

مع فائق تقديري للجهود الكبيرة والاتعاب المشكورة تسلم تحيات .

ولدكم المخلص

الرسالتان تثبتان صدق النتائج . فوارق بين مرض الجسد ومرض النفس . اهنئك النجاة والنجاح . انتفاضة الضمير. ما هو الضمير . الاسلام يمد رقابة الضمير برقابـــة الله . قصة ضميرك من قصـــة حياتك . ضميرك ينتصر في كل معركة تكون انت في جانبه. الانتفاضة التي ارجعتك الى الصواب . وصايا .

٤٧

النجف : ٣٠ / ٧ / ٩٦٥ .

ولدي الزكي النجيب ... ... كان الله في عونك ، وحقق لك جميل ظنك .

سلام الله عليك ورحمته الدائمة ، ونظرته العاصمة ، وتسديده الشامل ، في كل خطوة من خطواتك ، وفي كل خطرة من خطراتك ، وأشواق الأب الحاني الذي يتطلّع أنباء ولده العزيز ويترقّب بشائر شفائه الكامل ونجاحه الظافر ، وتحية الايمان المكين الذي عادلنا قلباً بقلب وكافأنا حباً بحبّ .

وصلتني رسالتك الأولى المؤرخة ١٩٦٥/٦/١٦ ، ثم وصلتني رسالتك الثانية المؤرخة ١٩٦٥/٧/١١ ، بعدها بأمدٍ قليل ، حتى كادت الرسالتان تتلاحقان ، وكأنّ تلاحقهما على هـــذا الشكل كان أمراً مقصوداً ، لتتمّ الرسالة الثانية في ذهن أبيك ما بدأت به الرسالة الأولى .

والرسالتان تفتقران الى دراسة مسهبة لست أراك الآن بحمد الله في حاجة اليها ، على أن دراستها تؤكّد لي صحّة النتائج الأولى التي قرّرتها في رسالتيّ السابقتين .

أجل . إن التأمل الطويل فيها يثبت لي صدق ما تبيّنته من تحليل ، وما وصفته لك من علاج ، وليس عليك الاّ المواظبـــة الكاملة المتصلة على تناوله ، وتطبيق مناهجه ، دون ابطاء ودون تفتير .

بني : وهذه إحدى الظاهرات في الطّب النفسي ، وعلى الأخص ما كان منه على ضوء تعاليم الدين ، يفرّق بها عن طّب الأجسام .

فريض النفس لا يحسن منه ابدآ ان يتريّث أو يفتر في تناول العلاج ، فإن كل فترة تتخلّل تطبيق المنهج تُضيع عليه فرصة بعيدة الأثر في تعجيل الشفاء ، بل وقد تكون الفترة بعيدة الأثر كذلك في تمكين الّداء ، وعلى الأخص اذا كان الــداء الذي يشكوه من نوع الهواجس والوساوس التي تهاجم الفكر دون انقطاع .

ويسوء الأثر جداً ويتعـّقد كثــيراً اذا تعددت الفترات . ومريض الجسد كثيراً ما ينصح له الطّب أن يكون تناوله الدواء على فترات .

وسبب هذا الاختلاف أن امراض الجسد انما يعالجها الطب بعقاقير ومستحضرات ، وهي غريبة عن الجسد مؤثّرة على قواه ، فاذا أدمن المريض تناولها برهة طويلة ، أو شك أن يتكاثف ذلك التأثير ، فيضعف مناعــة الجسد من بعض النواحي ، أو أن يعتاد الجسد على ذلك التأثير ، فيعسر عليه بعد ذلك أن يقوم بعمله الطبيعي مستقلاً ، وأدنى الفروض المحتملة أن

يصبح ذلك الدواء معتاداً للجسم ، فلا يؤثر الأثر الكامل الذي توخّاه الطبيب.

أما طب النفس فهو انما يعالج بعض نواحي النفس ببعض نواحيها ، فلا يخشى منه ضعف مناعة ولا تأثير على قوة ، والمران على تعاطي العلاج النفسي ، انما يعني تغليب جهة قوية من النفس على جهة ضعيفة مضطربة منها ، لتفيض عليها مدداً من الثبات والقوة ، وطول المران انمــا يعني اتّساع ذلك المدد وتمكّن ذلك الأثر ، واعتياد النفس على ذلك انما يعني اعتياد النفس على أن تجبر نواحي الضعف منها بنواحي القوة ، وأن يملك الانسان أن يبني شخصيته بنفسه بناءً جديداً لا ضعف فيه ولا اضطراب .

ولدي : لقد أراد الله بك خيراً ، وهو ما يزال يريد بك الخير ، وهي عادته كذلك بكل مؤمن أسلم اليه وجهه ، وأخلص له دينه :

لقد أراد الله بك خــيراً فأبدلك من الكبوة التي رمت أن تكبوها انتباهاً ، ومن الهوة السحيقة التي كدت أن تتردّى فيها تعالياً وارتفاعاً .

لقد أراد الله بك خيراً ، وأنت في أحرج المواقف وأشدّها خطراً على ايمانك ، وانها لتجربة خطرة بالغة الخطر ، هذه التي مرّت عليك ، وان أصبحَت بفضل الله سبحانه وبقوته العاصمة مفتاح خيرٍ لك وسبب نجاة ! .

ويبدو أن سرعة نجاحك في العلاج من أزمتك الأولى ، كانت موقوفة على أن تمرّ بمثل هــذه التجربة ، فهيأتها لك المقادير ، ثم أعانتك على الإفلات من حبائلها ومن سوأتها ، وقد كنت بها مخاطراً بل ومغامراً .

وأكرّر كلمة الخطر كلّما ذكرتُ هذه التجربة لأحذّر الآخرين أن

يقتربوا منها ، نعم ، وانها لتجربة سوداء ، ليس من الرشـــد ولا من الايمان أن يختار المؤمن المرور بها ، أو يفكّر في الهبوط اليها ، فقد لا تسعده – وهو يهوي اليها – انتفاضة في ضمير ، أو إغاثة من المقادير .

وانا أهنئك النجاة من التجربة أولاً .

وأزفّ اليك البشرى بالنجاح المحقّق القريب من أزمتك الأولى ثانياً .

أما القوة التي أحسست بها تهزّ كيانك ، وترجّ نفسك رجاً عندما أوشكت أن تعلق في الحبائل ، أن تصبح في عداد الهلكى غير المأسوف عليهم من مرتكبة الآثام وضحايا الطيش .

أما هذه القوة التي شعرت بها تقف في وجهك قبـــل أن تضلّ ، وتأخذ بيدك قبل أن تكبو ، فليست رجّة عقليّة كما قلت في رسالتك ، وانما هي انتفاضة الضمير .

نعم هي انتفاضة الضّمير • الضّمير . الوجدان كما يرغب أن يسميه بعض علماء الاخـــلاق ، أو (الأنا الأعلى) على ما يسميه بعض العلماء النفسانيين .

والضمير قوّة فطريّة أودعها الخالق سبحانه في نفس هذا الانسان، ومهمّة هذه القوة : أنها تدعو الانسان الى فعل الخير وتحرضـــه عليه ، وتشعره بالرّضا والطمأنينة والرّاحة الكاملة بعد أن يفعله ، وتحذّره من عمل الشر وتلومه عليه ، وتشعره بالألم والتقريع والتوبيـــخ والقلق النفسي الشديد اذا هو ارتكبه ، فهي رقيب يقظ على سلوك الانسان ، ومرشـــد أمين ، وحاكم عدل في وقت واحد ، وجدوها في توجيه الانسان واعلاء

شخصيته وانمائها وحراستها كبيرة جداً .

وتمتدّ رقابة الضمير حتى الى افعال النّاس الآخرين ، ولذلك نجده يسّر ويغتبط بفعل الخير من أي فاعل كان ، ونراه يتألم ويتقزّز لفعل الشرّ من أي فاعل كذلك ، وقد تحدّثت عن الضمير حديثاً وافياً في كتاب الأخلاق عند الامام الصادق (ع) ، وفي الحلقة الأولى من كتاب الاسلام، فارجع اليهما اذا طلبت المزيد .

والضّمير ذاته ليس بمدرك ولا معصوم ، فلا يملك بذاته أن يتعرّف على مقياس صحيح ثابت لمعرفة الخير والشر ، وهو يعتمد في تفرقته في الحكم بين ما هو خير وما هو شر على ما يزوّده به الفكر ، وما يقبسه من تقاليد المجتمع ومواضعات العرف ، وواضح جداً أنّ هذه السبل غير مضمونة الصواب ، ومن أجل اعتماد الضمير على هذه السبل كانت احكامه على الأفعال بالخير أو الشر عرضة للخطأ والزيف ، اذ لعلّ المقياس الذي استند اليه في الحكم كان مخطئاً زائفاً .

ومن أجل ذلك كله كان من الضّروري لهذا الضمير الإنساني الموجّه أن تكون له مقاييس صحيحة ثابتة لمعرفة الخير والشر ، بعيدة عن الخطأ والزيف ، مضمونة الصحة والثبوت : أن يكون للانسان دين إلهيّ معصوم يزوّده بتلك المقاييس الصحيحة الثابتة .

وقد يخادع الانسان ضميره ، وقد يستغفله ، وقد يصطنع الحيل والتعليلات البعيدة المبرّرة لعمله ، ليكتفي بذلك تأنيب الضمير ويكتسب رضاه ، والضمير يتقبّل كل اولئك لأنه كما قلت لك غير مدرك ولا معصوم.

ومن حكمة الاسلام في علاج ذلك ، أنه أمّد رقابة الّضمير برقابة الله العظيم خالق الانسان وخالق الضمير ، بهذه الرقابة العليمة المحيطة ، التي لا تخادع ، ولا تستغفل ، ولا تكفي منها حيلة ، ولا تخفى عليها خافية ، ولا يفلت من قبضتها شيء . (وأسّروا قولكم أو اجهروا به انه عليم بذات الّصدور . ألاّ يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) ، (١٣ — ١٤ : الملك) ، (ولقد خلقنا الانسان ولعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) ، (١٦ : قّ) .

ويزكو الضمير ويرهف احساسه ، وتشتدّ مراقبته ومحاسبته للشخص على أعماله ، بمقدار إلتزام ذلك الشخص بالموازين الخلقية ، وايمانه بها وانقياده في العمل على وفقها ، ويضعف الضمير ويهن ، ويخفت صوته ويهدأ تأنيبه ، كلّما وهنت الروح الخلقية في الشخص ، وضعف تمسكه بها ، وكثرت مخالفته ايّاها ، وقد ينتهي الأمر ببعض الناس الى أن يخمد في نفوسهم صوت الضمير خموداً كاملاً ، فلا يشعرون له بدعوة الى خير ، ولا بتأنيب على شر ، وهذه الحالة يسميها علماء الأخلاق بموت الضمير .

ولدي وعزيزي : لقد أسهبت لك في وصف الضمير وذكر أحواله وأوصافه وجدواه ، لأثبت لك في ما بعد أن الضمير المؤمن بين جوانحك هو الذي قال فيك قولته ، وهو الذي أوقفك حتى لا تنطلق ، وأخذ بيدك كي لا تنزلق .

ولقد كان إيمانك الفطري الباكر ، ونشأتك المؤمنة المحافظة ، والتزاماتك العملية باتّباع مقاييس الإسلام جهد استطاعتك ، لقد كانت هذه الأمور

كفيلة بأن تصوغ لك ضميراً مؤمناً ملتزماً ، شديد الرقابة مرهف الحسّ قوياً على مواجهة الحوادث .

ولا اطيل باعادة استنئاجاتي السابقة ، وبمكنك أن ترجع اليها – اذا شئت – في الرسالتين المتقدمتين .

لا أعيد ذكر ما تقدم ، ولكني أشير اليه اشارة عامة لنستحضر – انا وأنت – في وعينا هذا الصف الطويل من المزاحمات والأحداث التي واجهها ضميرك طوال حياته .

نشأ ضميرك نشأة ملتزمة ، مكّنت له أن يكتسب صفات الضمير الحي الملتزم ، ومرّت بك الكوارث والصّدمات ، فلم تنل من ضميرك شيئاً كما أنها لم تنل من ايمانك ، وحين انحرفت العاطفة المحرومة بايمانك الى ناحية الروح ، وأفهمتك ان الروح وحدها هي مجال الايمان ، انحرف ضميرك بتبع ذلك الى هذه الناحية وحدها ، وتحت تأثير حكمه كنت تعيب على نفسك وعلى الناس أن تقوموا بأي نشاط لا يختص بالرّوح ، وتحت تأثير حكمه كنت تشعر بالتأنيب لنفسك والحكم عليها بالاستقذار لما زاولت الأعمال الدنيوية خشية من سوء المصير .

وانتبهت للخطأ الذي وقعت فيه ، وأدركت ان الايمان لا يختص بناحية الرّوح ولا يختص بناحية الجسد ، بل يعطي كلاً منهما حقه دون ميل أو تحيّز ، وعرفت انك بانصرافك الى الرّوح وحدها واهمالك مطاليب الجسد كلّها قد ارتكبت خطأ مزدوجاً في مقاييس الاسلام ، وأنه لابد لك من تدارك ذلك ليحصل التوازن الذي يأمر به الاسلام .

وخادعتك العاطفة والرغائب المقموعة مرة ثانية ، وأفهمتك أن الطريقة السريعة للعلاج هي ان تفرط في جانب المادة كما أفرطت من قبل في جانب الرّوح ، لترجع من مجموع الإفراطين الى نقطة الاعتدال .

وانحرفت مع العاطفة والرغائب المقموعة مرة ثانية ، وانحرف ضميرك فقد أقنعته ان تلك هي طريقة العلاج ، فلم يثر ولم يؤنّب ولم يحكم بالاستقذار كما كان يصنع من قبل .

ثم انهالت الوساوس والهواجس والأفكار المختلفة التي تزاحم الايمان في شتى انطلاقاته ، ولابدّ وأن تكون هذه الوساوس في بداية أمرها مبعثرة غير منظّمة في الشكل ولا في الوقت ولا في القوة ، وربما كانت هذه صفتها الى النهاية ، وقد تتخذ على طول المران والمدة نوعاً من التنظيم ، ومهاجمتها للفكر يكون على فترات متلاحقة أو متفاوتة على شكل حرب عصابات ، وهي ترتدّ مدحورة في كلّ مرّة ، وللضمير اسهام كبير في صدّ هذه الهجمات وتبديد بعض هذه القوى .

أقول : ثم انهالت الوساوس والهواجس والأفكار المختلفة التي تزاحم الايمان ، وتوالت الضغوط والهتافات الغريزية التي ترغب أن تنطلق من قياده ، والضمير يكافح ويناضل ويهزم .. وقد ينهزم .

وانهزامه يعني خفاء صوته في شدة هتاف الغريزة .

وانهزامه لا يكون الاّ اذا شعر بأنك لست الى جانبه .

وهو ما دمت أنت في جانبه لا ينهزم ولا يخفى صوته مهما اشتدّت المزاحمات ، وهذه هي قاعدته المتّبعة طول الحياة ، واذا انهزم فانه يكرّ ،

وصوته أقوى وعزيمته أمضى .

واستمرت الحال ولعلها طالت ، فالوساوس والغرائز تهاجم والضمير يكافح ، وهو دائم الانتصار على الفريق الأول ، وهو مع الفريق الثاني في حرب سجال .

وأعيى القوى المناوئة أمر هـذا الحارس المرابط ، فوحّدت قواها وجمعت فلولها ، وقرّرت أن تشنّها هجمة فاصلة تنهي بها المعركة ، وارتبك الضمير لهذا التجمّع وهذا الهجوم ، ورأى أنه سيخسر المعركة دون ريب ، فقد كنت أنت الى جانب القوى المناوئـة ، نعم ، وقادك من لم يقدك بالأمس ، كما قلت في رسالتك الأولى .

لقد علم بأنك لست الى جانبه ، وهذه أولى بوادر الانهزام .

وأتبعك النظر ، وأتبعك السعي ، وانت تسير بقدميك الى موضع ... ، لعلك تلتفت نحوه قليلاً فيفعل ما يجب أن يكون !! .

وفي فترة من فترات تردّدك وأنت على شفير الهوّة نظرت الى ماوراء .

نظرت الى الايمان ، والى الضمير ، فابتدرك بالهزّة التي ارتج لها كيانك ، وانتفضت منها جوارحك ، وانتبهت من رقدتك وصحوت من سكرتك ، وكلّل جبينك عرق الحياء من الله ، وتدفق في قلبك نور الايمان به .

وفتحت بصرك لتعتذر الى الضمير !.

الى الايمان ! .

الى الله الذي لم ينسك من نعمه حتى في هذه البؤرة ، ولم يغفلك من تسديده حتى في هذا المأزق ، وقمت نقياً ممّا يدنس ويشين ، وأضافت لك

هذه التجربة يقظة في ضمير، وقوة في ارادة ، وورعاً عن الوقوع في سقطة .

بني : أرأيت كيف أراد الله بك خيراً وأنت في أحرج المواقف وأشدّها خطراً على ايمانك ، وأجدرها بأن تحرم فيها من رعايته ؟ ! ثم أرأيت كيف أصبحت هذه التجربة الخطرة مفتاح خير لك وسبب نجاة ؟!.

قلت : وأنت في أحرج المواقف وأشدها خطراً على ايمانك ، ولا أعني أن المؤمن حين يكتسب المعصية يخرج من ايمانه ، ولكني أقصد أنه يكون متناقضاً ، بعيداً شديد البعد عن روح ايمانه ، بعيداً شديد البعد عن ربّه .

وقد ينتبه الضمير بعد السّقطة . فيستصلح منه ما فسد ، ويندم والنّدم أولى مراحل التوبة ، وينيب الى الله انابة خالصة من سوء مااقترف ، ويقبل الله عليه إذا أقبل هو على الله ، وهذه بعض جدوى الضمير للانسان ، نعم وهذا بعض نماذج الاسلام في ربط مناهجه بأعمق الأعماق من نفس الانسان ! .

ولدي : ثق أن هذه الانتفاضة وحدها قد ألقت عن كاهلك نصف العبء وخففت عنك نصف العلاج ، ولم يبق عليك الا ان تتناول العلاج للنصف الباقي .

وعليك أن تكون دقيقاً في المراقبة ، دقيقاً في تناول العلاج .

وعليك أن تحترم ضميرك المؤمن ولا تعرّضه للأخطار ، وتساهلك في أمره انما يعني تساهلك في أمر سعادتك ، فان الضمير حارس شخصيتك كما هو حارس ايمانك .

عليك أن تحترمه ، وان تحترز من التواءات الفكر ، والتواءات العاطفة

والنواعات الغريزة في خداعه ، فان اي مخادعة منها للضمير انما تتم على حساب سعادتك ، وعلى حساب شخصيتك وعلى حساب ايمانك .

وأؤكد وصيتي أن تكون الرّسالتان السابقتان مع رسالتي هذه ، أن تكون رسائلي الثلاث نصب عينيك مدة العلاج ، فلقراءتها مدخل كبير في ذلك ، ولعلك تعرف سّر ذلك في وقت قريب .

وختاماً ازف اليك جزيل تحياتي ، مع طيب أمانيّ ومشرق آمالي ،

والسلام .

لأبيك

وصية . الاسلام مصدر فياض بالقوة . بعض ضمانات الله للمسلم . شبهة صليبية . لنقف عند النصين . فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم . من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر . نظرة في الآيات الكريمة . من تناقض الأناجيل .

٤٨

بغداد ـ كلية الهندسة : ٢٥ رمضان سنة ١٣٨٧ .

حضرة الشاب الزكي المهذب ... دمت في سعادة .

أهدي اليك والى من يعز عليك من الشّباب النجيب المؤمن وافر تحيتي ، وزكي تسليمي ، ومشرق آمالي ، مع دعائي لكم في هذه الليالي المباركة : ان يجعلكم الله من أهل هذا الشهر العظيم ، ومن حملة القرآن الذي انزل فيه ، ومن أنصار الحق الذي تبلّج فيه نوره ، وأن يعيدكم عليه في سلامة من دينكم ، واستنارة من قلوبكم وأعمالكم ، ووصيتي اليكم ـ ايها الأعزاء ـ بنفوسكم الطّاهرة ، أن لا تنجرف ولا تنحرف .

إن التيارات الكثيرة المختلفة ، بين أيديكم وعن أيمانكم وعن شمائلكم تجرف كل شيء ، ولا يأمن منها إلا من تسلّح بالعقيدة الثّابتة ، والمعرفة الكاملة . وان عواصف المغريات والمرديات المحيطة بكم تحرف كل أحد ، ولا ينجو منها الا من ادّرع بالإيمان الراسخ والخلق الرصين . وأنتم عدّة

الاسلام ليومه وذخيرته لغده ، فلا تقتطعكم هذه الصّغائر عن غاياتكم التي أرادها لكم ربكم ، ومنازلكم التي أهلّكم لها دينكم .

أجل ايها الأعزاء : انتم عدّة الاسلام ليومه وذخيرته لغده ، فأنتم جيله الحاضر ، وأنتم حملة دعوته لأجياله المقبلة ، وأنتم قوّته التي تصدكل تيار ، وتردّ كل عاصفة ، وحاجة الدّين الى هذه القوّة المخلصة العاملة ، تضاهي حاجته الى القوة المفكرة المناضلة .

أنتم عدّة الاسلام ليومه ولغده ، وغايتكم التي أرادها الله لكم كبيرة خطيرة ، ومسؤوليتكم التي ناطها بكم توازنها في الكبر والخطر ، فاعرفوا انفسكم ، وقدّروا غايتكم ومسؤوليتكم ، تدركوا بذلك عظم وزركم إن أنتم انحرفتم أو انجرفتم .

ومزالق الاخلاق أيها الاعزاء لاتقل خطراً ولاسوء عاقبة عن مزالق الفكر ، وهي أقوى شراكاً منها واكثر فعلا في نفوس الشباب ! .

وأرجوأن تكونوا أبعد الناس عن ذلك كله ، ولكنها وصيّة يقتضيها واجب الدعوة ، وتحذير يستدعيه كبر المسؤولية ! .

والاسلام مصدر فياض بالقوة التي لا تقاوم ، والعزة التي لاتضارع ، والأخلاق الرفيعة والصفات الحميدة ، التي لن تهن ولن تستكين لشيء من المغريات والمثيرات ، هومصدر فياض بكل أولئك لمن تمسك به من أبنائه ، فالمستمسك بالإسلام أبعد الناس جميعاً عن أيّ ريبة ، وأقوى الناس على أي مؤثر ، (ألم تر كيف ضرب الله مثلا : كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربّها ، ويضرب الله الأمثال

للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة ، اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار . يثّبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله ما يشاء) . (٢٤ - ٢٧ ابراهيم) .

بني : هذا هو المثل الصّادق القريب للاسلام ولما سواه من المبادئ والأديان : كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء . وكلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار . وهذا هو الحكم العادل المطابق في المؤمنين بالحق المستمسكين به ، وفي غيرهم من الناس : يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت . ويضّل الله الظالمين . يلزم كلاً منها موجب عقيدته ، ويؤتيه نتيجة سلوكه .

لقد تمسّك المؤمنون بكلمة طيبة ، بشجرة طيبة ثابتة الأصل ، سامقة الفرع ، توتي اكلها كل حين ، فثبتهم الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وقد تعلّق الظالمون بكلمة خبيثة . بشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ، فلا قرار لها ولا نماء ، فأوكلهم الله الى ماتمسّكوا به ، فكانت عاقبتهم الضّلال ونتيجتهم الوبال ، وصدق الله العظيم الذي يفعل ما يشاء . .

هذه بعض ضمانات الله للمسلم حين يتمسّك بدين الله حقّ التمسك ، ويعتصم بتقوى الله حق الاعتصام : منعة من أي زلزلة ، وعصمة من أي ريبة ، وثبات أمام أي قوة : (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب) (٢٨ : الرعد) .

عزيزي . . . : قرأتك مرة ثانية بعد فاصلة عام من رسالتك الأولى فرأيت الروح الحي الذي لا تزيده الأيام إلا ايماناً ، والقلب الواعي الذي لا تكسبه الحوادث الا اطمئناناً ، ورأيت حرصك البالغ على دفاع الشبهات عن دينك ، وسألت الله لك مزيداً من الهدى ، ومزيداً من التوفيق ، إنه مجيب الدعاء .

ورويت عن بعض أصدقائك شبهة صليبية ، واجهه بها القسيسون في الكنائس البريطانية ، عندما كان في بريطانيا للدراسة ، وقد طلبت الجواب عنها .

يقول لك : كلما التقيت بقسّ أو غيره من رجال الكنيسة ، وجرى حديث الأديان السماوية ، بدأ بالتهجّم على الإسلام ووصفه بأنه دين العنف والقسوة ، لأنه يقول : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) وان المسيحية دين السماحة ، لأنها تقول : (من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرّداء أيضاً) .

قرأت هذه الشبهة فضحكت ، ثم تساءلت : أهي شبهة يراد بها الكيد للإسلام أم هي هبوط في الفكر البشري حين يدفع به الحقد الى أن يقول ، فيخبط في القول ، حتى يعدّ المساوي محاسن ، والمحاسن مساوي؟! .

لست أدري ، ولكنّهم قالوها ، وكتبوها دون تحرّج أو تحرّز ، وصديقك يحدّث أنه كلّما التقى بواحد من رجال الكنيسة ذكرها له ، فهي اذن في رأيهم رمية قويّة التّسديد ، وهذا موضع العجب ، وأعجب

من ذلك أنهم يواجهون بها رجالاً جامعين !! .

بني : لنقف قليلاً عنـد النّصين اللّذين ذكرتهما الشبهة ، ولنقارن بينهما مقارنة موضوعيّة خالصة ، ولننظر أي الشّعارين أحق أن تقوم عليه شريعة العدل الأعلى ، التي تضع حداً نهائياً لاعتداء المعتدين وغشم الغاشمين ؟.

أيّهما أجـــدر أن يكون شعار دين الله الذي يصون حقوق الانسان وحرماته عن أي تعمّد وتفريـــط ، من أيّ ظالم وأيّ متعمّد من الناس أجمعين ؟ .

والناس – كما يعلم كلّ أحد – متفاوتون في النفسيّات ، متفاوتون في الدّوافع والمؤثرات ، وأكثر الناس من يطمعهم اللّين – لو عُوملوا به – بالتعدّي على النّاس ، والتمادي في ظلمهم ، حتى تنتشر الفوضى ويعم الفساد .

لننظر أيّ النّصين أحق أن يكون شعار العدل الكامل الذي لاجور فيه ، ولا ميل ولا محاباة ، ولا ظلم من حاكم ولا محكوم ؟ ولنترك الحكم في ذلك للفكر المجرّد عن أي تعصّب وأي تبعيّة .

إن العقل لا يشّك أبداً في أن التعدّي لا ينقطع أبداً ما لم نجعل له حداً ، وأن حقوق الانسان وحرماته وحريّاته لا تحفظ ولا تصان مالم نجعل لها ضماناً ، وعلى هذه القاعدة جرت قوانين الدنيـــا كلّها من أقصاها الى أقصاها .

وإن العقل لا يشك أبداً في أن مكافاة المعتدي بنظير اعتدائه تقمع غيّه وتقطع تماديه ، ولا حيف في تلك المكافأة عليه ولا على سواه ، فهي

أضمن لصيانة الحقوق ، وأمكن لقيام العدل .

ثم لننظر - بعد ذلك - أليس هذا هو المعنى الكامل لقوله تعالى : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) (١٩٤ : البقرة) ، وقوله تعالى : (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) (١٢٦ : النحل) ، وقوله تعالى : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) (٤٠ : الشورى) وما يوافق ذلك من النصوص ؟ .

ثم لننظر من الجانب الآخر : أي مدىً من العدل يستطيع أن تحقّقه النص المسيحي : (من لطمك على خدّك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً ، ومن سخّرك ميلا واحداً فاذهب معـــه اثنين) (٣٩ - ٤١ : الاصحاح الخامس من انجيل متى) .

أي مدىً من العدل يستطيع أن يحقّقه هذا النّص ؟ ! .

ولماذا لا تعمل به حتى الكنيسة ذاتها ، وحتى رجالها هؤلاء الذين يدعون الى هذا الشعار ، ويرونه أحد محاسن المسيحية ، وموجبات تفضيلها ، لماذا لا يعملون به هم ، فانهم أحق الناس بتطبيقه ، فيحوّل أحدهم خده الأيسر لمن لطمه على خده الأيمن ، ويترك الرداء لمن يخاصمه في الثوب ؟ !

انهم لا يعملون بذلك ، لأنهم يوقنون في قرارة نفوسهم : ان العدل لا يتحقق من هذا السبيل ، وانما هي دعوة خلقيّة تبعث على السّماح ، ولكنها لا تصون الحقوق ، وهذا في منتهى الوضوح .

ولدي العزيز : والآيات الكريمة الآنفة الذكر ، تشترك جميعاً في تقرير

الحق للمعتدى عليه ، : أن يرّد العدوان بمثله ، ولكننا نجد أن سياق الآيات وملابساتها تختلف في بعضها عن بعض .

فالآية الأولى تتحدث عن القتـــال في الشهر الحرام ، وهو محرم في الاسلام ، فاذا بدأ الباغي فقاتل المسلمين في الشهر الحرام ، جاز للمسلمين قتاله فيه ، رداً لبغيـــه ، ومقاصّة له بما استحّل من حرمة الشهر ، : (الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) ، ان المجال مجال قتال ، وتأديب على بغي ، ومقارعة قوة بقوة ، ولا مكان هنا لعفو وصفح عن حق ، نعم ، يجب على المسلمين الاحتراز من الظلم ، فلا يعتدون على الباغي بأكثر مما يستحق ، : (واتقوا الله ، واعلموا أن الله مع المتقين) .

والآية الثانية واردة في سياق الدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أحسن ، فاذا اعتدي على الداعية وهو يؤدّي مهمته ، فله أن يرّد العدوان عن نفسه ، : (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) ، وله أن يترفع عن المقابلة ، فيحلم عن جهل الجاهل ، ويُغضي عن سفه السفيه ، ويصبر على ذلك العدوان ، فيُقرن له جزاء المجاهدين وجزاء الصابرين ، (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) ، وهـذا إذا كان التعدي تعدياً على شخص الداعية ، لا على دعوته .

والآية الثالثة واردة في سياق تعـــداد محامد الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، والتعريف بخصائصهم وصفاتهم ، التي استوجبوا من أجلها الفوز بما عند الله من درجات وكرامات ، فهم (الذين إذا أصابهم البغي هم

ينتصرون) ، فهم لا يخضعون لمذلة أبداً ، ولا يستكينون لظلم ، ولكن شدة إيمانهم تحجزهم عن ان ينتصروا بأكثر مما يسوغ لهم ، فيصبحوا بذلك في عداد الظالمين ، : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) لا أكثر منها ، وهي رد للبغي ، ومكافأة للظلم ، فلا عقاب عليهم في دفع هذا الجزاء للباغي الظالم .

وهو حق شرعي ثابت لهم في شريعة الله ، ومعنى ذلك أن لهم اسقاط هذا الحق ، والعفو عن الظلم ، وطلب الاصلاح إذا تطلعت نفوسهم الرفيعة اليه ، : (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) .

وتقرير هذا الحق للشخص المعتدى عليه ، واعتباره نافذ الحكم والإرادة في الشخص المعتدي ، فله أن يستوفي منه حقّه كاملاً ، وله أن يسقطه عنه عفواً وتكرّماً ، هذا التشريع بذاته انتصاف للمظلوم ، وجبر لمعنويّته ، وكسر لمعنويّة الظالم ، فإذا أسقط المظلوم حقه شاعراً بذلك ، مترفّعاً عنه ، كان ذلك ضربة معنوية على الظالم ، لا تقلّ عن الاستيفاء المادّي في التأديب :

عزيزي ... : وبعد هذه الوقفة القصيرة ، التي وقفتها معك على الآيات الكريمة التي تعرّضت لها الشبهة ، وقد تبيّنّا فيها بعض أسرار عظمة القرآن ، وبعض مناحي العـــدل في تشريعه ، : أودّ أن تقف معي على النصّ المسيحي الذي تعرّضت له الشبهة أيضاً .

على الإصحاح الخامس من انجيل متى الذي يشتمل على النصّ المتقدم. على الاصحاح الخامس فقط ، لتعرف بعض عجائب هـــذا الكتاب ، الذي تقدّسه مئات من ملايين البشر !! .

ولاأفصّل ولكني أشير ، لتقتني أنت نسخة من الكتاب ، فتقرأها

اذا أردت مزيداً من العجب ومزيداً من الاطلاع ! .

تقول بعض نصوص هذا الإصحاح عن لسان السيد المسيح : (لاتظنّوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل . فاني الحق أقول لكم الى أن تزول السّماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس . حتى يكون الكلّ) ، وهو يعني بالناموس : الشريعة والتعاليم التي جاء بها موسى في التوراة ، وبمقتضى هـذا القول فالناموس ثابت باقٍ لا ينسخ منه حكم أبداً ، ولا يزول منه حرف ولا نقطة .

ثم تقول بعض نصوص هذا الاصحاح أيضاً عن لسان السيد المسيح : (وقيل (يعني في النّاموس وعلى ألسن الأنبياء) : من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق ، وأمّا أنا فاقول لكم إن من طلّق امرأته الا لعلّة الزّنا يجعلها تزني ، ومن يتزوج مطلقة فانه يزني) ، ومعنى هذا النص انه ابطل حكم الطلاق الثابت في الناموس ، وأيّ معنى للنسخ غير هذا ؟! .

وتقول بعض نصوصه عن لسان المسيح كذلك : (سمعتم أنه قيل : عين بعين وسنّ بسن ، وأمّا أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر . بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً .....) ومعنى ذلك أنه ابطل حكم القصاص الثابت في الناموس .

وفي بعض نصوصه : (سمعتم انه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوّك ، وأمّا أنا فأقول لكم أحبّوا أعداءكم باركوا لا عنيكم .....) .

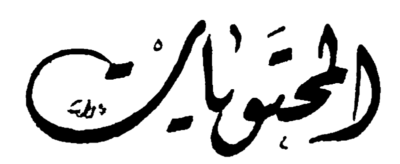
تفكر في هذه النصوص وفي مناقضتها لأحكام الناموس ، ثم انظر

أي معنىً لنقض الناموس غير نسخ تعاليمه ؟! .

هذا نموذج صغير مما في الكتاب المسيحي المقدّس من تناقض وتهافت يجب أن يتنزه عنه وحي السماء ! فاقرأه قراءة واعية تلق العجب العجاب :

واذا استطعت فلتكن قراءة الكتاب مشتركـــة بينك وبين صديقك الذي روى لك الشبهة الصّليبية عن رجال الكنيسة لتفيدا عبرة وتتمتّعا بسلوة.

وسلامي الكثير لك ولمن يعز عليك .


المحتويات